وثائـق ونصـوص

2

# الـدولة الاسلاميـة في ظـل الخلافـة العباسيـة

## عصر الخلفاء الكبار

132 هـ ـ 232 هـ / 750 ـ 847 هـ

نصوص تاريخية مختارة جمعها ورتبها وبوبها
ووضحها بشرح أحد النصوص النموذجية

محمد زنيبـر
أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط

1985

# وثائق ونصوص

## - 2 -

طبــع وتوزيــع دار النشر المغربية
13/5 زنقة الجندي روش ـ الهاتف : 24.51.47/48
الـدار البيضـــاء

رقم الايداع الثانوني 1984/205

وثائق ونصوص

2

# الدولة الاسلامية في ظل الخلافة العباسية

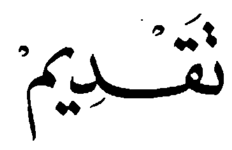
## عصر الخلفاء الكبار

132 هـ - 232 هـ / 750 - 847 هـ

نصوص تاريخية مختارة جمعها ورتبها وبوبها
ووضحها بشرح أحد النصوص النموذجية

محمد زنيبر

أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط



# تقديم

يسرنا أن نقدم هذا الجزء الثاني من النصوص التاريخية الذي اجبرتنا ظروف قاهرة على تأخير صدوره، ولطالما سألنا عنه العديد من الزملاء والقراء والطلبة الذين سبق لهم أن استعملوا الجزء الأول، وهو قبل كل شيء متجه إلى الباحثين في التاريخ والطلبة من مختلف المستويات، ولست في حاجة إلى الالحاح مرة أخرى، على ما في تحليل النصوص التاريخية من فائدة وأهمية علمية، فدورها في التعليم بجامعتنا كاف للتدليل على ذلك، بل ان برنامج الدراسات الجديد الذي بدأ تطبيقه انطلاقا من سنة 1982 ـ 83 خصص لها مكانا واسعا وجعل لها حصصا موازية لكل الدروس المهمة، وبذلك استدرك النقص البين الذي كان يعانيه البرنامج السابق من هاته الناحية، واستجاب للرغبة التي طالما عبر عنها الأساتذة المعنيون.

يتناول هذا الجزء العصر الأول من تاريخ العباسيين وهو عصر التأسيس والقوة بالنسبة لهاته الدولة التي تمثل استمرارا وفي نفس الوقت، تجديدا للخلافة الاسلامية أي ذلك النظام السياسي الذي تمخض عنه المجتمع الاسلامي منذ أول يوم فكانت له أصالته وطرافته ولو التقى مع أنظمة أخرى من بعض الوجوه. لكن الدولة العباسية ليست حدثا بارزا في التاريخ الاسلامي وحده، بل إن ظهورها كانت له انعكاسات قوية ومتعددة على التاريخ العالمي، كما بينت ذلك الدراسات الحديثة.

فاذا نظرنا الى تطور العالم الاسلامي من الداخل، نجد أن هاته الدولة هي التي أوجدت له مقوماته النهائية ووجهته في الاتجاهات التي لن يحيد عنها فيما بعد. فكأن هذا العالم ظل تائها يبحث عن نفسه أثناء القرن الأول وطرفا من القرن الثاني ووجدها في الاخير بصورة يقينية عند قيامها أو، بالأحرى، بسبب قيامها. وهذا هو معنى كون تاسيسها ثورة في عين المؤرخين المعاصرين لامجرد تغيير في الاسرة الحاكمة أورجوعا الى نوع من الشرعية كما كانت تراها بعض الفئات المتشيعة، لقد كانت بالفعل، ثورة بكل ما شحنت به هاته الكلمة في عصرنا من معان تتصل بالبنيات السياسية والمجتمعية، والثقافية والدينية والاقتصادية. فهي على سبيل المثال، حولت الخلافة من صيغتها

العربية البحتة كما كانت في عهد الأمويين الى صيغة أكثر التقاء وتجانسا مع المجتمع الاسلامي كما أصبح في أواسط القرن الثاني الهجري. إذ أقبلت شعوب كثيرة غير عربية على الاسلام وامنت به وأصبحت بحكم المنطق الاسلامي نفسه تطمح إلى تحقيق المساواة الاسلامية، فكان لابد من التدرج من صيغة الدولة العربية الي صيغة الدولة الاسلامية. وكان لابد من تحقيق مفهوم **الأمة** الذي نادى به القرآن والذي يلغي النزاعات العنصرية والنعرات القومية والعصبيات القبلية ليرتكز على مقياس اللقاء في العقيدة **والتقوى**. وهكذا أصبح الاتجاه واضحا إلى إيجاد مواطن من نوع جديد في عهد الخلافة العباسية الا وهو **المواطن المسلم**، الذي يعتبر **دار الاسلام** كلها وطنا له يستطيع أن يتحرك فيها من أقصى شرقها إلى غربها ويستقر حيث طاب له المقام، فشاهدنا بعض الفارسيين يأتون إلى المغرب ويؤسسون به دولة بمباركة أهل البلاد من البربر ومساندتهم، وشاهدنا بعض اللاجئين السياسيين مثل ادريس بن عبد الله الحسني يتخذ من المغرب الأقصى وطنا له ويبايعه أبناء المنطقة أميرا عليهم .

هاته الصورة المشرقة لاتعني أن كل شيء أصبح على أحسن ما يرام بعد قيام الدولة العباسية، لقد استطاعت أن تحقق بعض الأهداف التي رمت إليها الثورة التي أصعدتها الى الحكم ، فوضعت نهاية لمشكلة **الموالي** التي تفاقمت في عهد الأمويين وأعادت الامل لكل الشعوب التي استظلت بالاسلام، ومكنت لهذا الدين الجديد من التغلغل في أصقاع عديدة ومتباعدة، لكن سرعان ما فترت همة الحكام العباسيين في تحقيق نواياهم الطيبة التي عبروا عنها وهم ثائرون. أو في بداية عهدهم بتقلد السلطة. وسرعان ما حجبت عنهم لذة السطوة وفخفخة الملك وغش الحاشية ما كان يجد من مشاكل خطيرة داخل المجتمع مما جعلهم ينعزلون شيئا فشيئا عن واقع الأمة. فلا بدع ، والحالة هذه أن تظهر أشكال أخرى من **الحيف الاجتماعي** وأن تقوم معارضات وتنشب ثورات وتظهر نزعات انفصالية في عدد من الأقاليم، ولكن لايصح أن نتشاءم كثيرا من هذا التطور الذي لم يمس في الغالب الا بالبنيات السياسية، في حين أن المجتمع الاسلامي ظل **موحدا**، بل لم تزدد روابطه مع الايام الا متانة. وهكذا نستطيع أن نقول إن الكثير من تلك المشاكل كان ، تارة، يعبر عن أزمة نمو، وطورا عن خلافات داخل الاسرة الاسلامية، فهو في الواقع ، دليل على حيوية المجتمع ويقظته في تتبع سياسة الحكام وأفعالهم.

هنالك، اذن، ايجابيات وهنالك سلبيات، ولكن الشيء المهم الذي يجب أن لايغيب عن بالنا هو أن الاسلام طبع وجوده في التاريخ بطابع قوي في عهد الدولة العباسية فتجلى ذلك في عدة ظواهر نذكر منها، على وجه الخصوص :

1 ـ **النظام السياسي:** العباسيون هم الذين سيضعون الصورة النهائية **للخلافة** . ولئن كانت خلافتهم تمثل استمرارا للخلافة الأموية من بعض الوجوه، فإنها تختلف عنها من عدة وجوه أخرى. وعلى أي، فالخلافة العباسية بمؤسساتها وتقاليدها واداراتها، سيرسخ نظامها بفضل طول عمرها وستظل إلى عهد قريب هي **القدوة** بالنسبة لك ملك يقوم في بلاد الاسلام، واذا كانت هنالك اختلافات فإنها لاتمس إلا بالجزئيات .

2 ـ **الحضارة:** ففي هذا العهد بدأت تظهر لنا معالم الحضارة الاسلامية الناشئة في مظاهرها الكبرى المادية والبشرية والفكرية مثل تخطيط المدن وبناء القلاع وتنمية الصناعات وتوسيع التجارة وايجاد الملاحة في الانهار والبحار والتأنق في بناء المساجد والقصور والأضرحة والفنادق كما نمت الحياة الثقافية ووقع الاقبال الكبير على العلوم والاداب والفنون وازدهر التأليف وانتشرت المدارس والأندية العلمية هنالك، اذن، ارتباط متين بين قيام الدولة العباسية وظهور الحضارة الاسلامية في شكلها الناضج التام وما أخذت به من اتجاهات أساسية انعكست على كل العصور التالية وما زالت لها أصداؤها الى يومنا هذا.

3 ـ **المشاكل:** لم تعش الدولة الاسلامية في أي عصر من عصورها بدون مشاكل، وهاته المشاكل لم يكن لها بالضرورة علاقة بقوة الدولة أو ضعفها، ولا أدل على ذلك من مثال الدولة العباسية في هذا العصر الذي عنينا به في هذا الجزء والذي يمثل عهد قوتها وازدهارها، والواقع أن المشاكل على أنواع، فهنالك ما يدل منها على تأزم أو تدهور داخل جهاز الحكم، وهنالك ماهو ظرفي، وهنالك، بالعكس، ما يدل على حيوية المجتمع ويقظة الضمائر، ففي هذا العصر، مثلا، ظهرت معارضات سياسية واختلافات مذهبية وقامت ثورات في الأقاليم وبرزت نزعة انفصالية في البعض منها كالاندلس والمغرب. ولم يفت ذلك في عضد الخلافة العباسية ولم يعق المجتمع الاسلامي عن التقدم وتحقيق المكاسب، فهاته المشاكل تكتسي اليوم في أعيننا **مظهرا ايجابيا** لانها بدل أن تدل على نكوص أو انهيار، تبرهن على طموح وعلى تشبث بالحرية وعلى ارادة في البحث عن الحقيقة والسبيل القويم.

تلك بعض الظواهر المهمة التي حاولنا أن نعرض لها في النصوص التي اخترناها لهذا الجزء. وكان من الممكن أن نتوسع في ذلك الاختيار، ولكن أردنا أن نحافظ للكتاب على حجمه المعقول إذ ليس المطلوب هو الاستقصاء في جمع النصوص بقدر ما هو الاشعار بوجود قضايا تاريخية جديرة بالبحث، وحينئذ فإن كل واحد من نصوصنا الحالية يقود

بصورة طبيعية الى التعرف على كل النصوص الأخرى التي تكشف عن غوامضه وتفصل مجملاته وتتمم ما نقص منه أو تصحح ما تسرب إليه من الخطأ، إن هاته النصوص **منطلقات** بالنسبة للباحث نحو ميدان التاريخ فيجوس في حقوله المختلفة ويتوقف عند النقط التي تدفع للتأمل والتساؤل.

ولا بد لي من الاعتراف بأن هنالك فصولا من التاريخ لم أجد لها من النصوص ما يعرف بها على وجه الكفاية والتدقيق فنحن عيال على مصادرنا الحالية. وهي مصادر قد أفاضت في أبواب وشحت في أخرى، ومن المعلوم أن مؤرخينا كانوا يهتمون بالتاريخ السياسي في المقام الأول، ولايعيرون للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الا التفاتات قصيرة، فلابد، اذن من الخروج عن المصادر التاريخية المتخصصة والبحث في مصادر من نوع آخر مثل كتب الأدب والفقه وغيرها لتصيد بعض المعلومات النادرة والمفيدة، وهذا ما لجأت اليه وسمح لي بأن أعقد أبوابا خاصة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية.

إني، وأنا أقدم هذا الجزء للجمهور، أود أن أوضح أنني فكرت قبل كل شيء في طلبتنا المقبلين على دراسة التاريخ. فلربما كان الكثير منهم يأتون الى الجامعة ولهم صورة عن التاريخ لا تخرج عن كونه نوعا من القصص المهذب لأحداث واقعية. ولعل بعض المتطفلين على كتابة التاريخ غرسوا في مخيلتهم مثل هاته الصورة التبسيطية، والحقيقة ان التاريخ اكثر طموحا وأقوى تعقيدا من ذلك، كما تدل على ذلك النظريات والمدارس الجديدة التي ظهرت في عصرنا والتي تتناوله باهتمامات جديدة . ولا نستطيع ان نخرج بتاريخنا الاسلامي أو المغربي من الصورة القصصية أو العنترية الى الصورة العلمية الصحيحة الا اذا أخذنا بتلك المناهج الجديدة واستفدنا منها، فالأمل معلق على الجيل الصاعد من مؤرخينا حتى يؤدوا هاته المهمة على أحسن وجه.

وقد صدرت هذا الجزء بتقديم نص نموذجي بقصد إفادة الطالب والباحث المبتدئ حتى يستأنسا بالطريقة المطلوبة في تناول النصوص ويدركا الغاية من ذلك ويعرفا مدى ما تدفع اليه القراءة المتأنية للنصوص من تعمق في التساؤل والبحث

وفي الختام أرجو أن أتلقى من المستعملين لهذا الكتاب كل الملاحظات والاقتراحات التي من شأنها أن تساعد على تحسينه في طبعة تالية.

**محمد زنيبر**

# فهرس

## الباب الثالث

## الباب السادس



## الباب السابع

# شـرح نمـوذجي لأحـد النصـوص

## الوزارة عند العباسيين

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصار اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحساب لما تحتاج اليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج الى النظر الى جمعه وتفريقه وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل لها النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان: ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السلف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب. فلم تكن له: لاستنكافه عن مثل ذلك .

ابن خلدون

كتاب العبر، ط بيروت، 1967 ص 422

# الشـــرح

## مقدمة

أمامنا نص مقتبس من كتاب مؤرخ هو ابن خلدون، والمؤلف مشهور بحيث لانحتاج الى الإفاضة في ترجمته، وانما نكتفي بالعناصر الاساسية، وخاصة منها مايهم الموضوع المعالج في النص

ابن خلدون [732 ـ 808 هـ / 1332 ـ 1406 م] نشأ بتونس وهو ينتمي لاحدى الأسر التي هاجرت من الاندلس والتي أصبح لها مركز مرموق بتونس وكانت لها صلات بالدولة الحفصية. ودرس مختلف العلوم المعروفة في عصره على عدد من كبار الشيوخ نذكر منهم، على الخصوص، القصار وابن جابر الواديأشي والسطي والحضرمي والابلي. اشتغل في أول أمره ككاتب علامة للسلطان بتونس. ورحل في سنة 755 الى فاس حيث صار من خاصة السلطان أبي عنان المريني وعمل ككاتب معه وانخرط في سلك مجلسه العلمي، فكانت له اتصالات مع عدد من كبار العلماء بالمغرب والاندلس. وفي سنة 764، سافر الى الأندلس ووجد هنالك ترحيبا من سلطان غرناطة ابن الاحمر الذي كلفه بمهام دبلوماسية في التفاوض مع ملك قشتالة بدرو. لكنه لم يستطع المكوث أكثر من سنتين بتلك البلاد وتوجه في سنة 766 الى بجاية. وبرغم اهتمام أمراء المغرب الأوسط به والحاحهم في دعوته الى حاضرتهم، فانه مل جو الدسائس والمؤامرات والانقلابات الذي كان سائدا ببلاد المغرب عموما بعد أن قضى عشر سنوات أخرى يتقلب بين تلمسان وفاس والاندلس، واضطر للاعتذار الى السلطان أبي حمو الذي حاول أن يكلفه بمهمة سياسية خطيرة، والتجأ لدى أولاد عريف الذين آووه في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين، وهنالك اعتكف على تأليف «المقدمة» التي أخذت منه أربع سنوات.

ثم عاد الى تونس في سنة 780. لكن لم يطب له المقام بها فارتحل بقصد أداء فريضة الحج سنة 784. لكنه توقف في مصر حيث تهافت عليه طلبة العلم

يلتمسون منه القاء الدروس عليهم، وهكذا اتخذ له حلقة بالأزهر. ثم عينه السلطان برقوق قاضيا للمالكية بالقاهرة سنة 786 ورزيء في أسرته التي غرقت في البحر وهي في طريقها اليه من تونس. فلم يجد عزاءه الا في الاكباب على العلم ومواصلة التدريس والتأليف وحج في سنة 789. وتقلب في وظائف التدريس والقضاء وكانت له مقابلة مشهورة مع تيمور لنك. الطاغية التترى في دمشق. وقضى بقية حياته بالقاهرة حيث وافته المنية سنة 808.

التاليف الذي اشتهر به ابن خلدون هو«كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.» وهو مؤلف ضخم يقع في سبعة مجلدات كبيرة في موضوع التاريخ. وقد جعل المجلد الأول مقدمة للكتاب فعرف باسم «المقدمة» واشتهر ككتاب مستقل قائم بذاته. ففيه حاول أن يبحث في قوانين التاريخ مما دفع به الى تحليلات مفصلة عن مظاهر الحياة الاجتماعية وتطور المجتمعات. معززا نظرياته بالوقائع التاريخية والمعلومات التي استقاها من تجربته الشخصية كرجل دولة أو مشاهداته المباشرة أثناء تقلبه بين البوادي والحواضر أو من ثقافته الواسعة. كل هذا جعل عددا من الباحثين في عصرنا يعتبرون ابن خلدون كأكبر رائد لعلم الاجتماع أو السوسيولوجيا. أما بقية الكتاب فهو تاريخ عام للعالم الاسلامي ويتميز بالمعلومات **النفيسة** التي يحتويها عن تاريخ البلاد المغربية.

## تحليل

الفكرة الجوهرية التي يبرزها ابن خلدون في هاته الفقرة هي أن الوزارة بمعناها الكامل لم تظهر ولم تصبح وظيفة حيوية وراسخة في الدولة الاسلامية الا في عهد الخلافة العباسية

فالنص يبين لنا :

1 ـ كيف ارتفع شأن الوزير حتى صار ينوب عن الخليفة

2 ـ **كيف تعينت اختصاصاته واتسعت سلطته.**

## ببليوغرافية مختصرة

اذا أردنا، الان، أن نتوسع في شرح هذا النص، لابد لنا من الاعتماد على مراجع مختلفة، ومن حسن الحظ أن موضوع الوزارة نال العناية من عدد من الباحثين

المعاصرين بحيث نحيل عليها كل من أراد التوسع في معرفة المراجع. فهنالك، مثلا، القائمة البيليوغرافية الحافلة التي قدمها الاستاذ «دومينيك سورديل» في كتابه «الوزارة العباسية» الذي نشره باللغة الفرنسية

D. Sourdel ; Le Vizirat Abbasside de 749 à 936, Damas 1959.

وهنالك القائمة التي قدمها الاستاذ العراقي الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي في كتابه «الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية.» 1976

ونقتصر هنا على ذكر أهم المراجع :

1 ـ ابن خلدون : كتاب العبر
2 ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك
3 ـ المسعودي : مروج الذهب
4 ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان
5 ـ الماوردي : الأحكام السلطانية
6 ـ الجهشياري : الوزراء والكتاب
7 ـ الصابيء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء
8 ـ مسكويه : تجارب الأمم

ومن بين الدراسات الحديثة في الموضوع، نشير الى :

1 ـ توماس أرنولد الخلافة
تعريب جميل معلي دمشق 1946
2 ـ محمد أحمد برانق الوزراء العباسيون القاهرة 1948
3 ـ عبد العزيز الدوري النظم الاسلامية بغداد 1950

Encyclopédie de l'Islam 1e et 2e édition
D. Sourdel : Le Vizirat Abbasside

ويجب أن نعتمد، باديء ذي بدء، على ابن خلدون لأن النص مقتبس من مقدمته

## التحليل المفصل

من المعلوم أن الدولة العباسية احتلت مركزا خطيرا في تاريخ الاسلام سواء باتساع رقعتها، التي كادت تشمل دار الاسلام بكاملها في عهد عظمتها، أوبطول مدتها التي تمتد الى أزيد من خمسة قرون من 132 الى 656 هـ، أو بتأثيرها الحاسم

في ميدان الحضارة والثقافة العربية الاسلامية. وفي ضمن هذا التأثير التطور الذي عرفه نظام الحكم الاسلامي في عهدها، ووظيفة الوزارة التي يتحدث عنها النص تمثل ركنا أساسيا في هذا التطور. وكل هذا يدفع بنا، أولا، الى تقديم ايضاحات عن نشأة منصب الوزارة.

والوزارة في أصلها اللغوي ترجع، كما أشار ابن خلدون، اما إلى المؤازرة أي المعاونة بحيث يكون الوزير بمثابة المساعد، أو إلى الوزر أي الثقل. فيكون الوزير بهذا المعنى الأخير مكلفا بحمل الأثقال أي أعباء الدولة ومشاكلها. والمعنيان متقاربان، على أي حال، ويدلان على تحمل المسؤولية في تقديم نوع من المعاونة. لكن المدلول اللغوي لايكفي لتوضيح خطة الوزارة كما برزت في سياق تاريخي معين. وهكذا فقد ظهرت المؤازرة والمعاونة في الدولة الاسلامية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فكان أبو بكر الصديق متميزا بوظيفته كمستشار ومساعد له. وهو نفس الدور الذي قام به عمر مع أبي بكر حينما تولى الخلافة. ولنا أن نذكر مثل ذلك عن عثمان وعلى. ولكن، أيصح لنا القول إن ذلك يدل على قيام وظيفة الوزارة كنظام من أنظمة الدولة الاسلامية؟

يجيب ابن خلدون على هذا السؤال بأن الخلافة في أصلها دين وليست من «السياسة الملكية» في شيء، ولذا فلم «يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام». فالوظيفة كانت مبنية على نوع من التنظيم والتعقيد لم يكن يتجانس مع بساطة المجتمع الاسلامي الأول «لأن القوم كانوا عربا أميين لايحسنون الكتاب والحساب، فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفرادا من موالي العجم ممن يجيده.»

فالوظيفة كما يبين ابن خلدون مرتبطة بتحول الخلافة الى ملك وهو ماحدث في عهد الامويين. لكن هؤلاء اهتموا قبل كل شيء بالحجابة لسد الباب دون الجمهور لأنهم «كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع مافي فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات». ومع تطور الدولة الأموية، وقع الاحتياج الى «المشاور في أمور القبائل والعصائب وأطلق عليه اسم الوزير» (1) الا أن عمله ظل محصورا في نطاق محدود ولذ فقد ظلت شخصيته مغمورة.

(1) في كل هاته الاقتباسات يُراجع ابن خلدون المقدمة 419 ـ 422 . بيروت 1967

كل هذا يعني أن وظيفة الوزارة لم تكتس صبغتها الحقيقية وتشتمل على كامل مضمونها الا في عهد الدولة العباسية اذ «استفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت» وعبارة المؤلف تشير هنا الى الفرق الكبير بين مظهر الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين. فالاولون ظلوا على بساطة الأمراء العرب التقليديين في زيهم وهيئتهم واستقبالهم للناس وبروزهم للجمهور. بينما الأخيرون أحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة وتشبهوا نوعا ما بأكاسرة الفرس واقتبسوا بعض أنظمتهم، فصار للخلافة في أيامهم هيبة وهيئة عظيمة ومظهر فخم. واستفاد أعوان الخليفة ومساعدوه الأقربون من هذا التطور، فجعلوهم ايضا لأنفسهم مكانة ومظهرا.

هذا الجانب المظهري كانت له أهميته الكبرى، من دون، شك، لكن هنالك عوامل أخرى كان لها الأثر البالغ في هذا التطور، نذكر منها :

1 ـ تطور المجتمع ونمو الحضارة خلقا مهام جديدة ومتشعبة للدولة، مما نتج عنه اتساع في المشاغل السياسية والادارية. ويكفى أن نقوم بمقارنة بسيطة بين المجتمع الاموي والمجتمع العباسي.

2 ـ انتقال مركز الدولة من الشام الى العراق أي من بيئة تغلب عليها العروبة والمؤثرات المتوسطية الى بيئة تختلط فيها العروبة بالمؤثرات الايرانية وماوراءها من حضارات تمتد الى أعماق آسيا والمحيط الهندي.

3 ـ الصلاحية الكبرى المخولة للوزير التي يلخصها ابن خلدون في عبارة «النيابة في انفاذ الحل والعقد». وهذا يعنى أنه ينوب عن الخليفة في تدبير شؤون الدولة على اختلافها وهو مايعبر عنه الماوردي حين يذكر أن الوزارة يجب أن تعقد لصاحبها بلفظ يشتمل على شرطين :

أ ـ عموم النظر

ب ـ النيابة (2)

وقد تنحصر هذه النيابة في **التنفيذ** كما كان الشأن بالنسبة لوزراء المنصور، مثلا. وقد يعلو شأنها فتتحول الى **تفويض**، كما كان الشأن بالنسبة للبرامكة مع الرشيد في العهد الاول من توليتهم. والمهم هو أن الوزارة أصبحت تقليدا عاما يشمل سائر شؤون الدولة

---

(2) الماوردي : الأحكام السلطانية : القاهرة 1973 ص 23

كل هذا يمهد لتفسير العبارة التي استعملها ابن خلدون بعد ذلك حين قال: «وتعينت مرتبته في الدولة.» ومن المعلوم أن فعل تعين يحتمل معنيين :

1 ـ معنى اللزوم أي أن الوزارة أصبحت وظيفة لامناص منها للدولة وهو ماينسجم مع ماذكرناه آنفا عن التطور الواسع الذي عرفته الدولة الاسلامية بعد قيام العباسيين

2 ـ معنى الاتضاح أي إن الوزير أصبحت أمامه مهمة دقيقة محددة. وهو مايطابق، أيضا، التطور الفعلي الذي انطلق مع الدولة العباسية وظاهر كلام ابن خلدون في هاته الفقرة أن الوزارة لم تبتدىء على حقيقتها الا في عهد الدولة العباسية وسنعود لهاته الفكرة عند التعليق.

يدخل ابن خلدون بعد ذلك في ذكر بعض مهام الوزير. وهي التي نقف الان عندها، بقصد التوضيح :

3 ـ ديوان الحسبان : المراد به الديوان المكلف بكل الحسابات المتعلقة بمال الدولة أي مايطابق مانسميه اليوم وزارة المالية. وكثيرا مايستعمل ابن خلدون لفظة الحسبان للاشارة الى ذلك. فهو يذكر أن أمر الحسبان كان يضطلع به الموالي والذميون في عهد بني أمية (3) وعند حديثه عن الامويين بالاندلس يشير الى كونهم «جعلوا لحسبان المال وزيرا» (4) ويستعمل نفس الكلمة عند حديثه عن عدد من الدول المغربية. ومن دون شك أن هذا الديوان هو الذي يسميه ابن خلدون باسم آخر ويعقد له فصلا خاصا وهو ديوان الأعمال والجبايات، الذي يقول عنه :

«اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في اباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لايقوم به الا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها» (5)

---

(3) ابن خلدون 422/1
(4) ابن خلدون 424/1
(5) ن.م. 430

ومجمل القول أن الوزير أسندت اليه مراقبة الشؤون المالية بواسطة ديوان خاص . وهذا لم يمنع من استحداث دواوين أخرى للمزيد من الضبط الاداري فنجد. مثلا :

ـ **ديوان الخراج** : وهو الديوان المكلف بتحديد الضرائب المفروضة على الانتاج الفلاحي وقبضها. والأراضي التي تؤدي هذه الضريبة على نوعين : أراضي الخراج وأراضي **العشور**.

ـ **ديوان بيت المال** : تودع في بيت المال معظم مداخيل الدولة. ومن مهمة هذا الديوان أن يوازن بين المداخيل والنفقات.

ـ **ديوان الجيش** : مهمته النفقة على الجيش من رجال ومعدات ودواب

ـ **ديوان النفقات** : يؤدي للموظفين رواتبهم. والعطاءات المقررة لأبناء الأسر العباسية والطالبية

ـ **ديوان الزمام** : مهمته مراقبة الحسابات المالية وهنالك دواوين أخرى تدخل في هذا الصنف لم نذكرها تجنبا للاطالة. ونكتفي بالاشارة أن تنظيم الشؤون المالية في تفاصيلها ربما اختلف من عهد خليفة الى آخر. وقد خضع لتقلبات ناشئة عن الازمات التي اجتازت منها الدولة وعن الضعف الذي بدأ يسري اليها ابتداء من القرن الثالث الهجري. ونحيل القاريء هنا على كتاب الدكتور الريس «الخراج والنظم المالية » ففيه مايكفي من الايضاحات والتفاصيل كما نحيله على كتاب «الأحكام السلطانية للماوردي» ففيه فصول خاصة بهذا الموضوع.

نضيف هنا نقط فيما يخص **قسم الأعطيات في الجند** ملاحظات لها اعتبارها. فالدولة الاسلامية في عهد انطلاقها وازدهارها كان لها جيش كبير. وكان للجنود رواتب يتقاضونها بانتظام. وقد تدخل الفقه في هذا الموضوع المهم ليقرر فيه تشريعا لايخلو من اثارة الاعجاب. فيقول الماوردي عن رزق الجندي :

«وأما تقدير العطاء فمعتبر بالكفاية حتى يستغني بها عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة. والكفاية معتبرة من ثلاثة أوجه : أحدها عدد من يعوله من الذراري. والثاني عدد مايرتبطه من الخيل والظهر. والثالث الموضع الذي يحله في الغلاء والرخص. فيقدر كفايته في نفقته وكسوته لعامه كله، فيكون هذا المقدر في

عطائه. ثم تعرض حاله في كل عام. فان زادت رواتبه الماسة زيد وان نقصت نقص» (6).

وهكذا، بلغ راتب الجندي الشهري ابان ازدهار الدولة العباسية عشرين درهما. وكان ديوان الجيش هو الذي يوزع على الجنود أعطياتهم. وفي بعض الاحيان. كان الخليفة عند حدوث ثورة أو فتنه يقوم هو نفسه بتوزيع أعطيات استثنائية على الجند لتشجيعهم واستئلافهم. واذا ماتأخر عنهم العطاء ربما أحدثوا الشعب وثاروا على الخليفة.

الى جانب تلك المهام الخاصة بالمالية. كانت الوزارة هي التي تباشر معظم المراسلات الصادرة عن الدولة. فنذكر منها، على سبيل المثال المراسلات الموجهة للولاة والعمال والقضاة وأمراء الجيش وغيرهم من الرسميين والمكلفين بمأمورية ما، وكذلك الى الخواص. وهنالك، بالطبع، مراسلات تدخل في العلاقات الخارجية كالتي كانت تدور، مثلا، بين بعض الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين.

ومن بين الدواوين المهمة التابعة للوزير ديوان الرسائل وهو المكلف بتحرير المراسلات على اختلاف أنواعها وكان الوزير يراقب تلك المراسلات وربما قام هو بنفسه بتحرير مايعتبره مهما منها. ومن ثم كان أغلب الوزراء والكتاب الذين اشتغلوا مع الخلافة العباسية في عهد ازدهارها يتميزون بكفاءتهم الفائقة في الانشاء والبلاغة مثل البرامكة والفضل بن سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة الخ...

ولربما كان في الحرص على البلاغة حرصا على مظهر الدولة وحفظا لسمعتها وهيبتها حتى تكون كلمتها ذات وقع ونفاذ

ويشير هنا ابن خلدون عرضيا الى الدور الذي قامت به الدولة العباسية وكثير من الدول الاسلامية من بعدها في الدفاع عن العربية الفصحى ويعرض للموضوع بشيء من التبسط في فقرة أخرى اذ يقول، متحدثا عن وظيفة الكتابة :

«وانما أكد الحاجة إليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر. وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء القبيلة، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق، لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم. فلما فسد اللسان وصار

(6) الماوردي : الأحكام ... ص 205

صناعة اختص بمن يحسنه. وكانت عند بني العباس رفيعة. وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السلطان» (7)

ونشير هنا، بالاضافة، أن فساد اللغة وشيوع اللحن كانا من العوامل التي شجعت في نفس الاونة نهضة العلوم اللغوية والأدبية، وبالاخص النحو الذي ازدهرت مدرستان له في العراق بالكوفة والبصرة. كما أن هنالك عددا من المؤلفين الذين اهتموا بتكوين ثقافةالكتاب وتمكينهم من أدوات التعبير واللغة مثل الجاحظ في كتابه المشهور «البيان والتبيين» وابن قتيبة في «ادب الكاتب» والمبرد في «الكامل» الخ.. ومن ثم كانت كتب الأدب حافلة برسائل الوزراء والكتاب لأن عددا من هؤلاء أصبحوا بالفعل من أصحاب الكتابة الرفيعة، ويذكرنا النص بنفس المناسبة أن ظهور العامية بدأ مع الدولة العباسية، ولربما قبل ذلك. والمهم هنا هو تسجيل العامية كظاهرة سارية في المجتمع الاسلامي. فتسرب اللحن الى كلام الجمهور لم يحدث على نطاق واسع الا عند اختلاط العرب بالعجم في كبريات المدن مثل بغداد والبصرة والفسطاط والقيروان وفاس وقرطبة الخ..

يتعرض ابن خلدون بعد ذلك لذكر بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في مراسلات الدولة حتى تثبت صحتها، من جهة، وحتى تصان سريتها، من جهة أخرى. فبالنسبة للمكاتبات والوثائق السرية التي لايطلع عليها الا بعض المسؤولين المعنيين بها كان هنالك خاتم رسمي للخليفة تختم به حتى لا تفض الا من طرف الجهة الموجهة اليها. وكان هنالك، أيضا، ديوان خاص بهاته المهمة يسمى ديوان الخاتم. او ديوان السر ولا يعمل فيه الا أناس مجربون ومنتخبون يحظون بثقة الخليفة. والكاتب المكلف به هو الذي يؤشر على مكاتبات الدولة بعد أن يتأكد من وفاتها بالشروط المطلوبة والخاتم الموضوع عليها هو الذي يشهد وبصحتها ويكسبها قيمتها الرسمية. وبالاضافة الى ما سبق نشير الى كون الخليفة كان له، الى جانب خاتمه الرسمي، خاتم شخصي لا يستعمله الا في مناسبات قليلة ويعتبر رمزا لسيادة الخليفة.

---

(7) ابن خلدون : مقدمة ص 436

(8) أحمد أمين : ضحى الاسلام

وفي النص، أيضا، اشارة الى سجلات السلطان وهي السجلات التي كانت تنسخ فيها كل الوثائق الرسمية لتظل محفوظة في مكاتب الدولة أي مايعبر عنه، اليوم، بكلمة أرشيف إلا أن المحافظة على هاته السجلات ربما لم يكن أمدها يطول، ولأدل على ذلك من ضياع معظمها. وأسباب ضياعها كثيرة ليس هذا محل درسه. ومن المعلوم أننا، اليوم، حين نريد أن نبحث في تاريخ العصور الاسلامية الأولى لانكاد نظفر الا بقلة قليلة من الوثائق كتلك التي كتبت في أوراق البردي، مثلا. وابن خلدون، على أي حال، استطاع أن يشاهد البعض منها ويطلع عليها عن كثب، سيما وقد عمل هو نفسه في دواوين الدولة الحفصية والمرينية، وكانت له اتصالات مستمرة مع السلطان أينما حل وارتحل.

يتضح مما تقدم أن الوزير هو الذي كان ممسكا بخاتم الخليفة ومسؤولا عنه يستعمله في مباشرة كل شؤون الدولة. فهو، اذن، يحظى بكامل ثقة الخليفة وله الصلاحية في القيام بالمهام العسكرية والمدنية على حد سواء وهو مأشار اليه ابن خلدون حين قال إنه كان يجمع بين خطتي السيف والقلم. ولنا أمثلة كثيرة على ذلك. وهكذا نجد البرامكة قد شغلوا الوظيفتين. فالفضل بن يحيى هو الذي يقود الجيوش لمحاربة يحيى بن عبد الله العلوى في الديلم. وأخوه جعفر يقوم بنفس المهمة في الشام. وكذلك الفضل بن سهل وزير المامون كان هو الذي أشرف من بعيد على الحروب التي أثارها المامون سواء ضد أخيه الأمين، أو ضد الثورات المختلفة التي نشبت في الأمبراطورية الاسلامية. وكان كبار القواد العسكريين مثل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين يأتمرون بأوامره ويرهبون جانبه. وبالجملة فقد كان الوزير، الى جانب مهامه السياسية والمدنية، يساعد الخليفة في تسيير الشؤون العسكرية والقيام على تدبير الحرب ولايفهم من عبارة ابن خلدون أنه هو الذي كان يقود الجيش لزوما

ويضرب النص المثل على ذلك بجعفر بن يحيى البرمكي. فمنذ أن تولى الرشيد الخلافة، أسند الوزارة الى الشخص الذي كان وزيرا له وهو ولي العهد أي يحيى بن خالد البرمكي وظل يشغل هذا المنصب طوال سبع عشرة سنة من 786/170 إلى 803/187. وكان تعيينه ينطوي على تفويض واسع، ويعبر عن

---

(9) D. Sourdel : Le Vizirat Abbasside

(10) Encyclopedie de l'Islam 2ème éd. art Al-Baramika

منتهى الثقة من لدن الخليفة، واستعان يحيى في الاضطلاع باعباء الدولة بولديه الفضل وجعفر اللذان اكتسباهما أيضا نفوذا وجاها كبيرا حتى كانا يتحليان كلاهما بلقب الوزير، واستطاع جعفر، بالخصوص، أن يتمتع بعطف الخليفة، فكان يعيش قريبا منه باستمرار فيقوم بأعباء الوزارة ويتكلف بمهام كبيرة والى جانب ذلك يقاسمه خلواته وسهراته وينادمه، وتنقل لنا كتب الأدب أخبارا وحكايات كثيرة في هذا الشأن. كل هذا جعل نفوذ جعفر يعظم، وكلمته تسمع، حتى أصبح يتخذ قرارات خطيرة دون الرجوع الى الخليفة وهذا ماجعل الناس يدعونه بالسلطان، ولعل هذا أحد الاسباب التي أدت فيما بعد الى نكبة البرامكة في سنة 187.

كانت سلطة جعفر واسعة لها عموم النظر في شؤون الدولة وتغطى سائر الرتب السلطانية ماعدا واحدة منها وهي **الحجابة** (12). وهي رتبة لها أهميتها وخطورتها فكان الحاجب في الخلافة العباسية يأتي بعد الوزير وربما قامت بينهما منافسة، ولدينا أمثلة في هذا العهد على حجاب استطاعوا أن ينحوا بعض الوزراء بدسيسة منهم وأن يتولوا مكانهم. وكان الحاجب مكلفا بمهمة تظهر بسيطة، لأول وهلة، ولكن لها في الواقع وزنها وتأثيرها في سير الشؤون العمومية، فهو الذي يقوم على استقبالات الخليفة ويبلغه صوت الزائرين وقضايا المشتكين. فإذا كان ماهرا ذكيا يستطيع أن يؤثر عليه ويوحي له بالقرارات التي يريد (13)

وكان المكلف بالحجابة في العهد الاول من خلافة الرشيد محمد بن خالد البرمكي وفي سنة 179 نحاه من هذا المنصب وعين مكانه **الفضل بن الربيع** الذي اشتهر بعدائه للبرامكة وكان له دور فعال في النكبة التي لحقت بهم

## تعليق

1 ـ كتاب العبر من المصادر التاريخية الموثوق بسلامة نصها من التزوير والتحريف. فقد اشتهر الكتاب عند صدوره وتعددت نسخه في بلاد المغرب

---

(11) اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس

(12) عن الحجابة انظر الفصل الخاص الذي عقده ابن قتيبة في «عيون الاخبار» عن هذا الموضوع. نظرا لقربه من هذا العهد.

(13) أحسن مثال على ذلك الدور الذي قام به الفضل بن الربيع سواء مع الرشيد او مع ولده الأمين.

والشرق. كما أن لابن خلدون أسلوبا متميزا يعسر تقليده ويعرفنا به عند قراءته. وعلى أي فلم يثر النقد التاريخي أي ملاحظة على نص ابن خلدون وصحته.

2 ـ أما المضمون التاريخي الوارد في النص فهو لايتعلق بخبر جديد أو بحادثة معينة أو برواية خاصة في موضوع محدود. بل إنه يقدم لنا خلاصة ما استفاده ابن خلدون من قراآته الواسعة والمتنوعة عن تاريخ الاسلام. في موضوع يتعلق بنظم الدولة الاسلامية وخططها،الا وهو الوزارة والنص الذي بين أيدينا هو، في الحقيقة. عبارة عن فقرة مقتبسة من فصل واسع خصصه المؤلف للحديث عن الوزارة كما جرى بها العمل في الدول الاسلامية بالمشرق والمغرب. وتحتل الدولة العباسية. بالطبع، مركزا مهما بينها، نظرا لاقدميتها وعظمتها وأسبقيتها الى الأخذ بنظام الوزارة. فنحن اذا قارنا ماذكره ابن خلدون بما ورد في المصادر التي سبقته نجد هنالك شواهد كثيرة على ماذكره مما يجعل محتوى نصه موثقا من الوجهة التاريخية.

3 ـ فأهمية النص تأتيه من كونه يقدم لنا نظرة تركيبية يعززها بآرائه وتأويلاته، لامن كونه يأتينا بعناصر جديدة ولذلك فهو يدفعنا الى الوقوف عند بعض النقط التي أوردها في هذا الصدد

أول مايستوقفنا هو لهجة التعميم الذي يتحدث بها المؤلف. مستندا الى بعض الأحوال والأمثلة ومتناسيا أخرى. صحيح أن الوزارة بمعناها الحقيقي لم تعرف وجودها الا في عهد الدولة العباسية. صحيح أن الوزير أصبح ذا شأن ومظهر، ولكن لاننس :

ـ أن عددا من الوزراء كانوا يعملون كمنفذين لارادة الخليفة، ولم يكن لهم استقلال في التصرف .

ـ أن بعض الوزراء حينما حصلوا على قدر من السلطة لم يستطيعوا أن ينسقوا اختصاصاتهم مع اختصاصات الخليفة لانعدام تقاليد دستورية، الشيء الذي كان يؤدي بهم. في الغالب الى الاصطدام مع الخلفاء وينتهي أحيانا بنكبتهم كما حدث ليعقوب بن داود مع المهدي، وللبرامكة مع الرشيد، وللفضل بن سهل مع المأمون

ـ أن عددا من أعوان الخلفاء كانوا يتهربون من منصب الوزير أو يساعدون الخليفة دون أن يحملوا اللقب.

فالوزير لم تكن له سلطات محددة بنص قانوني أو بعرف جرى به العمل، بصفة نهائية. ومايذكره الماوردي في «الاحكام السلطانية» إنما هو اجتهادات نظرية. والذي يهمنا معرفته هو هل سار على هديها الخلفاء. وكذلك هو الشأن بالنسبة للاختصاصات التي يسندها ابن خلدون للوزير العباسي في هذا النص، فانها لم تكن دائما كلها في يده، والأمر في هذا الشأن يتغير حسب الخلفاء، بحيث كان هنالك وزراء مثل البرامكة يشرفون على سائر الدواوين أو على أغلبها، وكان هنالك آخرون لايراقبون إلا قسما من هذه الدواوين. وتاريخ الوزراء يبين لنا، على قدر ماتسمح به المصادر، التغير الذي حدث في نظام الوزارة واختصاصاتها من عهد وزير إلى وزير أو من عهد خليفة إلى خليفة، وهكذا يظهر لنا أن لهجة التعميم التي استعملها ابن خلدون لايمكن تطبيقها على سائر الأحوال، وإن كان ابن خلدون يحق له، كعالم اجتماعي يبحث عن قوانين التطور ويدرس الخصائص البارزة للمؤسسات السياسية أن يرسم صورة مجملة عن نظام الوزارة لايراعي فيها الا الأعم فالأعم. لكن موقف المؤرخ يختلف في مثل هاته المسائل عن موقف العالم الاجتماعي.

والذي يجب أن نقول هو أن الوزارة كمنصب سياسي دخلت في أطوار مختلفة، تبعا لشخصية الخلفاء وللظروف. فهي في عهد الخلفاء العباسيين الكبار، أي خلفاء العصر الأول، كانت أقوى ارتباطا بالخليفة، خاضعة لمشيئته لاتحظى بنوع من الاستقلال الا بقدر مايسمح بذلك. أما في العصر الثاني، عصر الصراع مع المماليك الترك، فستضعف سلطة الخلفاء وسيتمكن بعض الوزراء أمثال علي بن عيسى وابن الفرات من الحصول على سلطة حقيقية في الدولة

هنالك نقطة مهمة يوحي بها هذا النص، وهي أن منصب الوزارة ابتكار جديد أتى به العباسيون. وهو ماتؤكده مصادر أخرى. فابن طباطبا يقول، مثلا : «والوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس. فأما قبل ذلك، فلم تكن مقننة القواعد ولامقررة القوانين. بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية. فاذا حدث أمر، استشار ذوي الحجا والاراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير». (14).

وللبت في هذا الموضوع المهم نحيل القاريء على الفصل الذي عقده الاستاذ «دومينيك سورديل» في كتابه القيم «الوزارة العباسية» بعنوان «أصول الوزارة»

(14) ابن طباطبا : الفخري ص 121

فهو يبين هنالك الخطأ الذي وقع فيه عدد من المستشرقين حين حاولوا أن يربطوا بين الوزارة والتقاليد الايرانية. كما يوضح بأن الوزارة لم يكن لها وجود فعلى في عهد الأمويين، وأنها نشأت عن ظروف خاصة بالدولة العباسية (15).

وللتدليل على المكانة التي نالها منصب الوزارة، نذكر بأن تعيين الوزير لم يكن حدثا عاديا يجري بدون أي احتفال، بل كان يحاط مظاهر الأبهة ويتم حسب تقليد أشارت اليه بعض المصادر. فالمرشح للوزارة يتلقى تقليدا مكتوبا من الخليفة يحمله اليه رجلان من كبراء الدولة. وحينئذ يتوجه الوزير المعين الى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ويقف عند «باب الحجرة» وهي، كما ذكر ياقوت، دار عظيمة الشأن عجيبة البنيان فيها يخلع على الوزراء واليها يحضرون في أيام المواسم للهناء، فيقدمه الحاجب للخليفة ويؤدي له فروض الطاعة. ثم ينتقل الى حجرة ثانية- حيث «يرتدى الخلع السلطانية التي كانت بمثابة زيي الوزارة ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف. فإذا بلغ الباب وجد فرسا شهريا بمركب مذهب ومزينا بانتظاره فيمتطيه الى دار الوزارة ويسير في موكبه كبار الموظفين وقادة الجيش والأمراء وموظفو البلاط والحجاب وخدام الخليفة والحرس. فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال وجلس يتقبل التهاني بالمنصب الوزاري ثم يقرأ على الناس مرسوم الخليفة بتقليده مهام هذا المنصب. (16)

وهكذا يتبين لنا أن نص ابن خلدون نبه على هاته الاولوية التي تميز بها العباسيون في استحداث منصب الوزارة الذي سيصبح من النظم الاساسية في الدول الاسلامية. واذا طرحنا جانبا بعض التحفظات التي أشرنا لها من قبل حول هذا النص، فابن خلدون له الفضل في كونه حاول أن يحدد لنا، بصورة تقريبية، خطة الوزارة وبذلك أعطانا فكرة عامة عن نظامها في عهد الخلفاء العباسيين. لكن نصه هذا لايغني عن مراجعة تاريخ الوزارة العباسية بالتفصيل. وبالجملة، فان أهمية هذا النص تنحصر في الملاحظات التالية :

(15) D. Sourdel . Le Vizirat Abbasside

(16) توفيق سلطان اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها ص 41

ا ـ فهو صادر عن مؤرخ عاش في القرن8هـ/14م أي في عصر قريب نسبيا من عهد الدولة العباسية، مما أتاح له من دون شك أن يطلع على مصادر ضاعت اليوم منا.

ب ـ وهو صادر، من جهة أخرى، عن مؤرخ كان له الباع الطويل في الدراسات الاجتماعية والتطورات التي تطرأ على الدول ومؤسساتها مما يضفى على أحكامه قدرا كبيرا من الأهمية والوجاهة.

ج ـ وهو يحدد لنا نقطة البداية في تاريخ الوزارة

د ـ وهو يظل حجة دامغة على كل الذين حاولوا أن ينحرفوا عن الواقع التاريخي في نظرياتهم عن نشوء الوزارة بالدولة الاسلامية

## الخـلاصـة :

هذا النص المقتبس من مقدمة ابن خلدون المعروف باطلاعه المباشر على انظمة الدولة الاسلامية من خلال تجربته الشخصية، يحدد بداية نظام الوزارة بنشوء الدولة العباسية ويوضح لنا الاختصاصات المسندة الى الوزير ما بين سياسية وعسكرية والاهمية التي ادركتها الوظيفة في ظل العباسيين ودورها في الحفاظ على: اللغة العربية. والمؤلف يستند في أحكامه على عدة مصادر موثوق بها. ولئن كان عمم واجتنب الدخول في التفاصيل، فقد قدم لنا صورة شمولية ومفيدة بالقياس الى البنية العامة للدولة الاسلامية.

# الباب الأول

# الدعوة العباسية

## 1 ـ وصية ابى هاشم إلى محمد بن على العباسي

وقدم أبو هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب على سليمان. وقال سليمان : ما كلمت قرشيًا قط يشبه هذا. وما أظنه إلا الذى كنا نحدث عنه. فأجازه، وقضى حوائجه وحوائج من معه .

ثم شخص عبد الله بن محمد، وهو يريد فلسطين. فبعث سليمان قومًا إلى بلاد لخم وجذام، ومعهم اللبن المسموم، فضربوا أخبية نزلوا فيها. فمر بهم، فقالوا : ياعبد الله ! هل لک في الشراب ؟ فقال : جزيتم خيرا. ثم مر بآخرين، فقالوا مثل ذلک، فجزاهم خيرا، ثم مر بآخرين، فاستسقى فسقوه فلما استقر اللبن في جوفه، قال لمن معه : أنا والله ميت، فانظروا من هؤلاء، فنظروا فإذا القوم قد قوضوا. فقال : ميلوا بى الى ابن عمى محمد بن على بن عبد الله بن عباس، فانه بأرض الشراة. فأسرعوا السير حتى أتوا محمد بن على بالحميمة من أرض الشراة. فلما قدم عليه قال له : يا ابن عم، أنا ميت وقد صرت إليک، وهذه وصية أبى الي ، وفيها أن الأمر صائر اليک والى ولدک، والوقت الذي يكون ذلک، والعلامة وما ينبغى لكم العمل به، على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبي طالب. فاقبضها إليک. وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيرا. وهؤلاء دعاتک وأنصارک، فاستبطنهم. فاني قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتک. ثم هذا الرجل ميسرة، فاجعله صاحبک بالعراق. فأما الشام فليست لكم ببلاد. وهؤلاء رسله إلى خراسان واليک. ولتكن دعوتكم بخراسان، ولا تعد هذه الكور: مرو، ومرو الروذ، وبيورد، ونسا. واياک ونيسابور وكورها، وابر شهر، وطوس. فاني أرجو أن تتم دعوتكم، ويظهر الله أموركم .

اليعقوبي : تاريخ 296/2

## 2 ـ تعليمات الامام محمد لنقباء الدعوة

وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة حين اختارهم للدعوة واراد توجيههم : أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي بن أبي طالب. وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وصدورا سليمة وقلوبا فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم فيها فساد وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحازب الاتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر ولم يزالوا يذالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون الدول. وهم جند لهم اجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة من أفواه منكرة. وبعد فكأني اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

ابن قتيبة : عيون الأخبار ج 1 ص 204

## 3 ـ النقباء الاثنا عشر

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة ـ اعنى سنة مائة ـ وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من أرض الشراة ميسرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج، وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار خال ابراهيم ابن سلمة الى خراسان، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمى من قبل عمر بن عبد العزيز. وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته . فلقوا من لقوا، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن على ، فدفعوها إلى ميسرة، فبعث بها ميسرة الى محمد بن على. واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثنى عشر رجلا نقباء، منهم سليمان بن كثير الخزاعى، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن ابراهيم أبو داود، من بنى عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن اسماعيل أبو النجم، مولى

لآل أبى معيط، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة ابن زريق الخزاعى، وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى لخزاعة، وشبل بن طهمان أبو على الهروى. مولى لبنى حنيفة، وعيسى بن اعين مولى خزاعة. واختار سبعين رجلا، فكتب اليهم محمد بن على كتابًا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها .

الطبرى : تاريخ 562/6

## 4 ـ كتاب الدعوة العباسية

وكان يكتب لإبراهيم الامام على الدعاة بكر بن ماهان، ويكنى أبا هاشم، وكان زوّج ابنته من أبى سلمة بن حفص بن سليمان مولى بنى الحارث ابن كعب ويعرف بابي سلمة الخلال، وقيل في نسبته انه نسب إلى الخل، وقال ثعلب عن ابن الاعرابي انه نسب إلى لخلل السيوف وهي الجفون، وذكر أن العرب تسمى من يعملها الخلال واستشهد بقول الشاعر :

أخلق الدهر بجو طللا مثل ما أخلق سيف خللا

ولما حضرت أبا هاشم الوفاة كتب إلى ابراهيم الامام يخبره انه كتب في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا وانه قد استخلف حفص بن سليمان، فكتب ابراهيم الى أبى سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه. وكتب إلى أهل خراسان انه قد اسند أمرهم إليه، ومضى أبو سلمة إلى خراسان فقبلوا أمره ودفعوا إليه خمس أموالهم ونفقات الشيعة.

وكان المتولى لمكاتبة الامام عن الدعاة والقيم بأمرهم، وقراءة الكتب اليهم بمحضر جماعتهم طلحة بن زريق أخو مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين ويكنى طلحة أبا المنصور، وكان مهلهل بن صفوان مولى امرأة كانت لعلى بن عبد الله بن العباس تخدم ابراهيم الإمام في الحبس وتكتب له كتبه، فلم تزل معه إلى أن قتل مروان ابراهيم .

الجهشيارى : كتاب الوزراء ص 55

## 5 ـ أول ديوان شيعة بني العباس

قال إبراهيم بن سلمة : فتناول محمد قرطاسًا، فجعل يكتب بخطة ويملي عليه ابن بجير، فكان أول من ذكر له سالم بن بجير الذي يقال له سالم الأعمي، وإنما كف بصره بعد ذلك، وأبو هاشم بكير بن ماهان. فأما بكير فإن أباه كان مولى لرجل من بني مسلية سكن الشام بالأردن بعد، وكان بكير ابنه ينزله بنو مسلية من صليبتهم، وكان من أهل الديوان وغزا [مع] يزيد بن المهلب خراسان ودخل معه جرجان حيث افتتحت، وكان هو في عدة من بنى مسلية قد شهدوا فتحها مع يزيد. وحفص بن سليمان وهو أبو سلمة الخلال، وحفص الذي يدعى الأسير، وهؤلاء جميعًا موالي بنى مسلية، رهط عامر بن إسماعيل، وميسرة الرحال، وموسى بن سريج السراج. وزياد بن درهم الهمداني، ومعن بن يزيد الهمداني، والمنذر بن سعيد الهمداني. فكتب أسماءهم. وقد ذكروا أن فيمن سمي له : أبا عمرو الأزدي، وأبا الهذيل حيان السراج، وأبا إبراهيم محمد بن المختار أخا زياد بن درهم لأمه، والوليد الأزرق. وقال له محمد ابن علي : لك سبقك في هذا الأمر، ولك فيه فضلك بنفسك وبما مضى عليه أبوك رحمه الله، ولكل رجل خاصة وخاصتي من أهل مصركم أنت وقبيلك، فأقم وأقيموا جميعًا، والقني أنت غبًا، وأظهروا أنكم تريدون [الشخوص]، وأنكم تنتظرون رفقة تخرج فتخرجون، وسلوا عن الكري، وأظهروا العناية بالسفر لايستريب بكم .

مجهول : أخبار العباس ص 191

## 6 ـ الرضا من آل محمد

فانقضت سنة مئة وما تبلغ شيعة الكوفة ثلاثين رجلا، وما يعرف محمد بن علي بنسبه واسمه إلا أولئك الرهط، وكانت دعوتهم إلى الرضا من آل محمد، فإذا سئلوا عن اسمه قالوا : أمرنا بكتمان اسمه حتى يظهر. ولما انقضت سنة مئة مرض أبو رباح، وأتاه عدة ممن لم يكن عرف محمد بن علي فسألوه وهو مدنف أن يخبرهم باسمه، قال، ورأسه في حجر موسى السراج : يخبركم بذلك موسى، ثم استوى قاعدا ونعله بين يديه فتناولها وألقى على ظهرها ترابًا، ثم كتب فيه: الإمام محمد بن علي. وقد قال لسالم قبل ذلك : ياأخي إني لما بي، وهذا الأمر إليك وصاحبنا وإمامنا محمد بن علي وكاتبه بمثل ما كنا نكتب فيه إليه، وقم من أمره بما كان ابن

عمك يقوم به، وقد رأيته يعتمد عليكم ويثق بكم، جمعنا الله وإياكم في جنة الخلد، وأغمي عليه فما نهضوا من عنده إلا وهو ميت .

وقام بأمر الشيعة سالم، وكتب وأولئك الرهط إلى محمد بن علي يخبرونه بموت أبى رباح ميسرة النبال، وسألوا بكيرا أن يخرج بكتبهم، فأجاب إلى ذلك وسر به ونشط له .

أخبار العباس ص 194

## 7 ـ اضطراب خراسان وظهور أبو مسلم

ولما قتل زيد، وكان من أمره ماكان، تحركت الشيعة بخراسان، وظهر امرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم. وجعلوا يذكرون للناس افعال بنى أمية وما نالوا من آل رسول الله، حتى لم يبق بلد الا فشا فيه هذا الخبر، وظهرت الدعاة ورئيت المنامات وتـــدورست كتب الملاحم. وهرب يحيى بن زيد إلى خراسان، فصار إلى بلخ، فأقام بها متواريًا، وكتب يوسف الى هشام بحاله، فكتب إلى نصر بن سيار بسببه. فوجه نصر جيشًا إلى بلخ، عليهم هدبة بن عامر السعدى. فطلبوا يحيى حتى ظفروا به، فأتوا به نصرا فحبسه في فهندز مرو .

وبلغ هشامًا اضطراب خراسان، وكثرة من بها، فكتب إلى يوسف بن عمر: ابعث إلى برجل له علم بخراسان ! فبعث إليه بعبد الكريم بن سليط بن عطية الحنفى. فسأله عن أمر خراسان وأهلها ومن بها ممن يصلح أن يولاها. فسمى له جماعة من قيس وربيعة، فكان اذا سمى رجلا من ربيعة قال : ان ربيعة لايسد بها الثغور ! فسمى نصر بن سيار الليثى، فقال : كأنه نصر وسيار، فقال : ياغلام اكتب عهده. فكتب العهد،وأمره أن يعاجل يوسف بن عمر. وكان نصر بن سيار قبل ذلك تولى كورة من كور خراسان، فعزل جعفر بن حنظة وولى البلد .

وكان يوسف أخذ عمال خالد فحبسهم، وكان، ممن أخذ عيسى بن معقل العجلن، وعاصم بن يونس العجلى. وكان أبو مسلم، واسمه ابراهيم بن عثمان، قبل أن يسميه محمد بن على عبد الرحمن، يخدم عيسى بن معقل، وقد سمعهم يتكلمون في دعوة بنى هاشم حتى فهم الأمر. وقد ارتحل سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وقحطبة بن شبيب يريدون مكة. فدخلوا السجن إلى عيسى بن معقل

وعاصم بن يونس، فرأوا ابا مسلم يختلف اليهم، ويذاكرهم هذا الأمر. فأخرجوه معهم، وادخلوه الى محمد بن على ، فكلمه، وقال : أنى لاحسب هذا الغلام صاحبنا، بل هو هو. فاقبلوا قوله، وانتهوا إلى امره، واستوصوا به، فانه صاحب الأمر لاشك فيه .

وبعض أهل العلم بالدولة يقول : ان أبا مسلم لم يلحق محمد بن على ، انما لقى ابنه ابراهيم بن محمد بن على .

اليعقوبي : تاريخ 326/2

## 8 ـ أبو مسلم الخراساني

والذي ذهب إليه من تأخر من الراوندية وانتقل وتحبر عن جملة الكيسانية القائلة بامامة محمد بن الحنفية ـ وهم الجريانية أصحاب أبى مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية، وكان يلقب بجريان ـ ان محمد بن الحنفية هو الامام بعد علي بن أبي طالب، وأن محمدا أوصى الى ابنه أبى هاشم، وان أبا هاشم أوصى الى على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وان على بن عبد الله أوصى الى ابنه محمد بن على ، وأن محمدا أوصى الى ابنه ابراهيم الامام المقتول بحران، وان ابراهيم أوصى إلى أخيه أبى العباس بن عبد الله بن الحارثية المقتول .

وقد تنوزع في أمر أبى مسلم : فمن الناس من رأى انه كان من العرب، ومنهم من رأى أنه كان عبدا فأعتق، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة واليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية، وتلك من أعمال الكوفة وسوادها، وكان قهرمانا لادريس بن ابراهيم العجلى، ثم آل امره ونمت به الأقدار إلى أن اتصل بمحمد بن علي ، ثم بابراهيم بن محمد الامام، فأنفذه ابراهيم الى خراسان، وأمر أهل الدعوة باطاعته والانقياد الى أمره ورأيه فقوى امره وظهر سلطانه، وأظهر السواد، وصار زينة في اللباس والاعلام والبنود وكان أول من سود من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم اسيد بن عبد الله، ثم نمى ذلك في الأكثر من المدن والكور لخراسان، وقوى أمر أبى مسلم، وضعف أمر نصر بن سيار صاحب مروان بن محمد الجعدى على بلاد خراسان، وكانت له مع أبى مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحيل والمكايد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه، فقد كان لنصر بن سيار حروب كثيرة مع الكرمانى الى أن قتل اتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان» والاوسط، وذكرنا بدء أخبار الكرمانى جديع بن

على ، وما كان بينه وبين سلم بن أحوز صاحب نصر بن سيار، وما كان من أمر خالد بن برمك، وقحطبة بن شبيب، وغيرهما من الدعاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية : كسليمان بن كثير، وابى داود خالد بن ابراهيم. ونظرائهم. وما كان من شعارهم عند اظهار الدعوة، وندائهم حين الحروب : محمد يا منصور، والسبب الذي له ومن أجله اظهروا استعمال السودا دون سائر الألوان.

المسعودى : مروج 254/3

## 9 ـ خبر بكير والبيعة

وأخذ أبو هاشم بكير بن ماهان يومئذ البيعة على من حضره من الشيعة على مناصحة إمامهم في السر والعلانية، وألا يطلعوا على أمرهم أحدا خافوا ناحيته ولم يثقوا به. ثم قال لهم : إنكم قد جذتم بأنفسكم في إقامة الحق ، فجودوا لإمامكم بأموالكم وأعينوا بما قدرتم عليه من أموالكم، فقد ركبته مؤونات في إخياء الحق وإماتة الباطل، لايقوى عليها فيمن يوجه إليكم أو يتوجه إليه منكم إلا بالمال . فجمعوا مالا كثيرا وأتوا به أبا هاشم، فشخص، وخلف سليمان بن كثير على الشيعة وأمرهم إذا حزبهم أمر أن يجتمعوا إلى سليمان فيناظروه فيه عنده. وأمرهم أن يأخذوا برأي أبي صالح كامل بن مظفر فإنه ثقة في رأيه وشفقته .

وسار معه من شيعة أهل مرو أبو حميد وأبو إسماعيل صبيح والأزهر بن شعيب، فأخذ على جرجان، فلما قدمها أقام بها شهرا أو نحوه، وجمعت شيعة أهل جرجان مالا وحليـًا، وإن كانت المرأة لتخرج من جميع حليها الذي على جسدها فتبعث به .

أخبرنا أبو سعيد الجرجاني قال : كانت تحت عامر امرأة من الأزد يقال لها ماوية بنت عمرو بن سعيد وهي بنت خالة عامر، فتوجه على الأزد خمسهم بجرجان، وقد قبلت الدعوة عن عامر، قال : فخلعت ما كان عليها من حلي فبعثت به، وكان سواري ذهب وطوق ذهب وخاتم ذهب وخلخال فضة، وبعثت أم الهيثم امرأة أبى عون بثلثة أبرد وبر من غزل يدها وسواري فضة. فتحمل أبو هاشم فيمن قدم معه من مرو. وشخص معه من جرجان أبو عون، وصحبه حسن بن زرارة ابن عم عامر وهلك قبل ظهور الدعوة بقليل، وصحبه أبو نصير الجرجاني. وسار فيمن سمينا من أصحابه حتى قدم الكوفة وأقام يسيرا، ثم توجه إلى محمد بن علي، وصحبته أبو سلمة، فقدم على محمد بن علي فدفع إليه ما قدم به .

أخبار العباس ص 223

قال الحسن بن حمزة : فتهيأ بكير للشخوص إلى محمد، ولما أزف ذلك منه ورد عليه كتاب من ابن عم له من السند يذكر أن أخاه يزيد بن ماهان توفي وترك مالا جمًا كثيرا، وقد جمعوه، وسأله تعجيل القدوم عليه لقبضه. قال الحسن : فلما أتاه نعي أخيه أتاه الحي يعزونه بأخيه، وما هيأته وشغله إلا بجهازه لسفره إلى محمد بن علي. فقال له سالم : ابدأ بوجهك في طلب ميراثك، ونبعث بكتبنا مع موسى السراج، فقال بكير : ماكنت لأوثر الدنيا على الآخرة، بل أمضي إلى صاحبي، وألقاه، وأستأذنه، فإن اذن لي في طلب ميراثي شخصت في ذلك فما أسرع الإياب إن مد لي في الأجل. فشخص بكير حتى أتى دمشق ثم ابتاع بها عطرا، وحمله على بغل ابتاعه، وخرج حتى أتى الشراة في هيأة عطار يبيع عطره، وأتى بعض قراها فباع بعض ما معه حتى شهر بذلك ، ثم توجه إلى الحميمة، فلما دخلها طلب منزلا ينزله، فبصر بإبراهيم بن سلمة، وكان يعرفه بحيان خاله بالكوفة، فقال له وهو متلثم : منزل؟ قال : نعم، هذا منزل الضيفان. فخرج به حتى ادخله رحبة واسعة فيها منزل محمد بن علي وقد أطاف بالرحبة منازل إخوته وولده ومواليهم. وفيها مسجد لهم فيه مجتمعهم ومتحدثهم وأكثر طعامهم. فأدخل بكيرا بيت الضيفان وأدخل متاعه، فلما وضع رحله أسفر عن وجهه، فلما رآه إبراهيم بن سلمة عرفه فسلم عليه، وقال له بكير : لاتظهرن معرفتك بي. قال الحسن: فأخبرنا بكير قال : فكتمت أمري، وجعلت أعرض بضاعتي، وأساهل من أبايعه من آل علي، وجعلوا يذكرون ذلك لأبي عبد الله حتى أنسوا بي، وجعلت أصلي معهم وأجلس إليهم. وكان بكير رجلا عاقلا لبيبًا، قد جال الآفاق، قال : فقلت لإبراهيم : إذا خلا صاحبك فأعلمه مكاني وسمنى له ولا تذكرني له وعنده أحد. قال : فترقب خلوته وأخبره بأمره وسماه له فعرفه بتسمية ابن بجير اسمه له، وقال : قل له : إذا صليت العتمة فليقم يتنفل في المسجد حتى تدخل إخوتي حامتنا منازلهم. قال بكير : ففعلت ذلك ، ودخل محمد ابن علي منزله، ودخل أهل بيته منازلهم، حتى إذا لم يبق غيري عاد إلي إبراهيم بن سلمة فأدخلني عليه فسلمت تسليمًا خاصًا، وخبرته بأمرنا وما صرنا إليه بعد موت أبي رباح، ودفعت إليه كتاب سالم وكتب أصحابه فقرأها، وترحم على ابن بجير فأكثر وتوجع لموته وترحم على أبي رباح ثم قال : كم يبلغ أصحابكم بالكوفة؟ قلت : لا يكونون ثلاثين رجلا. قال : سيكونون ويكثرون. فقلت :

إنا كنا نتحفظ ونمسك عن الجد انتظار الوقت، فقال : قد أصبتم، وعليك بتجارتك هذه، أظهر الجدّ فيها لا يرى من أنت بين ظهرانيه ان شأنك غيرها. قال بكير : فدفعت إليه تسعين ومئة دينار جمعتها شيعة الكوفة. قال : ودفعت إلي أم الفضل طوقًا من ذهب، وثوبًا مرويًا من غزل يدها، وسألتني دفعهما إليه، فكان أول مال حملته الشيعة إلى محمد بن علي مع بكير بن ماهان. قال إبراهيم: فكان إذا تفرق بنو على وحامتهم أرسل محمد إلى بكير فيدخله عليه ويكثر الخلوة به، فقال عبد الله بن علي : قد غلبنا هذا العطار على أبي عبد الله، فقلت له: انه حسن الحديث، وقد طوف البلدان، وأخوك يعجبه حديثه.

أخبار العباس ص 94 194

## 11 ـ استغلال الدعاة العباسيين للخلاف بين المضرية واليمنية

ولما قتل أبو عكرمة وحيان وجه الامام محمد بن على الى خراسان خمسة نفر من شيعته : سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وموسى بن كعب، وخالد بن الهيثم، وطلحة بن زريق، وأمرهم بكتمان أمرهم، وألا يفشوه لأحد الا بعد أن يأخذوا عليه العهود المؤكدة بالكتمان .

فساروا حتى اتوا خراسان، فكانوا يأتون كورة بعد كورة، فيدعون الناس سرا إلى أهل بيت نبيهم، ويبغضون إليهم بنى أمية، لما يظهر من جورهم واعتدائهم، وركوبهم القبائح، حتى استجاب لهم بشر كثير في جميع كور خراسان .

وبلغ الجنيد أمرهم، فأمر بطلبهم، وأخذوا، وأتى بهم الجنيد .

فقال : يافسقة، قد قدمتم هذه البلاد، فأفسدتم قلوب الناس ـ على بنى أمية، ودعوتم إلى بنى العباس .

فتكلم سليمان بن كثير، وقال : أيها الأمير، اتأذن لى في الكلام .

قال : تكلم

قال : أنا واياك كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حلقى شرق      لاستغثت اليوم بالماء القراح

نعلمك أيها الأمير، أنا أناس من قومك اليمانية، وأن هؤلاء المضرية تعصبوا علينا، فرقوا اليك فينا الزور والبهتان، لانا كنا أشد الناس على قتيبة، فهم الآن يطلبون بثأره بكل علة .

فقال الجنيد لمن كان حوله من أصحابه : ماترون ؟ ـ فتكلم عبد الرحمن بن نعيم رئيس ربيعة، وكان من خاصته : نرى أن تمن بهم على قومك، فلعل الأمر كما يقولون. فأمر باطلاقهم فخرجوا وكتبوا بقصتهم الى الامام. فكتب اليهم : ان هذا أقل ما لكم، فاكتموا أمركم وترفقوا في دعوتكم .

فساروا من مدينة مرو إلى بخارى، ومن بخارى إلى سمرقند، .. ومن سمرقند إلى كش ونسف، ثم عطفوا على الصغانيان، وجازوا منها الى ختلان، وانصرفوا الى مرو الروذ، والطالقان، وعطفوا الى هراة وبوشنج وجازوا الى سجستان فغرسوا في هذه البلدان غرسًا كثيرا، وفشا أمرهم في جميع أقطار خراسان. وبلغ ذلك الجنيد، فأسف على تركهم ووجه في طلبهم، فلم يقدر عليهم .

الدينوري : الأخبار .. ص 335

## 12 ـ تردد أبى سلمة الخلال في بيعة العباسيين

واخفى أبو سلمة أمر أبى العباس ومن معه، ووكل بهم (وكيلا) وكان قدوم أبى العباس الكوفة في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس، وقد كان أبو سلمة لما قتل ابراهيم الامام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن اسلم (وكان اسلم) مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب معه كتابين على نسخة واحدة الى أبى محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم اجمعين ! يدعو كل واحد منهما الى الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه ويجتهد في بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول : العجل العجل، فلا تكونن كوافد عاد، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبى عبد الله جعفر بن محمد فلقيه ليلا، فلما وصل إليه اعلمه أنه رسول أبى سلمة، ودفع إليه كتابه، فقال له أبو عبد الله : وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيرى، قال : إنى رسول، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت، فدعا أبو

عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب أبى سلمة فوضعه على السراج حتى احترق، وقال للرسول : عرف صاحبك بما رأيت ثم انشأ يقول متمثلا بقول الكميت بن زيد :

أيا موقدا نارا لغيرك ضوءها ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فخرج الرسول من عنده، وأتى عبد الله بن الحسن، فدفع إليه الكتاب ، فقبله وقرأه وابتهج به، فلما كان (من) غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب ركب عبد الله حمارا حتى أتى منزل أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وكان أبو عبد الله اسن من عبد الله، فقال له : يا أبا محمد، أمر ما أتى بك، قال : نعم، هو أجل من أن يوصف، فقال : وما هو ياأبا محمد؟ قال : هذا كتاب أبى سلمة يدعونى الى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبد الله : يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان وأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق انت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم أحدا؟ فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، الى أن قال : انما يريد القوم ابنى محمدا لأنه مهدى هذه الامة، فقال أبو عبد الله جعفر : والله ماهو مهدى هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن، فنازعه عبد الله القول، حتى قال له : واله ما يمنعك من ذلك الا الحسد ، فقال أبو عبد الله : والله ماهذا الا نصح منى لك، ولقد كتب الى أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك، فلم يجد رسوله عندى ماوجد عندك، ولقد احرقت كتابه من قبل أن أقرأه. فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضبا، ولم ينصرف رسول أبى سلمة اليه الى أن بويع للسفاح بالخلافة .

المسعودى : مروج 268/3

# الباب الثاني

# شخصية الخلفاء

## 13 ـ بعض صفات المنصور

وذكر احمد بن خالد الفقيمى أن عدة من بنى هاشم حدثوه أن المنصور كان شغله في صدر نهاره بالامر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم، فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته الا من أحب أن يسامره، فاذا صلى العشاء الاخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره فيما أرب، فاذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره، فاذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه، فاسبغ وضوءه، وصف في محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلى بالناس، ثم يدخل فيجلس في ايوانه .

قال اسحاق : حدثت عن عبد الله بن الربيع، قال : قال أبو جعفر لاسماعيل بن عبد الله : صف لي الناس، فقال : أهل الحجاز مبتدأ الاسلام وبقية العرب، وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين، وأهل الشام حصن الأمة واسنة الائمة، وأهل خراسان فرسان الهيجاء واعنة الرجال، والترک منابت الصخور وأبناء المغازى، وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عما يليهم، والروم أهل كتاب وتدين نحاهم الله من القرب الى البعد، والانباط كان ملكهم قديما لكل قوم عبيد. قال : عبيد. قال : فأي الولاة افضل؟ قال : الباذل للعطاء، والمعرض عن السيئة. قال : فأيهم اخرق؟ قال : انهكهم للرعية، واتعبهم لها بالخرق والعقوبة. قال : فالطاعة على الخوف ابلغ في حاجة الملك أم الطاعة على المحبة؟ قال : ياأمير المؤمنين، الطاعة عند الخوف تسر الغدر عند المعاينة، والطاعة على المحبة تضمر الاجتهاد وتبالغ عند الغفلة. قال : فأي الناس أولاهم بالطاعة؟ قال : أولاهم بالمضرة والمنفعة. قال : ماعلامة ذلک؟ قال : سرعة الاجابة وبذل النفس. قال : فمن ينبغي للملك أن يتخذه وزيرا؟ قال : اسلمهم قلبا، وابعدهم من الهوى.

الطبري : تاريخ 158/8

## 14 ـ صفات المنصور

وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ماتجاوز كل وصف، وكان يعطي الجزيل والخطير ماكان عطاؤه حزما، ويمنع الحقير اليسير ماكان اعطاؤه تضييعا، وكان كما قال زياد : لو أن عندي ألف بعير وعندي بعير اجرب لقمت عليه قيام من لايملك غيره، وخلف أبو جعفر ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، وكان مع هذا يضن بماله، وينظر فيما لاينظر فيه العوام، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والاكارع والجلود، وعليه الحطب والتوابل، ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة في يوم واحد بعشرة آلاف درهم، وأسماؤهم: عبد الله بن علي، وعبد الصمد بن علي ، واسماعيل بن علي، وعيسى بن علي، وداود بن علي، وصالح بن علي، وسليمان بن علي، واسحاق بن علي، ومحمد بن علي، ويحيى بن علي، وكان يعمل في بناء مدينة بغداد التي بناها وعرفت به في كل يوم خمسون ألف رجل، وكان له من الولد: المهدي وجعفر، وامهما أم موسى الحميرية، وتوفي جعفر في حياة أبيه المنصور، وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر، الاصغر، من كردية، وصالح الملقب بالمسكين، وبنت تسمى عالية .

المسعودي : مروج 318/3

## 15 ـ صفات المهـدي

وكان وزيره أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، وهو جد محمد بن عبد الوهاب (الكاتب) وكان كاتبه قبل الخلافة، فقتل المهدي ابنا لأبي عبيد الله على الزندقة، فاستحوحش كل واحد منهما من صاحبه فعزله وعاش أبو عبيد الله الى سنة سبعين ومائة، ثم إختص المهدي يعقوب بن داود السلمى، وخرج كتابه على الدواوين أن أمير المؤمنين قد آخاه، وكان يصل إليه في كل وقت دون الناس كلهم ثم اتهمه بشيء من أمر الطالبيين، فهم بقتله، ثم حبسه فبقي في حبسه الى أيام الرشيد فأطلقه الرشيد، وقد قيل في أمره: انه كان يرى الامامة في الأكبر من ولد العباس، وأن غير المهدي من عمومته كان أحق بها منه .

وكان المهدي محببـا إلى الخاص والعام، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف، وأنصاف المظلوم، وبسط يده في الاعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى

ماجباه في أيامه، فلما فرغت بيوت الأموال اتى أبو حارثة النهرى خازن بيوت أمواله فرمى بالمفاتيح بين يديه، وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ؟ ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة النهرى بقبضها وتصحيحها عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام، فلما دخل عليه قال: ما أخـرك؟ فقال : الشغل بتصحيح الأموال ، فقال : أنت أعرابي أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا اذا احتجنا اليها، قال أبو حارثة: ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظر حتى توجه في استخراج الأموال وحملها، وقيل : انه فرق في عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف (ألف) درهم، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيباً فقال : وللمهدى اشباه، فمنها القمر الزاهر، والربيع الباكر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه، وأما الاسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه .

المسعودي : مروج 322/3

## 16 ـ اطلاع المامون على أحوال أصحابه

وعن ابراهيم بن السندي بن شاهک قال : لما اختار يحيى بن اكثم العشرة من الفقهاء واحضرهم مجلس المامون لمذاكرة الفقه جعل له يوما في الجمعة يحضرون مجلسه، فقال لي المامون : ياابراهيم أحضر فلست بدون أكبرهم، فكنت أحضر، وكان قد اختار من أيام الجمعة يوم الثلاثاء، قال: فحضرت يوما فلما أمسک المأمون عن المسائل نهض القوم، وكان ذلك اذنه بانصرافهم، فوثبت معهم، فقال بيده : مكانك ياابراهيم، فقعدت وقام يحيى وساءه تخلفى، فقال لي ودخل ابراهيم بن المهدي: هات ذكر من في عسكرنا ممن يطلب ماعندنا بالرياء، فقلت ماعندي، وقال ابراهيم ماعنده، فقال : مأرى عند أحد مايبلغ ارادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره حتى والله لو كان قد أقام في رحل كل رجل حولا لما زاد على معرفته، وقال : انه كان مما حفظت عنه في ثلب اصحابه انه قال : تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة وصيام النوشجاني ووضوء بشر المريسي وبناء مالک بن شاهک المساجد وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر وجمع الحسين بن قريش القيامى وقصص مرجا وصدقة على بن هشام وحملان اسحاق بن ابراهيم في سبيل الله وصلاة ابي رجاء الضحى،

فقال لى رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار : هل رأيت أو سمعت قط اعلم برعيته وأشد تنقيرا من هذا؟ قلت : اللهم لا ! فحدثت بهذا الحديث بعض اهل الخطر، فقال : وماتصنع بهذا وقد كتب الى اسحاق بن ابراهيم في الفقهاء بمعايبهم رجلا رجلا حتى انه اعلم بما في منازلهم منهم؟

البيهتي : المحاسن والمساويء 149

## 17 ـ عرس خليفة

حدثني الحارث بن نصر المنجم وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران ركب من بغداد زورقا حتى أرقى على باب الحسن بن سهل وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر فتلقاه الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطيء دجلة بنى له فيه جوسق. قال : فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل فحلف عليه الا يفعل. فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لاتنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب ثم أمر أن يقدم اليه دابته ودخلا جميعا الى منزل الحسن ووافى المامون في وقت العشاء وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين فافطر هو والحسن والعباس ودينار ابن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الافطار وغسلوا ايديهم فدعا المامون بشراب فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب. فمد يده بجام فيه شراب الى الحسن فتباطأ عنه الحسن لانه لم يكن يشرب قبل ذلك فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن ياأمير المؤمنين : اشربه باذنك وأمرك؟ فقال له المامون : لولا امرى لم أمدد يدى اليك. فأخذ الجام فشربه فلما كان في الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن ابن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرياستين فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة، وام جعفر، وجدتها. فلما جلس المامون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد الدركم هو؟ فقالت: ألف حبة، فأمر بعدها فنقصت عشرة فقال : من أخذها منكم ردوها. فقالوا حسين زجلة فأمر بردها. فقال ياأمير المؤمنين : انما نثر لنأخذه، قال. ردها، فأنى اخلفها عليك فردها وجمع المامون ذلك الدر في الآنية ووضع في حجرها وقال هذه نحلتك فاسألي حوائجك؟ فأمسكت. فقالت لها جدتها كلمى سيدك واسأليه حوائجك فقد امرك. فسألته الرضى عن ابراهيم بن المهدى. فقال : قد

فعلت، وسألته الاذن لام جعفر في الحج فاذن لها ولبستها أم جعفر البدنة الاموية وابتنى بها في ليلته، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا في تور ذهب فأنكر المأمون ذلك عليهم، وقال : هذا سرف. فلما كان من غد دعا بابراهيم بن المهدي فجاء يمشى من شاطيء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعمم بعمامة حتى دخل فلما رفع الستر عنالمأمون رمى بنفسه فصاح المأمون ياعم : لابأس عليك. فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وانشد شعرا ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب وقلده سيفا وخرج فسلم على الناس ورد الى موضعه.

قال الحارث : وأقام المامون سبعة عشر يوما يعد له في كل يوم ولجميع من معه مايحتاج اليه. قال : وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم وكان مبلغ النفقة عليه خمسين الف الف درهم. قال : وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه ان يدفع الى الحسن عشرة آلاف الف من مال فارس واقطعه الصلح فحملت اليه على المكان وكانت معدة عند غسان بن عباد. قال : فجلس الحسن ففرقها في قواده، وأصحابه، وحشمه، وخدمه. قال : ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع الى فم الصلح.

فحدثني الفضل بن جعفر بن الفضل. قال : حدثني أحمد بن الحسن بن سهل. قال : كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم الضيعة بعث فتسلمها.

وقال أبو الحسن على بن الحسين بن عبد الاعلى الكاتب. قال : حدثني الحسن ابن سهل يوما بأشياء كانت في أم جعفر ووصف رجاحة عقلها وفهمها ثمقال : سألها يوما المأمون بفم الصلح حيث خرج للبناء على بوران، وسأل حمدونة بنت غضيض عن مقدار ماانفقت في ذلك الامر. فقالت حمدونة: انفق خمسة وعشرين ألف ألف. قال : فقالت أم جعفر ماصنعت شيئا قد انفق مابين خمسة وثلاثين ألف الف الى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. قال : واعددنا له شمعتين عنبر. قال : فدخل بها ليلا فأوقدنا بين يديه فكثر دخانهما. فقال : ارفعوهما فقد آذانا الدخان وهاتوا الشمع، قال: ونحلتها أم جعفر في ذلك اليوم الصلح. قال: فكان سبب عود الصلح الى ملكي وكانت قبل ذلك لي فدخل على يوما حميد الطوسي فأقرأني أربعة ابيات امتدح بها ذاالرئاستين فقلت له : ننفذها لك الى ذى الرئاستين واقطعك

الصلح في العاجل الى أن تأتيني مكافأتك من قبله فاقطعته اياها، ثم ردها المامون على أم جعفر فنحلتها بوران.

ابن طاهر : كتاب بغداد ص 114

## 18 ـ غداء عند المامون

قال جعفر بن محمد الانماطي : لما دخل المامون بغداد وقر بها قراره وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء، والمتكلمين. وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء، وعلى حصر في الصيف ليس معهما شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لايمتنع منه أحد. قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة كان أحمد بن أبى داود احدهم، وبشر المريسى. قال جعفر بن محمد الانماطي وكنت احدهم، قال فتغذينا يوما عنده فظننت انه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون فكلما وضع لون نظر المأمون اليه فقال : هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا. فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليجتنب هذا : ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده فلة الغذاء فليقتصر على هذا قال : فوالله ما زالت تلك حاله في كل لون يقوم حتى رفعت الموائد. قال : فقال له يحيى بن اكثم يأامير المؤمنين : ان خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه، أو في الفقه كنت على بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده، أو ذكرنا صدق الحديث كنت اباذر في صدق لهجته، أو الكرم كنت كعب بن مامة في ايثاره على نفسه قال : فسر بذلك الكلام. وقال يا أبا محمد: ان الانسان انما فضل على غيره من الهوام بفعله، وعقله، وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولادم أطيب من دم .

ابن طاهر : كتاب بغداد 36

## 19 ـ وفاة المامون ووصيته

ولما اشتدت بالمامون علته بعث الى ابنه العباس، وهو يظن أن لن يأتيه، فأتاه وهو شديد المرض متغير العقل، قد نفذت الكتب بما نفـذت له في أمـر أبى اسحاق بن الرشيد، فأقام العباس عند أبيه اياما، وقد أوصى قبل ذلك الى أخيه ابى اسحاق.

وقيل : لم يوص الا والعباس حاضر، والقضاة والفقهاء والقواد والكتاب، وكانت وصيته : هذا مأأشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعا على نفسه انه يشهد ومن حضره أن الله عز وجل وحده لاشريك له في ملكه، ولامدبر لامره غيره، وانه خالق وماسواه مخلوق، ولايخلو القرآن أن يكون شيئا له مثل، ولاشيء مثله تبارك وتعالى، وان الموت حق، والبعث حق، وثواب المحسن الجنة وعقاب المسيء النار، وان محمدا صلى الله عليه وسلم قد بلغ عن ربه شرائع دينه، وادى نصيحته الى أمته، حتى قبضه الله اليه صلى الله عليه أفضل صلاة صلاها على أحد من ملائكته المقربين وانبيائه والمرسلين، وانى مقر مذنب، أرجو وأخاف، الا انى اذا ذكرت عفو الله رجوت، فاذا انامت فوجهوني وغمضوني، وأسبغوا وضوئي وطهورى ، وأجيدوا كفني ، ثم اكثروا حمد الله على الاسلام ومعرفة حقه عليكم في محمد إذ جعلنا من أمته المرحومة، ثم اضجعوني على سريري ، ثم عجلوا بى فإذا أنتم وضعتموني للصلاة، فليتقدم بها من هو أقربكم بي نسبـًا، وأكبركم سنـًا، فليكبر خمسًا، يبدأ في الاولى في أولها بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على سيدي وسيد المرسلين جميعـًا، ثم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات، الاحياء منهم والأموات، ثم الدعاء للذين سبقونا بالايمان، ثم ليكبر الرابعة، فيحمد الله ويهلله ويكبره ويسلم في الخامسة ثم أقلوني فأبلغوا بي حفرتي، لينزل أقربكم الى قرابة، وأودكم محبة، وأكثروا من حمد الله وذكره، ثم ضعوني على شقي الايمن واستقبلوا بي القبلة، وحلوا كفني عن رأسي ورجلي، ثم سدوا اللحد باللبن، واحشوا ترابـًا على ، واخرجوا عني وخلوني وعملي، فكلكم لايغنى عنى شيئـًا، ولا يدفع عني مكروها، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا خيرا ان علمتم، وأمسكوا عن ذكر شر ان كنتم عرفتم، فانى مأخوذ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به، ولا تدعوا باكية عندي، فان المعول عليه يعذب، رحم الله امرءا اتعظ وفكر فيما حتم الله على جميع خلقه من الفناء، وقضى عليهم من الموت الذي لابد منه، فالحمد لله الذي توحد بالبقاء، وقضى على جميع خلقه

الفناء. ثم لينظر ماكنت فيه من عز الخلافة، هل أغنى ذلك عنى شيئًا اذ جاء أمر الله ! لا والله، ولكن اضعف على به الحساب، فياليت عبد الله بن هارون لم يكن بشرا. بل ليته لم يكن خلقًا ! ياأبا اسحاق ، ادن مني. اتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلته. فكأن قد نزل بك الموت. ولا تغفل أمر الرعية. الرعية الرعية ! العوام العوام ! فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ! ولا ينهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره من هواك. وخذ من أقويائهم لضعفائهم. ولاتحمل عليهم في شيء، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم. وقربهم وتأتهم. وعجل الرحلة عنى . والقدوم الى دار ملكك بالعراق. وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت. والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد. واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة. فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك. واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه. راجيا ثواب الله عليه. واعلم أن العظة اذا طالت أوجبت على السامع لها والموصي بها الحجة. فاتق الله في أمرك كله، ولا تفتن .

ثم دعا أبا أسحاق بعد ساعة حين اشتد به الوجع، وأحس بمجيء أمر الله فقال له : ياأبا اسحاق، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن بحق الله في عباده، ولتؤثرن طاعته على معصيته، اذ أنا نقلتها من غيرك اليك ؟ قال : اللهم نعم ، قال: فانظر من كنت تسمعني اقدمه على لساني فأضعف له التقدمة، عبد الله بن طاهر اقره على عمله ولاتهجه، فقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي. استعطفه بقلبك، وخصه ببرك، فقد عرفت بلاءه وغناءه عن أخيك . واسحاق . بن ابراهيم فأشركه في ذلك، فانه أهل له. وأهل بيتك، فقد علمت أنه لابقية فيهم وان كان بعضهم يظهر الصيانة لنفسه. عبد الوهاب عليك به من بين اهلك، فقدمه عليهم، وصير امرهم اليه. وأبو عبد الله بن ابى داود فعلايفارقك، واشركه في المشورة في كل امرك، فانه موضع لذلك منك، ولاتتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا، فقد علمت مانكبنى به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى ابان الله ذلك منه في صحة مني، فصرت الى مفارقته ! قاليا له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته، لاجزاه الله عن الاسلام خيرا! وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه، فأحسن

صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، وصلاتهم فلاتغفلها في كل سنة عند محلها، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى. اتقوا الله ربكم حق تقاته ولاتموتن الا وانتم مسلمون. اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون. اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها. استودعكم الله ونفسي واستغفر الله مما سلف. واستغفر الله مما كان مني، انه كان غفارا، فانه ليعلم كيف ندمى على ذنوبي. فعليه توكلت من عظيمها، واليه انيب ولا قوة الا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل. وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة !

الطبرى : تاريخ 647/8

## 20 ـ موكب عيد في عهد المعتصم

حمدون بن اسماعيل النديم قال : حضر العيد فعبى المعتصم بالله خيله تعبية لم يسمع بمثلها ولم ير لأحد من ولد العباس شبيه بها، وأمر بالطريق فمسح من قصره إلى المصلى ثم قسم ذلك على القواد وأعطى كل واحد منهم مصافه. فلما كان قبل الفطر بيوم حضر القواد وأصحابهمفيأجمل زيوأحسن هيأة فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر الى أن ركب المعتصم بالله على المصلى . فكان الموضع باب قصره الى المصلى ثم قسم ذلك على القواد وأعطى كل واحد منهم مصافه، الذي وقع لابراهيم بن المهدى من بعد الحرسي بحذاء مسجد الخوارزمي وابراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير الى المصلى على التعبية التي حدها، ولبس ثيابه وجلس على كرسي ينتظر مضى القواد، فلما انقضى أمرهم تقدم الى الرجالة في المسير بين يديه فتقدم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالى كل ثلاثمائة منهم في زي مخالف لزي الباقين وأربعة آلاف من المغاربة وأمر الشيعة فكانوا وراءه بأعمدة وعدتهم أربعة آلاف وركبت لا أدرى منزلتي أين هي ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب، فلما وضع رجله في الركاب واستوى على سرجه التفت إلي وقال : ياحمدون كن أنت خلفي . فلزمت مؤخر دابته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القواد وأصحاب المصاف يخرج الرجل من مصافه فاذا نزل وسلم عليه بالخلافة فيأمره بالركوب ويمضي، حتى وصل إلى ابراهيم بن المهدي فنزل وسلم عليه بالخلافة فرد عليه السلام فقال : كيف أنت يا ابراهيم وكيف حالك وكيف كنت في أيامك؟ اركب، فركب، فلما جاوزه التفت الي فقال : ياحمدون ! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين. قال : تذكر، قلت: أي والله

ياسيدي، وامسک، فنظرت في ما قال فلم آجدني آذکر شيئا في ذلك الموضع مما يشبه ما کنا فيه، فنغص على يومي وما رأيت من حسنه وسروری بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت : الخلفاء لايعاملون بالكذب ولا يجوز أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوفت أن ينالني منه مكروه. فلم أزل واجما في طريقي الى وقت انصرافه ثم أجمعت على مغالطته ان امكنني وأعمل الحيلة في التخلص أن يسائلني . فلما استقر في مجلسه وبسط السماط وجلس القواد على مراتبهم للطعام اقبلت أخدم واختلف ليست لي همة غير ما كان قاله لي لاأغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السماط ورفع الستر ونهض أمير المؤمنين، ودخل الحجرة ومضى الى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي : أجب أمير المؤمنين فمضيت فلما دخلت ضحك الى وقال : ياحمدون رايت؟ قلت : نعم ياسيدي قد رأيت. فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه فما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجل منه ولا ابهى ولا أحسن. قال : ويحك رأيت ابراهيم بن المهدي ؟ قلت : نعم ياسيدي قال : رأيت سلامة على وردي عليه ونزوله الي؟ قلت: نعم. فقال : انه لما كان من آمره ما كان. يعنى الخلافة، قسم الطريق في يوم عيد من منزله الى المصلى كقسمتي اياه في هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلت فسلمت عليه فرد على مثل مارددته حرفا حرفا على ما قال لي، قال : فدعوت له وانفرج عني ما كنت فيه .

البيهتي : المحاسن 152

# الباب الثالث

# التطورات السياسية

## 21 ـ ظروف تولية السفاح

فأظهر أبا العباس وأقبل به حتى دخل المسجد الأعظم، واجتمع له الناس، فصعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام. ثم ذكر انتهاك بنى أمية المحارم وهدمهم الكعبة، ونصبهم عليها المجانيق وما ابدعوا من خبيث السير ثم نزل .

فأكثر الناس له من الدعاء، وأقبل نحو دار الامارة فنزلها، وأمر الحسن بن قحطبة بالانصراف إلى واسط والاناخة بيزيد بن عمر بن هبيرة. فسار الحسن وحاصر يزيد اشهرا كثيرة .

قال الهيثم بن عدى : بويع لأبي العباس بالخلافة، ولأبى جعفر بولاية العهد من بعده في رجب من سنة اثنتين وثلاثين ومائة. فلما استدف لأبي العباس الا مرة ولى أبا سلمة الداعى جميع ما وراء بابه، وجعله وزيره وأسند إليه جميع أموره، فكان يسمى وزير آل محمد فكان ينفذ الأمور من غير مؤامرة. وبلغ ذلك أبا مسلم وهو بخراسان، فدعا مروان الضبى وكان أحد قواده وقال له : «انطلق الى الكوفة، فأخرج أبا سلمة من عند الامام أبى العباس، فأضرب عنقه، وانصرف من ساعتك» ففعل الضبى ذلك .

أبو حنيفة الدينورى
الأخبار الطوال ص 370

## 22 ـ الخطبتان عند بيعة السفاح

وذكر أن أبا العباس لما صعد المنبر حين بويع له بالخلافة، قام في أعلاه، وصعد داود بن على فقام دونه، فتكلم أبو العباس، فقال : الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به، والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها

وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آبائه. وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا، حريصًا علينا بالمؤمنين رؤوفا رحيمًا، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»، وقال : «قل لااسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى» وقال : «وأنذر عشيرتك الاقربين» وقال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربي واليتامى»، وقال : «واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى» فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا، والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السبئية الضلال، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم ! بم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق، وادحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، واخوانًا على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم. فلما قبضه الله اليه، قام بذلك الأمر من بعده اصحابه، وأمرهم شورى بينهم فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا منها. ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا. وانى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت الا بالله. ياأهل الكوفة، انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا. انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى ادركتم زمـاننا ، وأتاكـم اللـه بدولنا، فانتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير .

وكان موعوكا فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن على فقام دونه على مراقى المنبر، فقال :

الحمد لله شكرا شكرا، الذي اهلك عدونا، وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه. أيها الناس ، الآن اقشعت حنادس الدنيا. وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم الى منزعه، ورجع الحق الى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، أنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولاعقيانا، ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وانما أخرجنا الانفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وماكرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهــــم بكــم ، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وآله، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. تبا تبا لبني حرب بن أمية وبني مروان ـ آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الانام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الاوزار ، وتجلبب الآصار، ومرحوا في اعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي، جهلا باستدراج الله، وامنا لمكر الله، فاتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون، فاصبحوا احاديث ، ومزقوا كل ممزق، فبعدا للقوم الظالمين ! وأدالنا الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، ارسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظن عدو الله ان لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته ما امات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، واحيا شرفنا وعزنا، ورد الينا حقنا وارثنا .

أيها الناس، ان أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا، انما عاد الى المنبر بعد الصلاة، انه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره. وانما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد ابدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين افسدوا في الأرض بعد صلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل، المقتدى بسلفه الابرار الأخيار، الذين اصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى، ومناهج التقوى .

فعج الناس له بالدعاء. ثم قال :

يا أهل الكوفة، أنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلح بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ماكنتم تنتظرون، واليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وادالكم على أهل الشام، ونقل اليكم السلطان، وعز الاسلام، ومن عليكم بامام منحه العدالة،واعطاه حسن الايالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الأمر أمركم، وان لكل أهل بيت مصرا، وانكم مصرنا. ألا وانه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده الى أبى العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

ثم نزل أبو العباس وداود بن على امامه، حتى دخل القصر، واجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم، حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب ، وجنهم الليل ، فدخل .

الطبرى : تاريخ 425/7

## 23 ـ الخصوم الاولون للدولة الجديدة

ووجه أبو العباس أخاه أبا جعفر الى واسط، وكان الحسن بن قحطبة محاصرا ليزيد بن عمر بن هبيرة، وأمره بمجالدته، فحوصر احد عشر شهرا، وكان معه جماعة من قواد مروان وأصحابه، وممن كان مع عامر بن ضبارة، ونباته بن حنظلة، الذين قتلهم قحطبة، وكان يزيد قد استعد لحصار سنتين، وادخل الاقوات والعلوفة لعشرين ألف مقاتل، فصدقوه المحاربة، وطلب الامان ووجه السفراء، فأجيب إلى ذلك ، وكتب له كتاب أمان، وشرط له فيه ماسأل.وختمه أبو العباس .

وخرج ابن هبيرة حتى صار إلى أبى جعفر، فبايع ثم رجع إلى موضعه، وكان يركب كل يوم في ألف فارس وألف راجل، فقال بعض أصحاب أبى جعفر له : أصلح الله الأمير ! ان ابن هبيرة ليأتى فيتضعضع له العسكر. فقال لأبى غسان حاجبه : قل لإبن هبيرة فليقلل من جمعه ! فركب اليه في خمسمائة راجل،، فقال له الحاجب : كأنك تأتينا مباهيا، فركب اليهم في ثلاثين فارسًا، وثلاثين راجلا، فكان أبو جعفر

يقول : ما رأيت انبل من ابن هبيرة، ولاأتيه، ان كان ليدخل الى ، فيقول : كيف انت ياهذا أوحالك ، وكيف ما يأتيك عن صاحبك ؟ فان كنت لاحدثه فيقول : أيها لله أبوك ! ثم يتداركها فيقول : اصلح الله الأمير ! انى قريب عهد بامارة، وكان الرجل يحدثنى، فأقول بهذا ونحوه. وقال له يومًا : حدثنى ! فقال : لامحضنك النصيحة محضا، ان عهد الله لاينكث وعقدته لاتحل ، وان امارتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنبوهم مرارتها .

ووجدت كتب لابن هبيرة الى محمد بن عبد الله بن حسن يعلمه أن يبايع له، وان قبله اموالا وعدة وسلاحًا، وان معه عشرين ألف مقاتل ، فانفذت الكتب الى ابى العباس فقال أبو العباس : نقض عهده، واحدث ما احل به دمه، فكتب الى أبى جعفر : ان اضرب عنقه، فانه غدر، ونكث، ونقض العهود، وكثرت كتبه بذلك ، وكتب أبو مسلم من خراسان يحرض على قتله، ويخبر أن الأمر لايستقيم ما كان حيا، وانه ممن لايصلح للاستبقاء. وقال أبو جعفر للحسن بن قحطبة الطائى : ان أمير المؤمنين قد أمر بقتل هذا الرجل ، فتول ذلك ! فقال له الحسن : ان قتلته كانت العصبية بين قومى وقومه، والعداوة، واضطرب عليك من بعسكرك من هؤلاء وهؤلاء، ولكن انفذ اليه برجل من مضر يقتله. فوجه اليه بخازم بن خزيمة التميمي ، فأتاه في جماعة، فوافاه وهو جالس في رحبة القصر بواسط، فلما رآهم قال : اقسمت بالله ان في وجوه القوم لغدرة ! فلما دنوا منه قام ابنه داود في وجوههم، فضربه بعضهم بالسيف فجدله، وصاروا الى يزيد فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه، ثم تتبعوا قواده وأصحابه، فقتلوهم عن آخرهم .

وخرج شريك بن شيخ المهرى ببخارى فقال : ما على هذا بايعنا آل محمد، ان نسفك الدماء، ونعمل غير الحق. فوجه اليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعى، فقاتله، فقتله .

وخرج أبو محمد السفيانى، وهو يزيد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، بما لديه، وخرج محمد بن مسلمة بن عبد الملك بحران، وحاصر موسى بن كعب، وكان عامل أبى جعفر، وأبو جعفر يومئذ عامل الجزيرة، ورماها بالمنجنيق، وحرق أبوابها، وكان ذلك سنة 133 .

ثم بلغ محمد بن مسلمة قتل ابى محمد السفياني وقتل أبى الورد بن كوثر

ابن زفر، فانصرف عنها، وتفرق جمعه، واتبعه موسى بن كعب، فقتل خلقا من أصحابه، وتعمد عدة مدائن من الجزيرة .

وأقام اسحاق بن مسلم العقيلى بسميساط سبعة أشهر، وأبو جعفر محاصر له، وقيل : لم يحاصره أبو جعفر، ولكن عبد الله بن على حاصره، وكان اسحاق يقول : في عنقى بيعة، فلا ادعها ابدا حتى اعلم أن صاحبها قد مات، أو قتل .

اليعقوبي : تاريخ 353/2

## 24 ـ استرضاء المنصور لجنود أبى مسلم

وقد كان أبو مسلم قبل دخوله على أبى جعفر قال لعيسى بن علي : «ادخل معى الى أمير المؤمنين، فانى أريد معاتبته في بعض الأمور.» فقال له عيسى : «تقدم فاني على اثرك.» فأقبل عيسى حتى دخل على أبي جعفر، فقال: « يا أميـر المؤمنين، أين أبو مسلم؟» قال أبو جعفر : « هاهو ذاك ملفوف في ذلك البساط.» قال عيسى: اقتلته؟ أنا لله. فكيف تصنع بجنوده؟ وهؤلاء قد جعلوه ربا.» فأمر أبو جعفر، فهيئت ألف صرة في كل صرة ثلاثة آلاف درهم. وأحس أصحاب ابى مسلم بالامر، فصلحوا وسلوا السيوف، فأمر أبو جعفر بتلك الصرر، فقذفت اليهم مع رأس ابى مسلم. وصعد عيسى بن على الى أعلى القصر وقال : « ياأهل خراسان، انما كان أبو مسلم عبدا من عبيد أمير المؤمنين، وجد عليه، فقتله، فليفرخ روعكـم ، فان أمير المؤمنين بالغ آمالكم.» فترجل القوم وتناولوا تلك الصرر، كل واحد صرة، وترك الرأس مقذوفا. ثم ان أبا جعفر وضع لأصحاب أبى مسلم العطاء، ووجه الأموال الى عسكر ابى مسلم حيث خلفه، فأسنى لهم العطاء، وكتب كتابا فقرئ عليهم، يبسط فيه آمالهم، واجزل صلات القواد والاشراف منهم فأرضاهم ذلك .

أبو حنيفة الدينورى : الأخبار الطوال ص 382

## 25 ـ المراسلة بين المنصوز والنفس الزكية

قالوا : لما بلغ أبا جعفر المنصور ظهور محمد بن عبد الله المدينة كتب الله:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين، الى محمد بن عبد الله : «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم

خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم» ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن اؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، واسوغك ما اصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف الف درهم، وما سألت من الحوائج، وانزلك من البلاد حيث شئت، وان أطلق من في حبسى من أهل بيتك، وان اؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لاأتبع احدا منهم بشيء كان منه ابدا. فان أردت ان تتوثق لنفسك، فوجه إلى من أحببت، يأخذ لك من الامان والعهد والميثاق ما تثق به .

وكتب على العنوان من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله فكتب إليه محمد بن عبد الله (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله الى عبد الله بن محمد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت على فإن الحق حقنا وانماادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضلنا وان أبانا عليا كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده احياه ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلامًا عنى ومن الازواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وانى أوسط بنى هاشم نسبًا وأصرحهم أبا لم تعرق في العجم ولم تنازع في أمهات الاولاد فمازال الله يختار لى الآباء والامهات في الجاهلية والاسلام

حتى اختار لى في النار فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذابًا في النار وأنا ابن خير الاخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك الله على ان دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالأمر منك واوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والامان ما أعطيته رجالا قبلى فأي الامانات تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم .

الطبرى : تاريخ 566/7

## 26 ـ دعوة العلويين في البلدان

وقد كان تفرق اخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى امامته، فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد الى مصر، فقتل بها، وسار (ابنه) عبد الله الى خراسان فهرب لما طلب إلى السند، فقتل هناك، وسار ابنه الحسن الى اليمن، فحبس فمات في الحبس، وسار أخوه موسى الى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى الى الري ثم الى طبرستان، فكان من خبره في أيام الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب، ومضى أخوه ادريس بن عبد الله الىالمغرب فأجابه خلق من الناس، وبعث المنصور من اغتاله (بالسم) فيما احتوى عليه من مدن المغرب، وقام ولده ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه، فعرف البلد بهم، فقيل : بلد ادريس بن ادريس، وقد اتينا على خبرهم عند ذكرنا لخبر عبيد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمهدية، وخبر ابى القاسم ابنه بعده، وانتقالهم من مدينة سلمية من أرض حمص الى المغرب ، في الكتاب الأوسط، ومضى ابراهيم اخوه الى البصرة وظهر بها، فأجابه أهل فارس والاهواز وغيرهما من الامصار وسار من البصرة ) في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب الى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيدين (على بن) الحسن بن على (بن الحسين بن على) بن أبي طالب رضى الله عنهم، فسير اليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن سلم في العساكر، فحارب حتى قتل في الموضع المعروف بباخمرى، وذلك على ستة عشر فرسخا من الكوفة من أرض الطف، وهو الموضع الذي ذكرته الشعراء ممن رثى ابراهيم. فممن ذكر ذلك دعبل بن على (الخزاعى، فقال) في قصيدة (له) أولها :

| | |
|---|---|
| مدارس آيـاتـ خلـتــ مـن تـلاوة | ومنزل وحـى مقـفـر الـعـرصـاتـ |

ومنها قوله فيهم :

| | |
|---|---|
| قبـور بكـوفـان وأخـرى بطـيـبـة | واخـرى بـفـخ يـا لـهـا صلـواتـ |
| واخرى بأرض الجـوزجـان مـحلـهـا | وقبر بباخمـرى لـدى الـغـربـاتـ |

وقتل معه من الزيدية من شيعته اربعمائة رجل، وقيل : خمسمائة (رجل)

المسعودى : مروج 307/3

## 27 ـ ثورة إبراهيم بن عبد الله العلوى

وزحف ابراهيم حتى صار الى قرية يقال لها باخمرا، وصار عيسى بن موسى الى قرية يقال لها سحـا ، وقـدم حميد بن قحطبة الطائى للقتال، والتحمت الحرب، وكانت أشد حرب ، والدائرة على عيسى بن موسى حتى شك الناس في علو ابراهيم وظفره، ثم أن سلم بن قتيبة الباهلى خرخ على اصحاب ابراهيم من ناحية بخيل، فتوهموا كمينا، فانهزموا، وبقي ابراهيم في اربعمائة من الزيدية يحارب أشد محاربة، وكان ابراهيم يدعو إلى أخيه محمد، فلما قتل محمد دعا الى نفسه .

وحدثني رجل من القحطانية قال : أخبرني .... قال : رأيت ابراهيم في اليوم الذي واقعه عيسى على بغلة دهماء، وسديف بن ميمون آخذ بثفر بغلته، وهو يقول :

| | |
|---|---|
| خذها ابـا اسـحـاقـ ملـيـتـهـا | في سيـرة تـرضـى وعمـر طـويلـ |

وظهر ابراهيم ظهورا شديدا حتى هزم العسكر مرة بعد أخرى، وزحف حتى قرب من الكوفة، وحتى دعا أبو جعفر بنجائبه ليصير إلى بغداد، وكان العلو في ابراهيم حتى انه لم يشك أنه يدخل الكوفة .

وكان أبو جعفر لاينام في تلك الليالي، وحمل إليه امرأتان، فاطمة بنت محمد الطلحية، وام الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن اسيد، فوجه بهما إلى بغداد ولم يكشف لهما كشفًا .

ولما ان هزم أصحاب ابراهيم قام يحارب أشد حرب في اربعمائة من أصحابه إلى أن قتل وأخذ رأسه، فوجه به الى أبى جعفر وهو بالكوفة .

اليعقوبي : تاريخ 378/2

## 28 ـ رأي المنصور في الخلاف مع العلويين

وذكر الفقيمى ان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن مولى محمد بن على حدثه، ان المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، صعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

يا أهل خراسان، انتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وأن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والله الذي لا اله الا هو والخلافة، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير، فقام فيها على بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين، فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم قام من بعده الحسن بن على ، فو الله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال، فقبلها، فدس اليه معاوية، انى اجعلك ولى عهدى من بعدى، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه، وسلمه اليه، فاقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه، ثم قام من بعده الحسين بن على، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتن، أهل هذه المدرة السوداء - وأشار الى الكوفة- فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسلمها، فرق الله بيني وبينها ،فخذلوه واسلموه حتى قتل. ثم قام من بعده زيد بن على ، فخدعه أهل الكوفة وغروه، فلما اخرجوه واظهروه اسلموه، وقد كان اتى محمد بن على ، فناشده في الخروج وسأله الا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وقال له : أنا نجد في بعض علمنا، أن بعض أهل بيتنا ، يصلب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل، واتم على خروجه، فقتل وصلب بالكناسة، ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان لهم ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، ومرة بالشراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا، وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحقكم اهل الباطل ، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقر الحق مقره، وأظهر مناره، واعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها، من فضل الله فيها

وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا، ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليكم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلا علـى وجبـنـا عـن عـدوهـم          لبئست الخلتـان الجهلـ والجـبـن

فانى والله ياأهل خراسان ما اتيت من هذا الأمر مااتيت بجهالة، بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان قم يافلان، فخذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى اتوهم بالمدينة، فدسوا اليهم تلك الأموال، فو الله مابقى منهم شيخ ولاشاب، ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة، استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج على ، فلا يرون انى اتيت ذلك على غير يقين. ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : «وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب».

الطبري : تاريخ 92/8

## 29 ـ سياسة العباسيين الدينية

وشخص مع المهدى في هذه السنة ابنه هارون وجماعة من أهل بيته، وكان ممن شخص معه يعقوب بن داود، على منزلته التي كانت له عنده، فأتاه حين وافى مكة الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن الذي استأمن له يعقوب من المهدى على امانه، فأحسن المهدى صلته وجائزته، واقطعه مالا من الصوافي بالحجاز.

وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها، وكساها كسوة جديدة، وذلك ان حجبه الكعبة ـ فيما ذكر ـ رفعوا اليه أنهم يخافون على الكعبة ان تهدم لكثرة ما طلى البيت كله بالخلوق، وذكر انهم لما بلغوا الى كسوة هشام وجودها ديباجا ثخينا عليها من الكسوة، فأمر ان يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة، ثم جيدا، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن.

وقسم المهدى في هذه السنة بمكة في أهلها ـ فيما ذكر ـ مالا عظيما، وفي أهل المدينة كذلك، فذكر انه نظر فيما قسم في تلك السفرة فوجد ثلاثين ألف ألف درهم، حملت معه، ووصلت اليه من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فقسم ذلك كله، وفرق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب ، ووسع

في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بنزع المقصورة التى في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فنزعت. واراد أن ينقص منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعيده الى ماكان عليه، ويلقى منه ما كان معاوية زاد فيه، فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك، فقيل له : ان المسامير قد سلكت في الخشب الذي احدثه معاوية، وفي الخشب الاول وهو عتيق، فلا نأمن أن خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسر، فتركه المهدى .

وأمر ايام مقامه بالمدينة باثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه حرسا له بالعراق وأنصارا. وأجرى عليهم ارزاقا سوى اعطياتهم. واقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم .

الطبرى : تاريخ 133/8

## 30 ـ وقـعـة فـــخ

وكان الهادى قد استوزر الربيع وضم إليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ثم (انه) ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل، وأفرد الربيع بالزمام، فمات الربيع في هذه السنة، وقيل : ان الهادى سقاه شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدى كانت قبل ذلك للربيع، وقيل غير ذلك .

وظهر في أيامه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو المقتول بفخ، وذلك على ستة أميال من مكة، يوم التروية وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بنى هاشم : منهم سليمان بن أبى جعفر، ومحمد ابن سليمان بن على ، وموسى بن عيسى، والعباس بن محمد بن على، في أربعة آلاف فارس، فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير، وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فأسر في هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبرا، وقتل معه عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن بن على، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن (بن الحسن بن علي) وضرب عنقه صبرا، وأخذ لعبد الله ابن الحسن بن على وللحسين بن على الامان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك، وقتلا بعد ذلك، فسخط الهادى على موسى بن عيسى لقتل الحسين ابن على (بن الحسن بن الحسن) وترك المصير به اليه ليحكم فيه بما يرى، وقبض أموال موسى، وأظهر الذين

أتوا بالرأس الاستبشار، فبكى الهادى وزجرهم، وقال اتيتمونى مستبشرين كأنكم اتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم، انه رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الا ان أقل جزائكم عندى لاثيبكم شيئاً .

المسعودى : مروج 336/3

## 31 ـ تضييق الهادى على الطالبيين

وارتحل من جرجان بعد ثلاثة أيام الى العراق، فنزل بعيسا باذ، وكان المهدي بنى هذا الموضع، فاستتمه موسى، وكان به منزله، وولى الغطريف بن عطاء خاله خراسان وأعمالها، فقدم خراسان وكانت هادئة الأمور ساكنة، والملوك في الطاعة، فظهر منه أمور قبيحة، وضعف شديد، فاضطربت البلاد، وتحرك جماعة من الطالبيين، وصاروا الى ملوك النواحي، فقبلوهم، ووعدوهم بالنصر والمعونة، وذلك ان موسى الح في طلب الطالبيين، وأخافهم خوفا شديدا، وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والاعطية، وكتب الى الآفاق في طلبهم وحملهم، فلما اشتد خوفهم، وكثر من يطلبهم، ويحث عليهم، عزم الشيعة وغيرهم الى الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن على، وكان له مذهب جميل وكمال ومجد، وقالوا له : أنت رجل أهل بيتك، وقد ترى ما انت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه، فقال لهم : ان الشعار بيننا أن ينادي رجل : من رأى الجمل الأحمر، فما وافاه الا أقل من خمسمائة، وكان ذلك في سنة 169 بعد انقضاء الموسم، فلقيه سليمان بن أبي جعفر، والعباس بن محمد بن على، وموسى بن عيسى بفخ، فانهزم ومن كان معه، وافترقوا، وقتل الحسين بن علي، وجماعة من أهله، وهرب خاله ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، بن علي، فصار الى المغرب، فغلب على ناحية تتاخم الاندلس، يقال لها فاس، فاجتمعت عليه كلمة أهلها.

فذكر أهل المغرب أن موسى وجه اليه من اغتاله بسم في مسواك فمات، وصار ادريس بن ادريس مكانه، وولده بها الى هذه الغاية يتوارثون تلك المملكة.

اليعقوبي : تاريخ 404/2

## 32 ـ من رسالة يحيى بن زياد في تقريظ الرشيد

... ثم ساس رعيته بألين سياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقب ، وأمن

خائفها ولو شاء لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافأ لقدر. فما برح صنع الله له يفض جموع الضلالة بلا قتال، ويعز له النصر بلا مكاثرة، حتى فرغ بشغله من كان لايفرغ من الوزراء، ونام بسهره من كان لاينام من العامة، واطمأنت بمناءاته للاسفار دار من كان لاينال الخفض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن، فكلهم ضنين بمفارقته، اما ذو النية، فركن الى النقض. وأما من لايبدله، ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجند والرعاع، فغلبت عليهم عادة الهوينا. حتى لو رأينا يجذبه الأمـر فما يجد له الأمر غناء عنده ولا نشاطًا ولا حدا ان وكله إلى قوته، وقواه بماله .

فلما رأى ما رأى من تخاذل العامة، وتوكل الجنود، ونزور الفيء،وجمودالحلب، واستكلاب العمال على الخيانة، وجرأة الرعية على منع الحق ، وماك الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فتحركت الأهواء، واستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياعهم بالأمانى، وظنوا أن لاشدة معه، وأن عفوه لانكير بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مصيخة، وقلب يقظان، وقد وقر الحلم أن يخف لأول بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمدبر أن يقبل، وبالمائد أن يعتدل وبالمغلوب على رأيه أن يتذكر فيبصر، شمر في اثرهم تشمير من قدم الروية قبل العجلة والعفو قبل العقوبة، والتثبت قبل الاقدام. فاتخذ روابط انتجها على الجلد والنشاط، ليست لهم سوابق تدعوهم الى الادلال وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه، انما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالغناء، ثم فرقهم على خواص خدمه. فاذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدوا غاط، أو راتق فتق قبل الساعة، يغمس يديه الى ايهم أراده، فينفذ لأمره ولم يشركه فيه مشير، ولم يخرج به توقيع ، ولم يخص فيه عامة، ولم يطلع منه على مكيدة. فلم نعلم أننا رأينا جندا اسرع نهضة اذا مروا، واحسن اجابة اذا دعوا، وأفضل غناء اذا استكفوا من جنده. ثم قصد بنفسه حتى مثل بين النواحى إلى أهمها له فسادا في البيضة، وانتقاصا من الأطراف. فأتى ناحية الشام، فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شتات الفرقة، واخمد بها بينهم نار الفتنة.

وأما الجزيرة فانه ألفاها وهى كالجرح النغل، فاستأصل الله به منها شأفة الداء، واطفأ به عنها بوادر السفهاء. وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلا جمع من بسطته في الموضع، ورفاهيته في المعاش . انه حامل للجنود، جامع للمرافق، فباشر أمره أمرا أمرا، حتى اذا استدبر له منها مبرم، استقبل بعده جسام منتقض، واذا اشحن من ثغوره ثغرا لم يرض حتى يفتتح من حصون اعدائه حصنًا، واذا قضى

الله عنه حجة، وصل خطوه منها عزا. ثم رأينا ماعزم الله به عليه من ترك الصوائف، مراقبا للذى كان من غموط أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة، فلم نتشكك في انه توفيق من الله له وافق سخطا عليهم حتى استباحوا الحرم وتسافكوا الدماء، ونقضر ما بينهم من مبرم حبل الاسلام .

ومن ذلك أن ارمينية كانت فيها جنود تخرج عليهم اطماع تحمل إليها، بعد اعترافهم باخراج الأموال من كور الشام. فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا. فلم يتوكل على الله في آمر فوكله الى نفسه، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية ثغر الا كفاه مؤونته، وعلم أن مايدخل منن اضعاف العافية من عوارض العلل . انما هو بتقدير من الله لايمتنع بعذر، ولا يستطاع دفعه بحيلة، يصيب فيه أقواما بالبلايا والتمحيص ، ويقسم فيه لاقوام الاجر والجهاد والسعادة. فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل ارمينية من ضرر مؤونتهم وغمطهم نفعا للرعية واجمالا للفيء ، ورفقا بالعامة مع اقتصاده في الأبواب على اكناف سجيتها، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها. ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونة ذلك الثغر ويكف عنه بوائقه، حتى كأنه في هدوء الاحداث عنه، وسكون الافئدة من روعاته، مصر من الامصار ، واسط المحلة، مأمون النائرة. فلما اغتنم خافان ما اغتنم، وانتهز الفرصة مبادرا، لما قد أيقن من معالجة المؤمنين اياه، فكأنه حين بلغه ذلك من اعظامه اياه بسببه له، وما انصب فيه من بدنه، وأسهر فيه من ليله، وانضب فيه من نهاره، لم يعلم الذي يكون من اشتباهه في الأزمنة الماضية قبله، وانه بذلك لجد عالم. غير أن حميته للاسلام وشفقته عليه وامتعاضه من أن يتناول شيء من أطرافه، قد زاد ذلك عنده قدرا في العظم، وتفاقما في الخطب، حتى أكمل البعث بأكثر العدد وأكمل العدة، واستنقل أهل الكور والامصار وندب له من أهل بيته من لم يترك بعده نهاية في التخير، وكان قد صرف باله الى هذين الثغرين من الخزر والروم، والى هذين العدوين المحاربين له من المارقة المتعصبة .

فلما بلغ الله في احكام أمرهما ما بلغ، لم يستغن عن اعادة النظر في أمر غيرهما من نواحيه ليستبرئ به، وارادته في أقوام يدافع ظنونهم به في أخرى ، وعلم غيرهما ان ماشمل من بمدينة السلام من الأمن والفراغ نتيجة مكروهة، فشخص عنها لتحقيق ذلك مؤثرا لابغض وطنيه على احبهما واخشن عيشيه على ألينهما. فلما ظهرت له العورة أقدم اقدام ذى الحجة، فلم ير مثلها نار خبت وسحابة اقشعت ، لم يسفك بها دم امرئ مسلم صبرا، ولم ينتهك فيها حرمة محرم اباحة. وذلك انه

بسط يده بسط من يريد الاستصلاح لا من يريد الانتقام. فلم يلبث الظالع أن رجع عن ظلعه، والناطق أن صمت عن بدعته، والناكث أن رجع إلى قصده. وازداد البريء على البراءة فرحا، والسالم بالسلامة اغتباطا. ولم نر مثله فيما أفضى الله به اليه من خلافته .وحمله من امور عباده : اما ليله بمناجاة ربه فيها واستعانته اياه عليها فساهر، وأما نهاره في حلب فيئها واحكام أمورها فتعب ، وأما صدقاته على فقرائها وأهل الحاجة فجارية، وأما مجلسه من فقهائها وصلحائها فغاص، واما غلظته على ظالمها فعتيدة، وأما أفضاله لمظلومها فمبسوطة .

ابن طيفور: اختيار المنظوم والمنثور
نقلا عن كتاب عصر المأمون
للدكتور الرفاعى ج 2 ص 239

## 33 ـ حيرة الرشيد في اختيار ولي العهد

قال الاصمعى : «بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا، فكان يقعد مرة ويضطجع مرة .. ثم قال لمسرور الخادم : على بيجيى. فما لبث ان أتاه. فقال : يا أبا الفضل، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والاسلام جدع، والايمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف، وأعزها بعد الذل، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر وكان من خبره ماقد علمت، وأن أبا بكر صير الامر الى عمر، فسلمت الامة له ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها. وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله. وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يداه، ومشاركة النساء والاماء في رأيه. وعبد الله المرضى الطريقة، الاصيل الرأي، الموثوق به في الأمر العظيم. فان ملت إلى عبد الله اسخطت بنى هاشم، وان افردت محمدا بالامر لم آمن تخليطه على الرعية، فأشر على في هذا الامر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر».

المسعودى : مروج الذهب 3 ص / 262

## 34 ـ من كتاب الرشيد الى العمال بشأن اسناد ولاية العهد الى الأمين والمأمون

.... ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الامة على عقد العهد لمحمد بن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله بن أمير المؤمنين من بعد محمد بن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية، والجمع للكلمة، واللم للشعث، والدفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد اعداء النعم من أهل الكفر والنفاق. والغل والشقاق، والقطع لأمالهم من كل فرصة يرجون ادراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على مافيه الخيرة لهما، ولجميع الامة والقوة في أمر الله وحقه، وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد اعداء النعم، ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما ، فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والانفاذ لامره. واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشد المواثيق والعهود واغلظ الايمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع الفتهما ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لانفسهما، ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا، وقطع طمع عدو مظهر للعداوة ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الاهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس يدحس به لهما، وما يلتمس اعداء الله وأعداء النعم واعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء الى البدع والضلالة، نظرا من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصحة لله ولجميع المسلمين، وذبا عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذى حمله اياه، والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك وما نظر فيه لهما، فقبلا كل ما دعاهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله، وكتبا لأمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط ايديهما بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده، وصحابته وقضاته، وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابين استودعهما

أمير المؤمنين الحجبة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة. فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الامصار، ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه الى اخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك ، وقرئ عليهم الشرطان جميعا في المسجد الحرام. فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم، واثبتوا الشهادة عليه وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم، وحقن دمائهم ولم شعثهم، واطفاء جمرة اعداء الله أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم. واظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك .

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنين أبناه محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذا. فاحمد الله عز وجل على ماصنع لمحمد وعبد الله وليى عهد المسلمين حمدا كثيرا، واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليى عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين وافهمهم اياه، وقم به بينهم واثبته في الديوان قبلك، وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، ان شاء الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحول والقوة والطول. كتبه اسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة .

الطبرى 284/8

## 35 ــ تغير الرشيد على البرامكة

قال : نادم الفضل بن الربيع الرشيد، وخص به. فقال لجعفر قلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها، ويستعين به على خدمتى، فقال له جعفر ، بسلاسة خلقه اختر. فقال الموصل وديار ربيعة، فأمر أن تكتب كتبه عليها، وراح بها الى أبيه، فلما عرضها عليه، وعرفه حال الفضل وخصوصيته، غضب يحيى وقال : هذه ناحية الى أخيك، وقد صرفناه عن ارمينية وتصرفه عن هذه ! وكان ولى خراج ارمينية وحربها وصرف عنها. فقال : ماكنت لأفعل ! فقال فالموصل فقال لا والله، فكره جعفر اغضاب ابيه، ودافع الفضل، وقرب عليه المواعيد وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء

يطلقونه له من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، فعزم على القصد. فقال لجعفر : يأخي انا على القصد، وأريد التشاغل بالنساء، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن؟ قال : ماشاء أمير المؤمنين، قال عشرة آلاف درهم، قال وأين المال؟ ولكن خمسة آلاف درهم، قال فهاتها، فبعث بها اليه، ثم قال لجلسائه وقد افتصد أي شيء تهدون الى ؟ فقال كل واحد منهم قد اعددت كذا وكذا، واحتال الفضل بن الربيع في التخلص الى منزله، فرهن حقه من قطيعة الربيع، وهو العشر، على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى الحـري ، فـقـال اني أريد أن أهديها الى الخليفة، فصيرها جددا ضربا، في عشرين بدرة ديباج، مختمة بفضة، وكان عون يحفظ للربيع يدا ، فقال للفضل اطابت نفسك عن جميع نعمتك في هدية اليوم؟ فاعلمه ان له عند الرشيد مواعيد، فقال له عون فان عندى خادمين مسلولين روميين. أحدهما ناقد، والآخر وزان، جميلى الصورة ،مراهقين وقد وهبتهما لك واحـضر تابــوت آبنوس محلى بالفضة، فصير البدور فيه مع الطيارات والموازين والصنجات وأقفله بقفل فضة، وغشاه بديباج، وكسا الغلامين الديباج، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله الى دار الندماء، فلما ثنى الرشيد الدم قال اعرضوا على هداياكم، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى من فاكهة ومشام، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم. فقال للفضل بن الربيع اين هديتك يا عباس ؟ وبذلك كان يدعوه. قال احضرها يا أمير المؤمنين، فقال تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهمًا، فقال للفراشين احملوها، فحملوها شيئًا راع الرشيد لما رآه. وكشفوا عن التابوت فاستحسنه .

ثم حضر الغلامان. ففتح احدهما القفل. فاخرج الموازين والاوزان. واخرج الآخر البدور. ففتح بدرة. واستوفى وزنها وختمها. ولم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة الهدية واستطير فرحا وأمر بحمل المال وادخال الغلامين الى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به. وقال للفضل ويلك ياعباسي! من أين لك هذا ؟ قال سيعرفه أمير المؤمنين. قال لتقولن: قال بعت حقى من قطيعة الربيع لاسرك، لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم. قال والله لأسرنك. وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه الى أبيه. فحدثه الحديث. فكتب كتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر وختمها، وبعث بها اليه فردها. وقال : لا حاجة بي اليها، ولم يزل يحمل الرشيد عليهم، حتى أوقع بهم.

الجهشاري : كتاب الوزراء ص 200

## 36 ـ نكبة البرامكة

قال : وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه، ومن كان منهم بسبيل ، فلم يفلت منهم أحد كان حاضرا، وحول الفضل بن يحيى ليلا فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى ابن خالد في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج الى مدينة السلام أو إلى غيرها ، ووجه من ليلته رجاء الخادم الى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم. وولاه أمورهم وفرق الكتب من ليلته الى جميع العمال في نواحى البلدان والاعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفتاني وهرثمة بن أعين وابراهيم بن حميد المرورودى، واتبعهم عدة من خدمه وثقاته، منهم مسرور الخادم الى منزل جعفر بن يحيى . وابراهيم بن حميد وحسين الخادم الى منزل الفضل بن يحيى ، ويحيى بن عبد الرحمن ورشيد الخادم الى منزل يحيى ومحمد بن يحيى ، وجعل معه هرثمة ابن أعين، وأمر بقبض جميع مالهم، وكتب الى السندى الحرشي بتوجيه جيفة جعفر الى مدينة السلام، ونصب رأسه على الجسر الاوسط وقطع جثته، وصلب كل قطعة منها على الجسر الاعلى والجسر الأسفل. ففعل السندى ذلك ، وأمضى الخدم ما كانوا وجهوا فيه، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الاصاغر الى الرشيد، فأمر باطلاقهم، وأمر بالنداء في جميع البرامكة : ألا أمان لمن آواهم الا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه، فانه استثناهم، لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. وخلى سبيل يحيى قبل شخوصه من العمر، ووكل بالفضل ومحمد وموسى بنى يحيى ، وبأبي المهدى صهرهم حفظة من قبل هرثمة ابن أعين، الى أن وافى بهم الرقة، فأمر الرشيد بقتل انس بن أبي شيخ يوم قدم الرقة، وتولى قتله ابراهيم بن عثمان بن نهيك. ثم صلب.وحبس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دير القائم، وجعل عليهم حفظة من قبل مسرور الخادم وهرثمة ابن أعين، ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم، ولا ما يحتاجون إليه. وصيرهم معهم زبيدة بنت منير ام الفضل ودنانير جارية يحيى وعدة من خدمهم وجواريهم. ولم تزل حالهم سهلة الى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعمهم بالتثقيف بسخطه، وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد، فضيق عليهم .

الطبرى 296/8

## 37 ـ تقرير مرفوع الى الرشيد عن الحالة في خراسان
## (كتاب هرثمة الى الرشيد في أمر علي بن عيسى)

ولما حمل هرثمة عليا إلى الرشيد، كتب إليه كتاباً يخبره ماصنع، نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فان الله عز وجل لم يزل يبلى أمير المؤمنين في كل ما قلده من خلافته، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجمل البلاء واكمله، ويعرفه في كل ما حضره ونأى عنه من خاص أموره وعامها، ولطيفها وجليلها إتم الكفاية وأحسن الولاية، ويعطيه في ذلك كله أفضل الامنية، ويبلغه فيه أقصى غاية الهمة، امتنانا منه عليه، وحفظا لما جعل اليه، مما تكفل باعزازه واعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته، فيستتم الله احسن ماعوده وعودنا من الكفاية في كل ما يؤدينا اليه، ونسأله توفيقا لما نقضى به المفترض من حقه في الوقوف عند امره، والاقتصار على رأيه

ولم أزل أعز الله أمير المؤمنين، مذ فصلت عن معسكر أمير المؤمنين ممتثلا ما أمرنى به فيما انهضني له، لاأجاوز ذلك ولا اتعداه الى غيره، ولا أتعرف اليمن والبركة الا في امتثاله، الى أن حللت أوائل خراسان، صائنا للامر الذي أمرنى أمير المؤمنين بصيانته وستره، لاأفضى ذلك الى خاصى ولا إلى عامي ، ودبرت في مكاتبة أهل الشاش وفرغانة وخزلهما، عن الخائن، وقطع طمعه وطمع من قبله عنهما، ومكاتبة من ببلخ بما كنت كتبت به الى أمير المؤمنين وفسرت له، فلما نزلت نيسابور عملت في أمر الكور التي اجتزت عليها بتولية من وليت عليها، قبل مجاوزتي اياها، كجرجان ونيسابور ونسا وسرخس، ولم آل الاحتياط في ذلك ، واختيار الكفاة وأهل الامانة والصحة من ثقات اصحابي ، وتقدمت إليهم في ستر الأمر وكتمانه، وأخذت عليهم بذلك إيمان البيعة، ودفعت إلى كل رجل منهم عهده بولايته، وأمرتهم بالمسير إلى كور اعمالهم على اخفى الحالات واسترها، والتشبه بالمجتازين في ورودهم الكور ومقامهم بها إلى الوقت الذي سميت لهم، وهو اليوم الذي قدرت فيه دخولى إلى مرو، والتقائي وعلى بن عيسى ، وعملت في استكفائي اسماعيل بن حفص بن مصعب أمر جرجان بما كنت كتبت به الى أمير المؤمنين، فنفذ أولئك العمال لأمرى، وقام كل رجل منهم في الوقت الذي وقت له بضبط عمله وأحكام ناحيته، وكفى الله أمير المؤمنين المؤونة في ذلك . بلطيف صنعه .

ولما صرت من مدينة مرو على منزل، اخترت عـدة من ثـقاب أصحابي،

وكتبت بتسمية ولد على بن عيسى وكتابه وأهل بيته وغيرهـــم رقـاعًا، ودفعت
الى كل رجل منهم رقعة بإسم من وكلته بحفظه في دخولى ، ولم آمن لو قصرت في
ذلك واخرته أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره الى التغيب والانتشار ، فعملوا
بذلك ، ورحلت عن موضعى الى مدينة مرو، فلما صرت منها على ميلين تلقاني على
ابن عيسى في ولده وأهل بيته وقواده، فلقيته بأحسن لقاء، وآنسته، وبلغت من
توقيره وتعظيمه والتماس النزول إليه أول ما بصرت به ما ازداد به انسا وثقة، الى ما
كان ركن اليه قبل ذلك، مما كان يأتيه من كتبي ، فانها لم تنقطع عنه بالتعظيم
والاجلال منى له والالتماس لالقاء سوء الظن عنه، لئلا يسبق الى قلبه أمر ينتقض به
مادبر أمير المؤمنين في أمره، وأمرني به في ذلك. وكان الله تبارك وتعالى هو
المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمر فيه الى أن ضمنى واياه مجلسه. وصرت إلى الاكل
معه، فلما فرغنا من ذلك بدأنى يسألنى المصيـر الى منـزل كان ارتاده لي،
فاعلمته ما معى من الأمور التى لاتحتمل تاخير المناظرة فيها. ثم دفع إليه رجاء
الخادم كتاب أمير المؤمنين وأبلغه رسالته، فعلم عند ذلك ان قد حل به الامر الذي
جناه على نفسه، وكسبته يداه، من سخط أمير المؤمنين، وتغير رأيه بخلافة امره
وتعدية سيرته .

ثم صرت إلى التوكيل به، ومضيت إلى المسجد الجامع، فبسطت آمال الناس
ممن حضر، وافتتحت القول بما حملني أمير المؤمنين اليهم، وأعلمتهم اعظام المؤمنين
ماأتاه، ووضح عنده من سوء سيرة على ، وما أمرنى به فيه وفي عماله وأعوانه، وانى
بالغ من ذلك ومن انصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم. وأمرت
بقراءة عهدى عليهم، واعلمتهم أن ذلك مثالى وأمامي ، وأنى به اقتدى، وعليه
احتذى، فمتى زلت عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمت نفسي ، وأحللت بها ما يحل
بمن خالف رأي أمير المؤمنين وأمره، فأظهروا السرور بذلك والاستبشار، وعلت بالتكبير
والتهليل أصواتهم، وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء .

ثم انكفأت إلى المجلس الذي على بن عيسى فيه، فصرت إلى تقييده وتقييد
ولده وأهل بيته وكتابه وعماله والاستيثاق منهم جميعًا، وأمرتهم بالخروج إلى من
الأموال التي احتجنوها من أموال أمير المؤمنين وفيء المسلمين، وأعفائى بذلك من
الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، وناديت في أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان
عندهم. فحملوا إلي الى آن كتبت الى أمير المؤمنين صدرا صالحا من الورق والعين
وارجو أن يعين الله على استيفاء ما قبلهم. واستنظاف ما وراء ظهورهم. ويسهل الله

من ذلك أفضل ما لم يزل يعوده أمير المؤمنين من الصنع في مثله من الأمور التي يعنى بها ان شاء الله تعالى.

ولم ادع عند قدومي مرو التقدم في توجيه الرسل وانفاذ الكتب البالغة في الاعذار والانذار، والتبصير والارشاد، الى رافع ومن قبله من أهل سمرقند، والى من ببلخ، على حسن ظني بهم في الاجابة، ولزوم الطاعة والاستقامة، ومهما تنصرف به رسلي إلى يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في اجابتهم وامتناعهم، أعمل على حسبه من أمرهم، وأكتب بذلك الى أمير المؤمنين على حقه وصدقه. وأرجو أن يعرف الله أمير المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفايته، مالم تزل عادته جارية به عنده، بمنه وطوله وقوته والسلام.

الطبري : تاريخ 332/8

## 38 ـ مـوت الـرشيـد

ولما صار الرشيد بطوس، واشتدت علته، اتصل خبره بمحمد الأمين فوجه بكر بن المعتمر، وجعل له في كل يوم ألف دينار، ودفع اليه كتبا الى الفضل بن الربيع واسماعيل بن صبيح وغيرهما، يأمرهم بالقفول الى مدينة السلام أن حدثت بالرشيد حادثة، وكان الرشيد قد جدد الشهادة للمأمون بجميع ما في عسكره، من مال وأثاث ورقيق وكراع، وأمر بإقرار الجميع معه وتسليمه اليه، أن حدثت به حادثة. فلما ورد بكر بن المعتمر عسكر الرشيد، وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته، وكتب باطنة الى القول بالقفول، والاجتياط على ما في العسكر، واتصل خبر الكتب الباطنة بالرشيد، وأمر باحضاره ومطالبته بالكتب، فجحدها.

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، فحدثني محمد بن منصور بن زيان قال : حدثني أبي، قال : كنت مع الرشيد بطوس في علته التي مات فيها، وقد ورد بكر بن المعتمر بالكتب، والمأمون حينئذ بمرو، وقد ظفر بأخي رافع بن الليث، وأحضر في ذلك اليوم ومعه قرابة له فحبسا، فخلع الرشيد على بكر، وصرفه الى منزله، ثم أمر باحضاره ومطالبته بالكتب، فجحدها ، ودافع عنها، فأمر بحبسه. قال ثم جلس الرشيد جلوسا عاما في مضرب خز أسود، استدارته اربعمائة دراع، وفي اركانه أربع قبات مغشاة بخز اسود، وهو جالس في فازة، خز سوداء. في وسط المضرب، والعمد كلها سود، وعليه جبة سوداء خز بغير قميص. وعليها فنك قد استشعره، لشدة ما هو فيه

من البرد والعلة، وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك. وعلى رأسه قلنسوة طويلة. وعمامة خزا أسود، والوسائد والمخاد وسائر ما يقرب منه خز أسود، وهو لمابه، وخلف المسند خادم يمسكه بيده، لئلا يميل. والفضل بن الربيع جالس بين يديه، فقال للفضل مر بكرا باحضار ما معه من الكتب السرية، فأنكرها وقال ما معي الا الكتب التي أوصلتها، فقال الرشيد للفضل : توعده . واعلمه أنه ان لم يفعل بلغت منه غاية المكروه، فأقام بكر على الانكار و الجحـــود . فسمعته يقول للخادم بصوت خفي : قل للفضل : قنبوه ، فنحى بكر، وجيء بالقنب، فقنب من قرنه الى قدمه، قال بكر فأيقنت بالموت. ويئست من نفسي، وعملت على الاقرار، فاني على ذلك حتى أمر باحضار مروان اخي رافع، وقرابته والذي كان معه. فأحضر، فقال له الرشيد : ايتوهم رافع انه يغْلبني، والله الذي لا اله الا هو، لو كان معه عدد نجوم السماء. لتلقطتهم واحدا واحدا حتى اقتلهم وعن آخرهم ، فقال مروان : الله الله في يا أمير المؤمنين. فان الله يعلم وأهل خراسان جميعا اني مازلت بريئا من أخي. ومما هو عليه منذ عشرين سنة، واني لاشير عليه بلزوم الطاعة، وترك ما هو بسبيله، فلا يقبل وانني لملازم لمسجدي وصلاتي ومنزلي، فاتق الله في . وفي هذا الرجل ، فقال له قرابته قطع الله لسانك ! أنا والله منذ كذا وكذا ندعو بالشهادة، فلما رزقناها على يدي شر خلقه، اخذت في الاعتذار ! فاغتاظ الرشيد من ذلك وقال : على بجزارين. فقال له قرابة مروان : افعل ما شئت ، فأنا نرجو ان يرزق الله الشهادة، ونقف نحن وانت بين يدي الله عز وجل في أقرب مدة فتعلم كيف يكون حالك، فنحيا، وأمر القوم بتفصيلهم عضوا عضوا، فوالله ما فرغ منهما حتى توفي الرشيد.

قال بكر : فأنا أتوقع خروج نفسي، حتى أتاني غلام لأبي العتاهية قد بعث به إلي مولاه، وكتب في راحته شيئا، فقرأته، فاذا هو :

| | |
|---|---|
| هي الأيـــــام والـــــغـــــيـــــر | وأمـــر اللـــه يـــنـــتظـــر |
| اتياس ان تـــرى فـــرجـــا | فأين اللـــــه والـــــقـــــدر |

فوثقت بالله عز وجل، ولم أفهم معناه. ثم سمعت ناعية، واذا بالفضل بن الربيع قد أقبل يريدنى ، فلما قرب منى قال حلو عن أبي خليدة، فقلت، ليس هذا وقتا تكنينى فيه، فدعا بخلع. فخلعت على ، ثم قال لي. اعظم الله اجرك في أمير المؤمنين، وأخذ بيدى ، فأدخلني بيتا وهو مسجى فيه، وكشف عن وجهه، فلما رأيته ميتا، قال لى هات الكتب التي معك، فاحضرت صندوقا للمطبخ، قد نقيت قوائمه. وجعلت الكتب فيها، وجعل الجلد فوقها .

الجهشياري : كتاب الوزراء ص 220

## 39 ـ الأمين يستعد لخلع المأمون

قال عبيد الله بن الحسن بن سهل سمعت أبي يقول :

لما انتهى الى الفضل بن سهل خبر على بن عيسى، وخروجه من العراق، أمر القواد كلهم بجمع أولادهم، فأتى الحسين بن مصعب بطاهر، فلما رأى طاهرا اعرض عن غيره، وكان أعور كريه الوجه مشمرا، وجعل يقول: هو هو، ثم عقد له على الرى، فرمى الحسين بن مصعب نفسه بين يديه، واستعفاه من انفاذه، وقال له : انى لم أقل هذا اشفاقا عليه، ولكن خوفًا من أن يحدث عليك حادثة يعسر تلافيها، فوالله لقد كنت أراه في ولاية على بن عيسى خراسان، وانه ليقف بين يديه في جملة خلق كثير، وفرائصه ترعد منه، ولعله أن ينظر اليه بتلك العين .

فقال له الفضل بن سهل : أمسك فقد عقدت له عقدا لا ينتقض نيفا وستين سنة.

ولما عزم محمد على مكاتبة المأمون بأن ينزل له عن بعض أعماله، تقدم الى اسماعيل بن صبيح أن يكتب اليه في ذلك ، فقال : يأأمير المؤمنين أن مسألتك له الصفح عن بعض ما في يديه توكيد للظن، وتقوية للتهمة، ومدعاة للحذر ولكن تكتب اليه، وتعرفه حاجتك اليه، وشوقك إلى قربه، وايثارك الاستعانة برأيه ومشورته، وتسأله القدوم عليك، فان ذلك أحرى أن لايوحشه فقال : أكتب بذلك، فكتب به، فلم يلتفت اليه المأمون، ولا اجابه عنه .

ثم ألح الفضل بن الربيع على محمد في خلع المأمون، وقوى عزمه فيه، وأعانه عليه على بن عيسى، فبايع لابنه بالعهد بعده، وسماه «الناطق بالحق»، وخلع المأمون والقاسم، وكتب الفضل بن الربيع عنه بذلك ، وبالنهى عن الدعاء لهما على المنابر، وأحضر عبد الله بن محمد أخذ الحجبة، وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما في بيت الله الحرام بالبيعة، ففعل ذلك وسرقهما وصار بهما إليه، فدفعهما الفضل إلى محمد فمزقهما .

وسارت الركبان في الآفاق بغدر محمد، وبحسن سيرة المأمون، فاستوحش الناس منه، وانحرفوا عنه، وسكنوا الى المأمون، ومالوا إليه .

وكان محمد لما اجمع على خلع المأمون شاور يحيى بن سليمان في ذلك، فقال له وكيف بذلك يا أمير المؤمنين مع ما وكده الرشيد من بيعته، وتوثق في عهده عند خاصته وعامته؟ فقال له محمد ان ذلك كان فلتة وخطأ من رأى الرشيد، شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسحره، فغرس لنا غرس مكروه، لاينفعنا ما نحن فيه الا بقطعه، وانت رجل مهذار، ولست بذى رأى مصيب : والرأي الى الشيخ الموفق،

والوزير الناصح. قم فالحق بمدادك وأقلامك، يعنى محمد بهذا القول الفضل بن الربيع .

الجهشيارى : كتاب الوزراء ص 238

## 40 ـ المأمون يرفض التنازل للأمين

فأول ما بدا به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبر من ذلك، ان كتب الى جميع العمال في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد، فذكر الفضل بن اسحاق بن سليمان أن المأمون لما بلغه ما أمر محمد من الدعاء لابنه موسى وعزله القاسم عما كان الرشيد ضم اليه من الأعمال واقدامه اياه مدينة السلام، علم انه يدبر عليه في خلعه، فقطع البريد عن محمد، وأسقط اسمه من الطرز (والضرب) .

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار لما انتهى من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله واحسانه اليهم، بعث في طلب الامان لنفسه، فسارع الى ذلك هرثمة وخرج رافع فلحق بالمأمون، وهثمه بعد مقيم بسمرقند فأكرم المأمون رافعًا. وكان مع هرثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين، فلما دخل رافع في الأمان، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلخ بعسكره والنهر جامد، فتلقاه الناس، وولاه المأمون الحرس. فأنكر ذلك كله محمد، فبدأ بالتدبير على المأمون، فكان من التدبير انه كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ـ وهو عامل المأمون على الري ـ وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري ـ مريدا بذلك امتحانه ـ فبعث إليه ما أمره به، وكتم المأمون وذا الرياستين. فبلغ ذلك من أمره المأمون، فوجه الحسن بن على المأمونى وأردفه بالرستمى على البريد، وعزل العباس بن عبد الله بن مالك، فذكر عن الرستمى انه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الري .

ووجه محمد الى المأمون ثلاثة أنفس رسلا: أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، والآخر صالح صاحب المصلى ، والثالث محمد بن عيسى بن نهيك، وكتب معهم كتابًا الى صاحب الري، ان استقبلهم بالعدة والسلاح الظاهر. وكتب الى والى قومس، ونيسابور وسرخس بمثل ذلك ، ففعلوا. ثم وردت الرسل مرو، وقد اعد لهم من السلاح وضروب العدد والعتاد. ثم صاروا الى المأمون، فأبلغوه رسالة محمد بمسألته تقديم موسى على نفسه، ويذكر له انه سماه الناطق بالحق، وكان الذي

أشار عليه بذلك على بن عيسى بن ماهان، وكان يخبره أن أهل خراسان يطيعونه، فرد المأمون ذلك وأباه .

قال : فقال لى ذو الرئاستين : قال العباس بن موسى بن عيسى بن موسى : وما عليك أيها الأمير من ذلك، فهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع فما ضره ذلك ، قال : فصحت به : اسكت، فان جدك كان في ايديهم أسيرا، وهذا بين اخواله وشيعته. قال: فانصرفوا، وأنزل كل واحد منهم منزلا. قال ذو الرياستين : فأعجبنى ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى ، فخلوت به فقلت : أيذهب عليك في فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من الامام - وسمى المأمون في ذلك اليوم بالامام ولم يسم بالخلافة، وكان سبب ما سمى به الامام ما جاء من خلع محمد له، وقد كان محمد قال للذين ارسلهم: قد تسمى المأمون بالامام، فقال لي العباس : قد سميتموه الامام ! قال : قلت له : قد يكون أمام المسجد والقبيلة، فان وفيتم لم يضركم، وان غدرتم فهو ذاك. قال:ثم قلت للعباس : لك عندى ولاية الموسم، ولا ولاية اشرف منها، ولك من مواضع الاعمال بمصر ماشئت قال : فما برح حتى اخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة، فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالاخبار، ويشير علينا بالرأي .

الطبرى 375/8

## 41 - المامون يحدد سياسته

ولما اجمع المأمون على المقام بخراسان، قال له الفضل بن سهل : ان هؤلاء الرؤساء كعبد الله بن مالك ويحيى بن معاد وغيرهما انفع لك منى، لما قد شهر وتقدم من رياستهم، وما عندهم من القوة على الحرب، فدعنى اكن خادما لك، حتى تصير إلى محبتك، وتجعل إليهم ظاهر الامر، فقال له افعل ما رأيت، فلقيهم الفضل بن سهل في منازلهم، وذكرهم البيعة، وما يجب عليهم من الوفاء بها. قال : فكنت كأنى آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها. فيذفعنى بعضهم، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟ فعرف المأمون ذلك، فقال له فقم أنت بالامر، فقال له الفضل : قد قرأت القرآن، وفهمت أمر الدين، والرأى أن تجمع الفقهاء، وتدعوهم إلى الحق، والعمل به، واحياء السنة، وأن تقعد على اللبود، وأن تواصل النظر في المظالم، وتكرم القواد والملوك، وأبناء الملوك ففعل ذلك .

وكان يقول للتميمى : نقيمك مقام موسى بن كعب، ويقول للربعى : نقيمك

مقام أبى داود : ويقول لليمانى نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم، وحط عن خراسان ربع الخراج، فكانوا يقولون : ابن اختنا وابن عم رسول الله .

ولما رأى رافع بن الليث سيرة المأمون انقاد له . ودخل في طاعته، في سنة أربع وتسعين ومائة، فأعطاه الأمان، فصار إليه، فأكرمه، وخص به .

ولما خص الفضل بن سهل بالمأمون، وتبين نجابته، ودلته النجوم على أنه يلى الخلافة، طالبه بأن يكتب له رقعة بخطه، فكتب له رقعة نسختها :

جعلت الله على نفسى أن استرعانى أمور المؤمنين، وقلدنى خلافته في خلقه، العمل فيهم بكتابه وسنة رسوله، محمد صلى الله عليه، ولا أسفك دما عمدا الا ما أحلته حدوده، وسفكته فروضه، وان لا أنال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا، غصبا ولا بحيلة تحرم على المسلمين، ولا أعمل في شيء من الاحكام بهواى ولا بغضبي، الا ما كان منهما في الله عز وجل وله، وجعلت ذلك كله عهدا مؤكدا على أن افى به، رغبة في زيادته اياى، ورهبة من مساءلته لى عنه فانه جل وعز يقول : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا» فان حلت أو غيرت كنت للعن مستحقا، وللنكال متعرضا، وأعوذ بالله من سخطه، وأرغب اليه في المعونة لى على طاعته، والحؤول بينى وبين معصيته، في عافية لى ولجماعة المسلمين، وان يسهل لي ما يجب ويرضى في جميع أمورى، انه قريب مجيب، وعلى ما يشاء قدير وكتبت بخطى .

الجهشيارى : كتاب الوزراء ص 225

## 42 ـ الخلاف في معسكر الأمين

وفي هذه السنة خلع محمد بن هارون، وأخذت عليه البيعة لأخيه عبد الله المأمون ببغداد .

وفيها حبس محمد بن هارون في قصر أبى جعفر مع أم جعفر بنت جعفر ابن أبى جعفر .

ذكر الخبر عن سبب خلعه :

ذكر عن داود بن سليمان أن عبد الملك بن صالح لما توفى بالرقة، نادى الحسين بن على بن عيسى بن ماهان في الجند، فصير الرجالة في السفن والفرسان على الظهر ووصلهم. وقوى ضعفاءهم، ثم حملهم حتى اخرجهم من بلاد الجزيرة، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة .

وذكر احمد بن عبد الله، انه كان فيمن شهد مع عبد الملك الجزيرة لما انصرف بهم الحسين بن على ، وذلك في رجب من سنة ست وتسعين ومائة. وذكر انه تلقاه الابناء وأهل بغداد بالتكرمة والتعظيم، وضربوا له القباب، واستقبله القواد والرؤساء والاشراف، ودخل منزله في أفضل كرامة وأحسن هيئة، فلما كان في جوف الليل بعث اليه محمد يأمره بالركوب اليه، فقال للرسول : والله ما أنا بمغن ولا بمسامر ولا مضحك ولا وليت له عملا، ولا جرى له على يدى مال ، فلأى شيء يريدنى في هذه الساعة ! انصرف ، فاذا اصبحت غدوت اليه ان شاء الله .

فانصرف الرسول ، وأصبح الحسين فوافى باب الجسر، واجتمع اليه الناس، فأمر باغلاق الباب الذي يخرج منه إلى قصر عبد الله بن على وباب سوق يحيى، وقال : يامعشر الأبناء، ان خلافة الله لاتجاوز بالبطر، ونعمه لاتستصحب بالتجبر والتكبر، وان محمدا يريد اديانكم، وينكث بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم الى غيركم، وهو صاحب الزواقيل بالامس، وبالله ان طالت به مدة وراجعه من أمره قوة، سيرجعن وبال ذلك عليكم، وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فو الله لاينصره منكم ناصر الا خذل، ولا يمنعه مانع الا قتل ، وما عند الله لأحد هوادة، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه. ثم أمر الناس بعبور الجسر فعبروا، حتى صاروا الى سكة باب خراسان، واجتمعت الحربية وأهل الارباض مما يلى باب الشأم (وباب الانبار وشط الصراة مما يلى باب الكوفة. وتسرعت خيول من خيول محمد من الاعراب وغيرهم الى الحسين بن على ، فاقتتلوا قتالا شديدا مليا من النهار، وأمر الحسين من كان معه من قواده وخاصة أصحابه بالنزول فنزلوا اليهم بالسيوف والرماح، وصد قوهم القتال، وكشفوهم حتى تفرقوا عن باب الخلد .

قال : فخلع الحسين بن على محمدا يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وتسعين ومائة، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون من غد يوم الاثنين الى الليل ، وغدا الى محمد يوم الثلاثاء، فوثب بعد الوقعة التى كانت بين الحسين وبين أصحاب محمد العباس بن موسى بن عيسى الهاشمى على محمد، ودخل عليه فأخرجه من قصر الخلد الى قصر أبى جعفر ، فحبسه هناك الى صلاة الظهر، ثم وثب العباس بن موسى بن عيسى على ام جعفر فأمرها بالخروج من قصرها إلى مدينة أبى جعفر ، فأبت ، فدعا لها بكرسى ، وأمرها بالجلوس فيه، فقنعها بالسوط وساءها، وأغلظ لها القول، فجلست فيه، ثم أمر بها فادخلت المدينة مع ابنها وولدها. فلما أصبح الناس من الغد طلبوا من الحسين بن على الارزاق وماج الناس بعضهم في

بعض، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشأم، فقال : أيها الناس، والله ما ادرى بأي سبب يتأمر الحسين بن على علينا ، ويتولى هذا الأمر دوننا ! ماهو بأكبرنا سنـًا، ولا أكرمنا حسبـًا، ولا أعظمنا منزلة، وان فينا من لايرضى بالدنية، ولا يقاد بالمخادعة .

الطبرى : 428/8

## 43 ـ العصبية بين العرب والخراسانيين

وفي هذه السنة سار عبد الملك بن صالح الى الشام، فلما بلغ أقام بها. وانفذ رسله وكتبه الى رؤساء اجناد أهل الشام بجمع الرجال بها ، وامداد محمد بهم لحرب طاهر .

قد تقدم ذكرى سبب توجيه محمد اياه لذلك ، فذكر داود بن سليمان انه لما قدم عبد الملك الرقة، انفذ رسله، وكتب الى رؤساء اجناد الشام ووجوه الجزيرة. فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبسط له في امله وامنيته، فقدموا عليه رئيسًا بعد رئيس، وجماعة بعد جماعة، فكان لايدخل عليه احد الا اجازه وخلع عليه وحمله، فأتاه أهل الشأن : الزواقيل والاعراب من كل فج، واجتمعوا عنده حتى كثروا. ثم ان بعض جند أهل خراسان نظر الى دابة كانت اخذت منه في وقعة سليمان بن أبي جعفر تحت بعض الزواقيل، فتعلق بها، فجرى الأمر بينهما الى أن اختلفا، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند، فتلاحموا، واعان كل فريق منهم صاحبه، وتلاطموا وتضاربوا بالايدى، ومشى بعض الأبناء الى بعض ، فاجتمعوا الى محمد بن أبي خالد، فقالوا : انت شيخنا وفارسنا، وقد ركب الزواقيل منا ماقد بلغك، فاجمع امرنا والا استذلونا، وطمعوا فينا، وركبوا بمثل هذا فيكل يوم. فقال: ما كنت: لادخل في شغب، ولا اشاهدكم على مثل الحالة، فاستعد الأبناء وتهيئوا، وأتوا الزواقيل وهم غارون، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم، وتنادى الزواقيل ، فركبوا خيولهم، ولبسوا اسلحتهم، ونشبت الحرب بينهم. وبلغ ذلك عبد الملك بن صالح، فوجه اليهم رسولا يأمرهم بالكف ووضع السلاح، فرموه بالحجارة، واقتتلوا يومهم ذلك قتالا شديدا، واكثرت الأبناء القتل في الزواقيل ، فأخبر عبد الملك بكثرة من قتل ـ وكان مريضـًا مدنفا ـ فضرب جيده على يد، ثم قال : واذلاه ! تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها. فغضب من كان امسك عن الشر من الابناء، وتفاقم الأمر فيما بينهم، وقام بأمر الابناء الحسين بن على بن عيسى بن ماهان، وأصبح الزواقيل ، فاجتمعوا بالرقة، واجتمع الأبناء

وأهل خراسان بالرافقة، وقام رجل من أهل حمص، فقال : يأأهل حمص ، الهرب أهون من العطب . والموت أهون من الذل ، انكم بعدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ! الا وفي الشر وقعتم، والى حومة الموت انختم. ان المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم. النفير النفير، قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل !

الطبرى : تاريخ 425/8

## 44 ـ النزاعات الشخصية في بلاط المأمون

وكان المأمون قال للفضل : ينبغى أن تحضر نعيم بن حازم، فانه وجه من الوجوه، وله سابقة وجلالة ورياسة، فتناظره فيما اجمعناه من هذا الأمر. فاحضره الفضل بحضرة المامون. وعرفه بما عزم عليه، ورغبه فيه. وذكره ما يلزم من الانقياد له، فأبى ذلك نعيم ، وذكر ما كان منه، ومن سلفه في نصرة الدولة الهاشمية، وما وصلوا اليه بها من العز والامن والثروة والجاه، وما بلغوه فيها من الحماية. وبذل المهجة ومقارعة الاعداء. وانه لايقبل الضيم، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه، ويدفعه بما يلتمسه ويقارعه دونه. فكلمه الفضل في ذلك ، وخلط له لينا وغلظة. فقال له نعيم: انك تريد (أن) تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا، ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض، الى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس، ثم اقبل على المأمون فقال : الله الله يا أمير المؤمنين، لايخدعنك عن دينك وملكك، فان أهل خراسان لايجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه، فقال له المأمون : انصرف ، ولم يظهر له غضبًا .

وأقبل على الفضل ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أرى أن تخرج هذا عن خراسان، فلا خير في مقامه معنا، فقال له افلا اقتله ؟

فقال له : يا أمير المؤمنين، انك قتلت بالأمس هرثمة، وقدره في الناس قدره واظهرت موته، وقد تيقن الناس قتلك اياه، وضربت عنق يحيى بن عامر صبرا، وأمرت بحمل عبد الله بن مالك ، وضربت استه كما يضرب الصبيان، واتخوف ان قتلت هذا أن يكون لأهل خراسان في أمره حركة، ولكنا نوجهه في عدة قليلة، ونأمره بمحاربة ابن شكلة ونكتب الى كل عامل يجتاز به يترك ازاحة علله، وقلة الالتفات اليه .

فقال : انى أكره أن يصير الى ابن شكلة : فقال له : ذلك أهون على في أمره. فقال له افعل، ففعل ذلك .

فصار نعيم بن حازم الى ابن شكلة، ولم يزل معه الى أن استتر ابراهيم. ثم ظفر به، وصير به الى الحسن بن سهل .

فذكر محمد بن الجهم أن نعيما ادخل حافيا حاسرا، وقد كان الحسن جلس مجلسًا عامًا، فلما وقف بين يديه اقبل يقول : ذنبى اعظم من السماء، ذنبى اعظم من الهواء، ذنبي اعظم من الماء ! فقال له الحسن على رسلك ، فقد تقدمت منك طاعة، وكان آخر أمرك إلى توبة، وليس للذنب بينهما مذهب ، وما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك في العفو، وقد اقالك الله، وعفا عنك .

وحكى ثمامة : أن الناس اجتمعوا جميعًا : القواد، والقضاة، والفقهاء ووجوه العامة، وجلس الفضل على فرش مرتفعة، فلما وصلوا إليه قام فخطب ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ابتدأ في الوقيعة في عبد الله بن مالك ، وذكر انه كان يدعى (علي) الرشيد في حكايته دخول بيوت القيان، وهو كاذب في ذلك ، وهو الذي كان يأتى المواخير والدساكر، لايرفع عن ذلك نفسه، ولا يأنف من فجره ولا يصون عرضه عن قذره.

قال ثمامة : ثم أقبل علي فقال وان أبا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما أقول. فتركت تشييع قوله بالتصديق ، وأطرقت الى الأرض، ودخلتني العصبية لعبد الله بن مالك، للعربية أولا، ثم لنفسه أخرى .

الجهشيارى : كتاب الوزراء ص 256

## 45 ـ نظرة عن الحالة عند تولى المامون
## خلافة المامون عبد الله بن هارون

وفي هذه السنة وضعت الحرب ـ بين محمد وعبد الله ابنى هارون الرشيد ـ أوزارها، واستوسق الناس بالمشرق والعراق والحجاز لعبد الله المأمون بالطاعة .

وفيها خرج الحسن الهرش في ذي الحجة منها يدعو إلى الرضى من آل محمد ـ بزعمه ـ في سفلة الناس، وجماعة كثيرة من الاعراب ، حتى أتى النيل .فجبى الاموال و أغار على التجار، وانتهب القرى، واستاق المواشي

وفيها ولى المأمون كل ما كان طاهر بن الحسين افتتحه من كـور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن الحسن بن سهل اخا الفضل ابن سهل . وذلك بعد مقتل محمد المخلوع ودخول الناس في طاعة المأمون .

وفيها كتب المأمون الى طاهر بن الحسين، وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلها الى خلفاء الحسن بن سهل،وان يشخص عن ذلك كله الى الرقة، وجعل اليه حرب نصر بن شبث . وولاه الموصل والجزيرة والشأم والمغرب .

وفيها قدم على بن أبي سعيد العراق خليفة للحسن بن سهل على خراجها، فدافع طاهر عليا بتسليم الخراج اليه، حتى وفي الجند ارزاقهم، فلما وفاهم سلم اليه العمل .

وفيها كتب المأمون الى هرثمة يأمره بالشخوص الى خراسان .

* * *

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على.

الطبرى 527/8

## 46 ـ عودة المامون الى لبس السواد

ذكر جماعة من الرواة منهم : اسحاق بن سليمان الهاشمى وأبو حسان الزيادى وابن شبانة المروزى فيما حملوا من كتب التاريخ واتفقوا جميعًا عليه ان دخول المأمون بغداد مقدمه من خراسان كان في يوم السبت ارتفاع النهار لاربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين. وكان لباسه ولباس اصحابه جميعـا أقبيتهم وقلانسهم وطراداتهم واعلامهم الخضرة.

قالوا : فلما قدم نزل الرصافة وقد كان قبل ذلك قدم الى النهروان يوم السبت فأقام به ثمانية أيام وخرج الى أهل بيته ووجوه أهلَ بغداد فسلموا عليه. فلما كان يوم السبت الآخر دخل الى بغداد. وكان قد كتب إلى طاهر بن الحسين، وكان بالرقة، أن يوافيه بالنهروان. فقدم طاهر ودخل عليه. وأمره ان ينزل بالخيزرانية هو أصحابه.

يوم السبت الآخر دخل إلى بغداد. وكان قد كتب إلى طاهر بن الحسين، وكان بالرقة، أن يوافيه بالنهروان. فقدم طاهر ودخل عليه. وأمره أن ينزل بالخيزرانية هو وأصحابه. ثم انه تحول فنزل قصره على شاطئ دجلة. وأمر حميد بن عبد الحميد وعلي بن هشام وكل من كان في عساكرهما أن ينزلوا في عسكره .

قالوا جميعًا : فكانوا يختلفون الى المأمون في كل يوم مسلمين ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن أحد يدخل عليه الا في خضرة. ولبس ذلك أهل بغداد اجمعون، وكانوا يخرقون كل شيء رأوه من السواد على أحد الا الفلانس، فان الواحد بعد الواحد كان يلبسها متخوفا ووجلا. فأما قباء أو علم، فلم يكن أحد يجترئ أن يلبس شيئًا من ذلك ، ولا يحمله. فمكثوا بذلك ثمانية أيام، وتكلم فيها بنو هاشم من ولد العباس خاصة وقالوا له : ياأمير المؤمنين تركت لباس أهل بيتك ودولتهم ولبست الخضرة .

قالوا : وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان، وتكلم في ذلك دون الناس جميعًا لما قدم طاهر بن الحسين. فأظهر له الاجابة ولما يفعل. ولما رأى طاعتهم له في لباس الخضرة وكرامتهم لها، جلس يوم السبت وعليه ثياب خضر. فلما اجتمعوا عنده، دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سوداء فكساها طاهر بن الحسين وخلع على عدة من قواده أقبية وفلانس سوداء. فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد، طرح سائر القواد الخضرة ولبسوا السواد .

ابن طاهر : كتاب بغداد ص 9

## 47 ـ المأمون يمهد للتصالح مع البغداديين

وكانت تلك الأيام أيام فتن ووقائع وحروب فلما بلغ المأمون ذلك قام وقعد فقتل الفضل بن سهل ومات بعده على بن موسى من أكل عنب فقيل أن المأمون رأى انكار الناس ببغداد لما فعله من نقل الخلافة الى بنى على وانهم نسبوا ذلك الى الفضل بن سهل فقتلوه في الحمام ثم اخذهم وقدمهم ليضرب اعناقهم فقالوا له انت امرتنا بذلك ثم تقتلنا فقال لهم أنا اقتلكم باقراركم. وأما ما ادعيتموه على من أنى امرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة. ثم ضرب اعناقهم وحمل رؤوسهم الى الحسن بن سهل وكتب يعزيه ويوليه مكانه وانضم الى ذلك أمور أخرى سنذكرها عند ذكر وزارة الفضل ثم دس الى على بن موسى الرضى عليه السلام سما في عنب وكان يحب العنب فأكل منه واستكثر فمات من ساعته. ثم كتب الى بنى العباس

ببغداد يقول لهم أن الذي انكرتموه من أمر علي بن موسى قد زال وان الرجل مات فأجابوه اغلظ جواب ، وكان الفضل بن سهل قد استولى على المأمون ومت امتاتا كثيرة بقيامه في أمره واجتهاده في أخذ الخلافة له فكان قد قطع الأخبار عنه ومتى علم ان احدا قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى في مكروهه وعاقبه. فامتنع الناس من كلام المأمون فانطوت الأخبار عنه .

من كتاب الفخرى لابن طبا طبا

## 48 ــ ذكر اتصال يحيى بن أكثم بالمامون والسبب الذي له استوزره

قال حدثنى احمد بن صالح الاضخم. قال. هل تدرى ما كان سبب يحيى بن أكثم؟ قلت : لا. وانى أحب أن أعرفه. قال : يحيى بن خاقان هو وصله بالحسن ابن سهل وقربه من قلبه، وكبره في صدره حتى ولاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه .

وحدثنى عبد الله بن أبي مروان الفارسي. قال : كان ثمامة سبب يحيى بن اكثم في قضاء البصرة مرتين، وسبب تخلصه من الخادم الذي أمر بتكسيفه بالبصرة. ويقال انه سطع خصيته في تعذيبه بالقصب ثم عزل من البصرة فنزل على ثمامة حتى ارتاد له دارا بحضرته ومات أحمد بن أبي خالد الاحول احتيج الى من يقوم مقامه. قال : فأراد المأمون ثمامة على اللزوم للخدمة فامتنع واعتل عليه وكره ذلك منه. قال : فاريد لى رجلا يصلح للخدمة. قال : ثمامة فذكرت يحيى في نفسى ولم ابد ذلك للمامون حتى لقيت يحيى فعقدت عليه أن لا يغدر وأن لاينساها لى ان حسنت به حاله، ولطفت له منزلة. قال : فقال يحيى يا أبا معن أنا صنيعك وابن عمك. فخبرنى سراج خادم ثمامة انه بلغ من مقاربة يحيى لثمامة وطلب المنزلة عنده انه جعل يتعلم القول بالاعتزال قال : فلما حسن حال يحيى ووقع بينه وبين ثمامة ما وقع من الشر والمباينة والمحادثات عند المامون فجرى لهم من المجالس في الكلام والخلاف ما قد اثر وكتب قال يحيى يوما يا أمير المؤمنين. بلغنى أن رجلا يزعم انه يفرق بين ما اختلفت فيه الأمة في حرفين. فقال له ثمامة يأمير المؤمنين اياى اعترى ولى في قوله غناء. نعم أنا أفرق بين ما اختلفت فيه الامة بحرفين الا أنى ازداد حرفا ثالثا لتفهمه مع الخاصة. فقال المأمون: فقل. فما آراك بخارج منها. قال : يأمير المؤمنين : لا تخلو افعال العباد وما اختلف الناس فيه

من ذلك أن تكون من الله ليس للعباد فيها صنع أو بعضها من الله وبعضها من العباد. فان زعم انها من الله ليس للعباد فيها صنع كفر ونسب إلى الله كل فعل قبيح. وان زعم أنها من الله ومن العباد جعل الخلق شركاء لله في فعل الفواحش والكفر وان زعم أنها من العباد ليس لله فيها صنع صار الى ما أقوله. قال : فما أجاب يحيى جوابًا .

ابن طاهر : كتاب بغداد ص 139

## 49 ـ الحالة في مصر في أول القرن الثالث
## ذكر الخبر عن فتح عبد الله بن طاهر الاسكندرية

وفي هذه السنة فتح عبد الله بن طاهر الاسكندرية ـ وقيل كان فتحه اياها في سنة احدى عشرة ومائتين ـ وأجلى من كان تغلب عليها من أهل الأندلس عنها

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم :

حدثنى غير واحد من أهل مصر، ان مراكب اقبلت من بحر الروم من قبل الأندلس فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قبلهم بفتنة الجروى وابن السرى، حتى ارسوا مراكبهم بالاسكندرية. ورئيسهم يومئذ رجل يدعى أبا حفص، فلم يزالوا بها مقيين حتى قدم عبد اللهبن طاهر مصر. قال لي يونس بن عبد الاعلى : قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث ـ يعنى عبد الله بن طاهر ـ والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس منهم في بلاء، فأصلح الدنيا، وأمن البريء، وأخاف السقيم، واستوسقت له الرعية بالطاعة. ثم قال : أخبرنا عبد الله بن وهب، قال : أخبرنى عبد الله بن لهيعة، قال : لا أدرى رفعه الى قبل أم لا ! فلم نجد فيما قرأنا من الكتب ان لله بالمشرق جندا لم يطغ عليه احد من خلقه الا بعثهم عليه، وانتقم بهم منه ـ أو كلاما هذا معناه ـ فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر، ارسل الى من كان بها من الاندلسيين، والى من كان انضوى اليهم، يؤذنهم بالحرب ان هم لم يدخلوا في الطاعة، فأخبرونى انهم اجابوه الى الطاعة، وسألوه الامان، على أن يرحلوا من الاسكندرية الى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر، يقال لها اقريطش، فاستوطنوها وأقاموا بها، وفيها بقايا أولادهم الى اليوم .

الطبري : تاريخ 613/8

## 50 ـ تنحية القاسم من ولاية العهد

قال : وكان القاسم بن الرشيد ساقط الهمة دنيء النفس، وكان المأمون على ان يعهد اليه ويؤكد له ما كان الرشيد جعله له من ولاية العهد. وكان لايزال يبلغه عنه ما يكره مرة في نفسه وأخرى في حشمه، قال: فرفع اليه في الخبر يوما أنه قال لقوام حمامه : نوروا الناس بالمجان. ففعلوا ذلك فلم يبق محتاج الا جاء يتنور. فلما علم انهم كثروا اخرج عليهم الاسد من باب كان يدخل منه الى الحمام فخرج الناس عراة مغمى عليهم مع ما عليهم من النورة هاربين من الاسد فصاروا الى شارع قصره وقد اشرف عليهم وهو يضحك، فحدثنا الحسن بن قريش قال : دعانى المأمون وقال : ياهذا ما لى ولهذا الفتى ، الى كم احتمل منه هذا الاذى ؟ قال : فقلت قومه يا أمير المؤمنين ان رأيت في ذلك صلاحا، قال : نعم. فقلت: يا سيدي انه عضو منك وأنت أولى الناس بتقويمه، قال : فجعل ينهاه ويأبى لاينتهي، فلما كثر هذا من فعله عزم على خلعه فكتب الى هرثمة بن اعين في ذلك كتابا نسخته: أما بعد فان أمير المؤمنين. يستوفق الله جل وعز في جميع أموره ويستخيره فيها خاصها وعامتها، لطيفها وجليلها، استخارة من يوقن ان البركة وخيرة البدء والعاقبة في قضائه وما يلهمه من ارشاد وتسديد رأى واثبات صواب، وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمه فيه من أمر القاسم بن الرشيد فيما كان اليه من ولاية العهد خلعه عن ذلك وصرفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضرتك وأمر بالكتاب الى العمال في نواحى عملك وثغورك وولاة الامصار، فقد أمل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقا من الله تبارك اسمه ورشدا ألهمه اياه اذ كان به توفيقه وعليه معوله واليه رجوعه فيما يبرم ويمضى فامتثل ماحده لك أمير المؤمنين وانته إليه واكتب بما يكون منك فيه ان شاء الله .

البيهقى : المحاسن 173

## 51 ـ نهـايـة بابـك

واشتد أمر بابك الخرمى ببلاد الران والبيلقان، وكثرت عثرته في تلك البلاد وسار عساكره نحو تلك الامصار ففرق الجيوش وهزم العساكر وقتل الولاة وأفنى الناس، فسير اليه المعتصم الجيوش وعليها الافشين، وكثرت حروبه، واتصلت وضاق بابك في بلاده حتى انفض جمعه، وقتل رجاله وامتنع بالجبل المعروف بالبدين من أرض الران، وهي بلاد بابك، وبه يعرف هذا الموضع الى هذا الوقت، فلما استشعر

بابک مانزل به وأشرف عليه هرب من موضعه، وزال عن مكانه، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه، وقد تزيا بزي السفر وأهل التجارة والقوافل، فنزل موضعا من بلاد أرمينية من أعمال سهل بن سنباط من بطارقة أرمينية على بعض المياه. وبالقرب منهم راعى غنم، فابتاعوا منه شاة، وساموا شراء شيء من الزاد لهم، فمضى من فوره الى سهل بن سنباط الارميني، فأخبره الخبر، وقال: هو بابک لاشك فيه. وقد كان الافشين لما هرب بابک من موضعه وزال عن جبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة، أو يتحصن ببعض القلاع، أو ينضاف الى بعض الامم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف اليه فلال عسكره فيرجع الى ماكان من أمره فأخذ الطرق، وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد أرمينية واذربيجان والران والبيلقان، وضمن في ذلک الرغائب، فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ماأخبره به سار من فوره فيمن حضره من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذي فيه بابک، فترجل له، ودنا منه، وسلم عليه بالملک، وقال له : أيها الملک، قم الى قصرک الذي فيه وليک وموضع يمنعک الله فيه عدوک، فسار معه الى أن أتى قلعته، وأجلسه على سريره، ورفع منزلته، ووطأ له منزله ومن معه، وقدمت المائدة، وقعد سهل يأكل معه فقال له بابک بجهله وقلة معرفته بما هو فيه ومادفع اليه : أمثلک يأكل معي؟ فقام سهل عن المائدة، وقال : أخطأت أيها الملک، وأنت أحق من احتمل عبده، اذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوک، وجاءه بحداد، وقال له : مد رجلک أيها الملک، وأوثقه بالحديد، فقال له بابک : اغدرا ياسهل؟ ! قال: ياابن الخبيثة، انما أنت راعي غنم وبقر، ماأنت والتدبير للملک ونظم السياسات وتدبير الجيوش؟! وقيد من كان معه، وأرسل الى الافشين يخبره الخبر، وأن الرجل عنده ، فسرح اليه الافشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد، وعليهم خليفة يقال له بومادة. فتسلموا بابک ومن معه، وأتى به الى الافشين ومعه سهل بن سنباط فرفع الافشين منزلة سهل، وخلع عليه، وجمله، وتوجه وقاد بين يديه، وأسقط عنه الخراج، فأطلقه، وأطلقت الطيور الى المعتصم، وكتب اليه بالفتح، فلما وصل اليه ذلک ضج الناس بالتكبير، وعمهم الفرح، وأظهروا السرور، وكتبت الكتب الى الامصار بالفتح، وقد كان أفنى عساكر السلطان، فسار الافشين ببابک، وتنقل بالعساكر، حتى أتى سر من رأى، وذلک سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتلقى الافشين هرون ابن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا، وبعث اليه

بالفيل الاشهب، وكان قد حمله بعض ملوك الهند الى المامون، وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الاحمر والاخضر وأنواع الحرير الملون، ومعه ناقة عظيمة بختية قد جللت بما وصفنا، وحمل الى الافشين دراعة من الديباج الاحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة، وقد نظم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر، وألبس بابك الدراعة الجليلة، وألبس أخوه الاخرى، وجعلت القلنسوة على رأس بابك وعلى رأس أخيه نحوها. وقدم اليه الفيل، والى أخيه الناقة. فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال: ماهـذه الدابة العظيمة؟ واستحسن الدراعة، وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل، الى أسير فقد العز ذليل. اخطأته الاقدار، وزالت عنه الجدود، وتورطته المحن، انها لفرحة تقتضي ترحة، وضرب له المصاف صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود، من القاطول الى سامرا، مدد واحد متصل غير منفصل، وبابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة، والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال، ويميز الرجال والعدد، ويظهر الاسف والحنين على مافاته من سفك دمائهم، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم، وذلك يوم الخميس ليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ولم ير الناس مثل ذلك اليوم، ولامثل تلك الزينة، ودخل الافشين على المعتصم، فرفع منزلته، وأعلى مكانه، وأتى ببابك فطوف به بين يديه، فقال له المعتصم : انت بابك؟ فلم يجب، وكررها عليه مرارا، وبابك ساكت، فمال اليه الافشين وقال : الويل لك ! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟ فقال : نعم أنا بابك، فسجد المعتصم عند ذلك، وأمر بقطع يديه ورجليه.

قال المسعودي : ورأيت في كتاب أخبار بغداد أنه لما وقف بابك بين يديه لم يكلمه مليا، ثم قال له : أنت بابك؟ قال : نعم، أنا عبدك وغلامك، وكان اسم بابك الحسن، واسم أخيه عبد الله، قال : جردوه، فسلبه الخدام ماعليه من الزينة، وقطعت يمينه، وضرب بها وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره، وثلث برجليه، وهو يتمرغ في النطع في دمه، وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله، فلم يلتفت الى قوله، وأقبل يضرب بما بقى من زنديه وجهه، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه، ففعل، ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده فصلب ثم حمل الرأس الى مدينة السلام، ونصب على الجسر، وحمل الى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده

واشرافه على ازالة ملك وقلب ملة وتبديلها، وحمل أخوه عبد الله مع الرأس الى مدينة السلام، ففعل به اسحق بن ابراهيم أميرها مافعل بأخيه بابک بسامرا. وصلبت جثة بأبک على خشبة طويلة في أقاصي سامرا، وموضعه مشهور الى هذه الغاية يعرف بخشبة بابک، وان كانت سامرا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنها وبان عنها قاطنها، الا يسيرا من الناس في بعض المواضع بها.

المسعودي : مروج 4 ـ 55

## 52 ـ ثـورة المـازيار

وكان المازيار، وهو محمد بن قارن بن بنداد هرمز، اصبهيذ طبرستان، قد قدم على المأمون، بعد وفاة أبيه وتصيير مملكة طبرستان الى عمه، فملكه المأمون على مدينتين من مدن طبرستان، وكتب الى عمه في تسليمهما اليه، وخرج متوجها، فلما بلغ عمه ذلک أغاظه وبلغ منه، فخرج كأنه يتلقاه. وكان مع المازيار مولى لابيه له دراية، فقال: ان عمک لم يخرج في هذه الهيئة الا ليفتک بک، فاذا قربت منه، وانفردت عن أصحابک، فاني أدفع اليک الحربة، فضعها في صدره، ففعل ذلک، فقتل عمه، واجتمعت عليه المملكة، وضبط البلد، وكتب الى المأمون بأن عمه كان مخالفا لملكه على البلد.

فلما عظم أمره كتب من جيل جيلان اصبهيذ (اصبهبذان بشوار خرشاد) محمد بن قارن مولى أمير المؤمنين، ثم ذهب بنفسه أن يقول : موالى أمير المؤمنين، ثم تفاقم أمره حتى أظهر المعصية، وخلع، ويقال أن الافشين كاتبه، وحمله على الخلع، فوجه المعتصم محمد بن ابراهيم لمحاربته في جيش، فنفذ وكتب الى عبد الله بن طاهر أن يمده بالجيوش، فحاربه وألح عليه عبد الله بالبعثة اليه بالجيوش، فحاربه، فقطعوا الأودية والحزونة وخرج ليلا، فوضع يده في يد قرابة لعبد الله، وقدم به سنة 226، فضرب بالسياط حتى مات، وصلب الى جانب بابک.

فحدثني محمد بن عيسى قال : قدم بالمازيار، وقد حبس الافشين في ذلک الوقت، فجمع ابن داود بينه وبين المازيار، وقال له : هذا الافشين الذي زعمت أنه حملک على المعصية. فقال له الافشين : والله أن الكذب بالسوقة لقبيح، فكيف بالملوک؟ والله ماينجيک كذبک من القتل، فلاتجعل الكذب خاتمة أمرک. فقال

المازيار : والله ماكتب الى، ولاراسلني، الا أن أبا الحارث وكيلى أخبرني أنه لما قدم عليه بره وأكرمه، فرد الافشين الى الحبس، فضرب المازيار حتى قتل.

اليعقوبي : تاريخ 2 ـ 477

## 53 ـ الأحوال في عهد الواثق

وسخط الواثق على ابراهيم بن رباح، وكان ابراهيم مقدما عنده بمكانه منه، أيام امرته، فولاه ديوان الضياع، فتشاغل باللهو، وفوض أمره الى نجاح بن سلمة كاتبه، والى يمان بن .... النصراني، وتجافيا للناس عن أموال كثيرة، فكثروا عليه عند الواثق، فأمر بقبض ضياعه وأمواله، وصير ماكان اليه الى عمر بن فرج الرخجي.

وكان أحمد بن الخصيب كاتب اشناس التركى، وهو يلي أعمال الجزيرة، والشأمات، ومصر، والمغرب، والمدبر لذلك أحمد، فرفع الى الواثق أنه قد حاز أموالا عظيمة، فسخط عليه، وقبض أمواله وأموال أخيه ابراهيم، وعذبا، وعذبت أمهما.

وتوفي اشناس في هذه السنة، فصيرت مرتبته وأكثر أعماله الى ايتاخ التركي، وتركت ضياعه وأمواله بحالها لولده، ورد القيام بها الى عبد الله بن صاعد، فلم يزل يقوم بها الى أن توفي.

وانتفضت أرمينية، وتحرك بها قوم من العرب والبطارقة والمتغلبين، وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب على ما يليهم، وضعف أمر السلطان، فولى الواثق خالد بن يزيد بن مزيد، وأمره بالنفوذ، وضم اليه كورا من كور ديار ربيعة، فسار في جيش عظيم، فلما بلغ المتغلبين بتلك البلاد خبره هابوه، وكتب أكثرهم يذكر أنه لم يزل في الطاعة، ووجهوا بالهدايا، فقال : لاأقبل الا هدية من جاءني، فزاد ذلك في وحشتهم، وكتب الى اسحاق بن اسماعيل يأمره أن يقدم عليه، فلم يفعل، فزحف اليه، فكاد أن يعطى اسحاق بيده .

اليعقوبي : تاريخ 2 ـ 481

# الباب الرابع

# الصراع مع البيزنطيين

## 54 ـ غزوة هارون بن المهدي الصائفة ببلاد الروم

فمن ذلك غزوة هارون بن محمد المهدي الصائفة، ووجهه أبوه ـ فيما ذكر ـ يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الاخرة غازيا الى بلاد الروم، وضم اليه الربيع مولاه، فوغل هارون في بلاد الروم، فافتتح ماجدة، ولقيته خيول نقيطا قومس القوامسة، فبارزه يزيد من مزيد، فأرجل يزيد، ثم سقط نقيطا، فضربه يزيد حتى اثخنه. وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار الى الدمستق بنقمودية وهو صاحب المسالح، وسار هارون في خمسة وتسعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلا، وحمل لهم من العين مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين دينارا، ومن الورق أحدا وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم. وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ أغطسه امرأة اليون، وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينهما وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة واعطائه الفدية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الادلاء والاسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين، فأجابته الى ماسأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون الف دينار، تؤديها في نيسان الاول في كل سنة، وفي حزيران، فقبل ذلك منها، فاقامت له الاسواق في منصرفه، ووجهت معه رسولا الى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ماتيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين، وسلمت الاسارى. وكان الذي أفاء الله على هارون الى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفا، وقتل من الاسارى صبرا ألفان وتسعون أسيرا. ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدراتها عشرون ألف دابة، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الاسواق مائة ألف، وبيع البرذون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم وعشرين سيفا بدرهم، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك :

أطفئت بقسطنطينة الروم مسندا ... اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
ومارمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها، والحرب تغلي قدورها

الطبرى 8 ـ 152

## 55 ـ من رسالة أبى الربيع محمد بن الليث التي كتبها الرشيد الى قسطنطين ملك الروم

.. ومن أسباب مايريد الله من الانتقام منكم، ماقد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه، وقذف الله في قلبه، من الارادة والنية والرغبة في ايطاء الجيوش بلادكم، واستباء المقاتلة أرضكم، والتفرغ لكم من كل شغل، والايثار لجهادكم عن كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون، وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذي لاطاقة لكم ان شاء الله به، ولاصبر لكم باذن الله عليه، فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالانفاق، ويده مطلقة بالبذل، والمسلمون نشاط اليكم، منقلبون عليكم، قد عودهم الله في لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها، ان شاء الله.

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده، ومقدمة ان شاء الله من جيوشه، الا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين اليها، وحداك ومن قبلك عليها، رحمة للضعفاء الذين لاترحمهم، وتوجعا للمساكين مما لاتوجع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والاسر والقهر، وقساوة من قلوبكم، وأثرة لانفسكم، واعتصاما بخواصكم، واجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لاتمنعونهم بقوة، ولاتدفعون عنهم بحيلة، ولاتراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم، أدب المسيح اياكم، وقوله في الكتاب لكم : «طوبى للذين يرحمون الناس، فان أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم».

وأيم الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم، مالهم عند أمير المؤمنين لتحدروا عليه وأقبلوا اليه، من ايوانهم، وانزالهم الارض الواسعة، وامكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بمالا تبلغه أنت ولاتقاربه، رفقا بهم ونظرا لهم واحسانا اليهم، مع تخليته اياهم واديانهم، لايكرههم

على خلافها ولايجبرهم على غيرها، ولاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك وجواره على جوارك. ولأنقذوا انفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة. فاتق الله واقبل ماعرض عليك من الجزية، ولايمنعنك مافيه الحظ لك ولاهل مملكتك. ونحن على رجاء أن الله لايؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم الا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة، ولاهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة، الذين لايدخل في الاذعان لهم وأداء الجزية حمية ولانقيصة ولاعار، والذين يفون لكم بما يعقدون، ويتبعون فعلهم مايقولون.

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة وَالاقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط، نظرا لدينه وخوفا من ربه، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والاثرة، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة، واتفاق الافئدة، والنصائح في السر والعلانية، وماعوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة، وعراه بحيلة، من النصر العزيز، والفتح القريب، والظفر المبين. فابذل من الجزية ماشئت وسم منها ماهويت، واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به اليها ولاللمسلمين، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه، وليجعلها سببا لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم. وانه انما كان قبول المهدى، رحمه الله، الفدية منكم، بطلبة أمير المؤمنين كانت اليه، والحاجة كانت فيها عليه، ولم يكن من رغبة فيها، ولاحاجة اليها، ولااستعظام لها. ولقد كان يعطي في المجلس الواحد مرارا أمثالها . ولكن ذلك كان رأي أمير المؤمنين يومئذ فيكم. فأما اليوم اذ استبان له غدركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم الا الاسلام، أو الحرب المجلبة، ان شاء الله،ولاحول بأمير المؤمنين ولاقوة الا بالله، عليه يتوكل وبه يثق واياه يستعين، والسلام على من اتبع الهدى.

ابن طيفور : اختيار المنظوم والمنثور
نقلا عن كتاب عصر المامون
للدكتور أحمد فريد الرفاعي ج 2 ـ 235

## 56 ـ الخبر عن نقض الروم للصلح

وفي هذه السنة نقض صاحب الروم الصلح الذي كان جرى بين الذي قبله وبين المسلمين، ومنع ماكان ضمنه الملك لهم قبله.

ذكر الخبر عن سبب نقضهم ذلك :

وكان سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم وصاحبتهم يومئذ ريني ـ وقد ذكرنا قبل سبب الصلح الذي كان بين المسلمين وبينها ـ فعادت الروم على رينى فخلعتها، وملكت عليها نقفور. والروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان، وأنه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج، ثم ماتت ريني بعد خمسة أشهر من خلع الروم اياها، فذكر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة، كتب الى الرشيد :

من نقفور ملك الروم، الى هارون ملك العرب، أما بعد : فان الملكة التي كانت قبلى، أقامتك مقام الرخ. وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها اليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فاذا قرات كتابي فأردد ماحصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، والا فالسيف بيننا وبينك.

قال : فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين الى نقفور ملك الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ماتراه دون أن تسمعه. والسلام.

ثم شخص من يومه، وسار حتى أناخ بباب هرقلة، ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخرب وحرق، واصطلم. فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجابه الى ذلك، فلما رجع من غزوته، وصار بالرقة نقض نقفور العهد، وخان الميثاق. وكان البرد شديدا، فيئس نقفور من رجعته اليه، أخذ وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد اخباره بذلك اشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الايام، فاحتيل له بشاعر من أهل خرة يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف ـ ويقال : هو الحجاج بن يوسف التيمي، فقال :

| | |
|---|---|
| نقض الذي أعطيته نقفور | وعليه دائرة البوار تدور |
| أبشر أمير المؤمنين فانه | غنم أتاك به الاله كبير |
| فلقد تباشرت الرعية أن أتى | بالنقض عنه وافد وبشير |

ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفى النفوس مكانها مذكور

أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور

فتح يزيد على الفتوح يؤمنا ... بالنصر فيه لبواؤك المنصور

فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شعل الضرام تطير

وصرفت بالطول العساكر قافلا ... عنه وجارك آمن مسرور

نقفور انك حين تغدر ان نأى ... عنك الامام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ماظننت غرور

ألقاك حينك في زواجر بحره ... فطمت عليك من الامام بحور

ان الامام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أم نأت بك دور

ليس الامام وان غفلنا غافلا ... عما يسوس بحزمه ويدير

ملك تجرد للجهاد بنفسه ... فعدوه أبدا به مقهور

يامن يريد رضا الاله بسعيه ... والله لايخفى عليه ضمير

لانصح ينفع من يغش أمامه ... والنصح من نصائحه مشكور

نصح الامام على الانام فريضة ... ولاهلها كفارة وطهور

وفي ذلك يقول اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

أمام الهدى أصبحت بالدين معنيا ... وأصبحت تسقى كل مستمطر ريا

لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى ... فأنت الذي تدعى رشيدا ومهديا

اذا ماسخطت الشيء كان مسخطا ... وان ترض شيئا كان في الناس مرضيا

بسطت لنا شرقا وغربا يد العلا ... فأوسعت شرقيا وأوسعت غربيا

ووشيت وجه الارض بالجود والندى ... فأصبح وجه الارض بالجود موشيا

قضى الله أن يصفو لهارون ملكه ... وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تحلبت الدنيا لهارون بالرضا ... فأصبح نقفور لهارون ذميا

فلما فرغ من إنشاده، قال : أوقد فعل نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك فكر راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى اتاح بفنائه. فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد .

الطبري : تاريخ 307/8

## 57 ـ فتح الرشيد هرقلة

وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دخلها ـ فيما قيل ـ في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لاديوان له، وأتاح عبد الله بن مالك على ذى الكلاع ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحا في أرض الروم في سبعين ألفا. وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبسة، وافتتح زيد بن مخلد الصفصاف وملقوبية ـ وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال ـ وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوما عليها، وولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام الى مصر، فبلغ حميد قبرس، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا، فأقدمهم الرافقة، فتولى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرس الفي دينار.

وكان شخوص هارون الى بلاد الروم لعشر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتوبا عليها «غاز حاج»، فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمر ... وفي أرض الترفه فوق كور

وماحاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الامور

ثم صار الرشيد الى الطوانة، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبى هرقلة كتابا نسخته :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم. سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، ان لي اليك حاجة لاتضرك في دينك ولادنياك، هينة يسيرة أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتها على ابني، فان رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

واستهداه أيضا طيبا وسرادقا من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور، وبعث اليه بما سأل من العطر،

وبعث اليه من التمور والاخبصة والزبيب والترياق، فسلم ذلك كله اليه رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون، واثني عشر بازيا، وأربعة أكلب من كلاب الصيد، وثلاثة براذين.

الطبري : تاريخ 8 ــ 320.

## 58 ــ العلاقات بين المأمون وتوفيل البيزنطي
## كتاب توفيل الى المامون ورد المأمون عليه

وفيها كتب توفيل صاحب الروم الى المأمون يسأله الصلح، وبدأ بنفسه في كتابه. وقدم بالكتاب الفصل وزير توفيل يطلب الصلح، وعرض الفدية.

وكانت نسخة كتاب توفيل الى المامون :

أما بعد، فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولست حريا أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك، وفي علمك كاف عن اخبارك، وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة، راغبا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة، فان أبيت فلا ادب لك في الخمر، ولاأزخرف لك في القول، فانى لخائض اليك غمارها، آخذ عليك اسدادها، شأن خيلها ورجالها وان أفعل فبعد أن قدمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك علم الحجة. والسلام.

**فكتب اليه المامون :**

أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت اليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة، مما استعطفت به، من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الاسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا مارجعت اليه من أعمال التؤدة والاخذ بالحظ في تقليب الفكرة، والا اعتقد الرأي في مستقبله الا في استصلاح مأأوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله مانالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل اليهم من الامداد، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم،

موعدهم احدى الحسنيين : عاجل غلبة، أو كريم منقلب، غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فان أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا مايغنى عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى.

الطبري : تاريخ 8 ــ 629

## 59 ــ وقعــة عمــوريــة

ودخلت الروم زبطرة سنة 223، فقتلوا وأسروا كل من فيها، وأخرجوهم فلما انتهى الخبر الى المعتصم قام من مجلسه نافرا، حتى جلس على الارض، وندب الناس للخروج، ووضع الاعطاء، وعسكر من يومه بموضع يعرف بالعيون من غربى دجلة، وقدم اشناس التركي على مقدمته، وخرج يوم الخميس لست خلون من جمادى الاولى سنة 223، ودخل أرض الروم، فقصد أرض عمورية ، وكانت من أعظم مدائنهم، وأكثرها عدة ورجالا، فحاصرها حصارا شديدا.

وبلغ طاغية الروم فزحف في خلق عظيم، فلما دنا وجه المعتصم بالافشين في جيش عظيم، فلقى الطاغية، وأوقع به وهزمه، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، فأوفد طاغية الروم من قبله وفدا الى المعتصم يقول : ان الذين فعلوا بزبطرة مافعلوا تعدوا أمرى، وأنا أبنيها بمالي ورجالي، وأرد من أخذ من أهلها، وأخلى جملة من في بلد الروم من الاسارى، وأبعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة.

وفتحت عمورية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة 223، فقتل وسبى جميع من فيها وأخذ ياطس خال ملك الروم، وأخرب وأحرق كل ماجتاز به من بلادهم، وانصرف، فلما صار بأذنه حبس العباس ابن المأمون لما كان بلغه من المعصية والخلاف واجتماع من اجتمع اليه من القواد، ووجد له مائة الف وستة عشر ألف دينار، فأمر أن تفرق على الجند، ويؤمروا أن يلعنوه، فأحصوا، فوجدوا ثمانين ألف مرتزق، فدفع اليهم دينارين دينارين، وتمم ذلك المعتصم من عنده، ودفع العباس الى الافشين مقيدا ليسيره، فلما صار بحمد رأس توفي، وقيل أن الافشين أطعمه طعاما كثير الملح في يوم شديد الحر، ومنعه الماء، فحمل الى منبج، فدفن بها، وسخط المعتصم على عجيف بن عنبسة لأنه كان سبب معصيته، وحمله من

أذنة في الحديد الثقيل. في فيه لبود قد خيطت عليه. وفي عنقه غل عظيم. فلما صا. بموضع يقال له باعيناثا. على مرحلة من نصيبين. مات. ودفن بها. وسأل ابنه صالح بن عجيف أن لاينسب اليه. وأن يدعى صالحا المعتصم ولعنه. وبريء منه.

اليعقوبي : تاريخ 2 ـ 475

# الباب الخامس

# التنظيمات السياسية والادارية

## 60 ـ كيف ينظر المنصور الى منصب الخلافة

وذكر عمر بن شبة ان محمد بن عبد الوهاب المهلبي، حدثه، قال : سمعت اسحاق بن عيسى يقول : لم يكن أحد من بني العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير ابي جعفر وداود بن علي والعباس بن محمد.

وذكر عن أحمد بن خالد، قال : حدثني اسماعيل بن ابراهيم الفهري، قال : خطب المنصور ببغداد في يوم عرفة ـ وقال قوم : بل خطب في أيام منى ـ فقال في خطبته : أيها الناس، انما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بارادته، وأعطيه باذنه، قد جعلني الله عليه قفلا، اذا شاء ان يفتحني لاعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى، واذا شاء أن يقفلني اقفلني، فارغبوا الى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، اذ يقول تبارك وتعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» ان يوفقني للصواب ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم، ويفتحني لاعطياتكم.

الطبري 8 ـ 89

## 61 ـ المأمون يدافع عن حقه في الخلافة

وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انـزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم : اصيبوا من الطعام والشراب وحددوا الوضوء، ومن خفه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك الى أن

نزول الشمس، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون، قال : فانه يوما لجالس اذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة، فقلت : انه بعض الصوفية فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له، فبدأ المأمون فقال : ائذن له، فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون : وعليك السلام، فقال : أتأذن لي في الدنو منك ؟ قال : ادن، فدنا، ثم قال : اجلس، فجلس، ثم قال : أتأذن لي في كلامك ؟ فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا، قال : أخبرني عن هذا المجلس الذي انت قد جلسته باجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك ؟ قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم، انما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي احمده المسلمون اما على رضا واما على كره فعقد لى ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في اعناق من حضره من المسلمين، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لى ولآخر معي فأعطوه ذلك اما طائعين واما كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذا السبيل التي مضى عليها، فلما صار الأمر الى علمت اني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام ومرج عهدهم، وانتقضت اطرافه، وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى، ولم يحج احد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السبل، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم، وأخذا على أيديهم، الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به فأسلم الأمر اليه، وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل رسولي الى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت اليه من هذا الأمر، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقام ، فأمر المأمون على ابن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه من يعرف مقصده، ففعل ذلك ثم رجع وقال : وجهت يا أمير المؤمنين من اتبع الرجل فمضى الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته وزيه فقالوا له : لقيت الرجل؟ فقال: نعم! قالوا: فما قال لك؟ قال: ما قال لى الا خيرا ذكر انه ضبط أمور المسلمين الى أن تأمن سبلهم ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا يعطل الأحكام، فاذا رضي المسلمون برجل سلم الأمر اليه وخرج اليه منه، قالوا : ما نرى بهذا بأسا، وافترقوا، فأقبل المأمون على

يحيى فقال : كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب، فقلت : الحمد لله الذي الهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول والفعل.

المسعودي : مروج 4 ـ 19

## 62 ـ رأي في الخلافتين الأموية والعباسية

وأما خلافة بني أمية، فكانت قد عظمت وتفخم أمرها وعرضت ممتلكاتها، ولكن طاعتهم لم تكن كطاعة هؤلاء، كان بنو أمية في الشام، وكان بنو هاشم بالمدينة لا يلتفتون اليهم، واذا دخل الرجل الهاشمي على الخليفة من بني أمية، أسمعه غليظ الكلام وقال له كل قول صعب.

وأما الدولة العباسية، فلم تبلغ طاعة الناس لها ما بلغت هذه الدولة، مع أن مدتها طالت حتى تجاوزت خمسمائة سنة، ومملكتها عرضت حتى أن بعضهم جبىمعظم الدنيا، وستقع الاشارة الى ذلك عند الكلام على دولة بني العباس. وحاصل الدنيا في أيام الرشيد في حسبة جامعة تشتمل عليها كتب التاريخ يدل على ذلك. فأما اوائلهم فجبوا شطرا صالحا من الدنيا وقويت شوكتهم كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم والمعتضد والمتوكل. ومع ذلك، فلم تكن دلوتهم تخلو من ضعف ووهن من عدة جهات، منها امتناع الروم عليهم، وقيام الحرب بينهم وبين ملوكها النصارى في كل سنة على ساق . ومع ذلك، فكانت جبايتها تستصعب عليهم، وملوكها لا يزالون على الامتناع منهم. وقد كان من أمر المعتصم وعمورية ما بلغك. ولعل طرفا منه يبلغك في هذا الكتاب، عند الكلام في الدولة العباسية.

ابن طباطبا : الفخري ص 25

## 63 ـ ادارة المنصور

ولما نكب أبو جعفر أبا أيوب في سنة ثلاث وخمسين ومائة قلد الخاتم الفضل بن سليمان الطوسي، وقلد كتابة الرسائل والسر، ابان ابن صدقة، وقلد ضياعه صاعدا مولاه، وفي صاعد ومطر مولى ابي جعفر، يقول أبو الأسد الأعرابي :

وسائل عن حمارى كيف حالهما سلني فعندي حقيقة الخبر
لا خير في صاعد فتطلبه والخير يأتيك من يدي مطر
واي خير ياتيك من رجل ليس لانثى يدعى ولا ذكر
ليس له غير نفسه نسب كأنه ادم أبو البشر

وقلد ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة، وقلد ديوان خراج الكوفة وأرضها عمرو بن كيلغ في سنة خمس وخمسين ومائة، ثم صرفه عنه وقلده ثابت بن موسى، وحبس عمرو بن كيلغ، واستخلف ثابت محمد بن جميل لمصاهرة كانت بينه وبينه، وأمره بالعرض على المنصور اذا لم يحضر. فخف على قلب المنصور فأقام معه مقام ثابت، وكان ثبت يقول اذا مر به محمد ابن جميل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وكان محمد بن جميل في غاية الحذق والخفة.

وقلد الربيع مولاه نفقاته والعرض عليه، وهو الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة، واسم ابي فروة كيسان مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان.

وكان يونس بن محمد شاريا شاطرا بالمدينة، فعلق أمة لقوم بالمدينة، فوقع عليها فجاءت بالربيع واستعبد ، ولم يكن ليونس حال فيبتاعه، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي العباس، وأهداه اليه فخدمه وخف على قلبه، ثم خدم أبا جعفر فخص به.

ولما عزم المنصور على تقليد الربيع العرض عليه قال اجلس في بيتك حتى يأتيك رسولي، فاغتم لذلك، فصار اليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية، فقال له البس هذا واركب بهذا الزي فركب، فأمر الفراش ان يطرح له مرفقة تحت البساط تقصيرا به عن منزله المهدي وعيسى بن علي لانه كان يطرح لهما مرفقتين ظاهرتين.

فلما وصل اليه قال له ، قد وليتك الوزارة والعرض، ووليت ابنك الفضل الحجابة، فدخل عليه الربيع يوما والفضل يمشي خلفه، فأخذ الربيع بيده وقال ان الحاجب لا يمشي خلف انسان، فقال له المنصور بلى يا ربيع هذا معك أنت وحدك.

وكانت ارزاق الكتاب والعمال في زمان ابي جعفر للرؤساء ثلاثمائة درهم للرجل ونحو ذلك، وكذلك كانت في أيام بني أمية، وعلى ذلك جرت الى أيام المأمون، فان الفضل بن سهل وسع الجاري.

الجهشياري : كتاب الوزراء ص 88

## 64 ـ أول وزراء العباسيين

ـ وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني، مولى لسبيع، وكان في نفس أبي العباس منه شيء لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم الى السفاح يشير عليه بقتله، ويقول له : قد احل الله لك دمه، لأنه قد نكث وغير وبدل، فقال السفاح : ما كنت لافتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي، لاسيما مثل أبي سلمة، وهو صاحب هذه الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح أمامه، وجاهد عدوه، وكلمه أبو جعفر أخوه وداود بن علي عمه في ذلك . وقد كان أبو مسلم كتب اليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله، فقال أبو العباس : ما كانت لافسد كثير احسانه وعظيم بلائه وصالح ايامه بزلة كانت منه، وهي خطرة من خطرات الشيطان، وغفلة من غفلات الانسان، فقالا له : فينبغي يا أمير المؤمنين أن تحترس منه، فإنا لا نأمنه عليك، فقال : كلا انى لآمنه في ليليونهاري وسري وجهري ووحدتي وجماعتي فلما اتصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه، وخاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بمكروه، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة، وقد كان أبو العباس يأنس بأبي سلمة ويسمر عنده، وكان أبو سلمة فكها ممتعًا اديبًا عالمًا بالسياسة والتدبير، فيقال : ان ابا سلمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالانباروليس معه احد، فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه .

المسعودي : مروج 3 ـ 284

## 65 ـ وزارة يحيى البرمكي

ولما تقلد هارون الخلافة دعى يحيى بن خالد ، وكان يخاطبه بالأبوة، وعلى ذلك أجراه في خلافته، فقال له : يا أبتي أنت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي اليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من رأيت، واسقط من رأيت، فاني غير ناظر معك في شيء فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسا عاما في كل يوم الى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم لا يحجب

أحد، ولا يلقى لهم ستر. وقام يحيى بالأمور، وكان يعرض على الخيزران، ويورد ويصدر عن أمرها، واحتفر القاطول، واستخرج نهرا سماه أبا الحيل، وأنفق عليه عشرين ألف ألف.

وقلد ثابت بن موسى ديوان العراقين وخراج الشام، وأمر باجراء القمح على أهل الحرمين، وتقدم بحمله من مصر اليهم، وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات.

واتخذ كتاتيب لليتامى. وكانت الدواوين كلها الى يحيى بن خالد مع الوزارة سوى ديوان الخاتم، فانه كان الى أبي العباس الطوسي.

وكان يحيى أول من أمر من الوزراء، وكان أول من زاد في الكتب : «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله» وأنشأ في ذلك كتابا، وذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام.

وكان الرشيد ساخطا على ابراهيم بن ذكوان الحراني. فحبسه وقبض أمواله، فحبسه يحيى في داره، وكفه عنه، وتلطف الى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبي جعفر، وكان يلي البصرة فأشخصه.

وأمرت الخيزران ان يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد، ودعا الى بيعة جعفر بن الهادي، فقال لها يحيى : أو خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : يرمي بهم في نحور الأعداء ، فان دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وان أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم، فأذنت له في ذلك، فتخلص القوم جميعا.

وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد، ولم تكن تنفذ الا عن الخليفة.

وكان أبو العباس الطوسي يتعقد في ختم الكتب، فشكا يحيى الى الرشيد تأخر الكتب، فأمره ان يكاتب العمال عن نفسه، وأمر كتابه ان يكتب عنه في المهم، وأن يؤرخ الكتب باسم الكاتب.

قال الفضل بن مروان : وأحسب الكاتب كان منصور بن زياد، وقرب يحيى بن خالد منصور بن زياد هذا واختصه، حتىكان الناس ربما توسلوا به في حوائجهم.

وكان من كتابه يوسف بن سليمان، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن، ويحيى بن سليمان، ومحمد بن أعين، وعبد الله به عبدة.

وحكى ان أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان، على باب يحيى ابن خالد. وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم، ولقيهم ببشر وطلاقة.

الجهشياري : كتاب الوزراء ص 143

## 66 ـ تقليد الفضل بن سهل سلطات واسعة

ولما استقامت الأمور للمأمون رد التدبير الى ذي الرياستين، ومضاها على رأيه، وكتب الى طاهر وهرثمة بتسليم ما في أيديهما من العمل الى علي بن أبي سعيد، ابن خالة الفضل بن سهل، وكان يعرف بذي القلمين.

وكان علي بن ابي سعيد كريما متكبرا، قليل الضحك، وذكر الاصمعي انه اجتهد في أن يضحكه فما ضحك الا مرة متبسما، قال : ولقد اضحكت الرشيد ويحيى بن خالد فمن دونهما، قال وأمر لي مرة بطيلسان، فلما ألقاه الغلام علي، لزمت الذي كان علي بيدي جميعا، فقال لغلامه : ألبسه فوقه، فألقاه فوق طيلساني، فمسسته بيدي، فقال لي كأنه تسترقه ؟ قلت نعم. فأمر لي بطيلسان اصفق منه، فلما ذهب الغلام ليلقيه علي، أمسك الطيلسانين الأولين بيدي، فقال للغلام : ألبسه فوقهما، فألقاه علي، فقمت وعلي ثلاثة طيالسة، فتبسم حينئذ، وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

ثم قلد المأمون الحسن بن سهل خلافته، وأنفذه الى العراق، فلما خرج من حضرته خرج معه مودعا له، فلما بلغ غاية المشيع قال له : أذكر يا أبا محمد حاجة ان كان لك، فقال له، نعم يا أمير المؤمنين ، احفظ علي من قلبك ما لا أستطيع حفظه الا بك.

ولقب المأمون الفضل بن سهل «ذا الرياستين» ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير، وعقد له على سنان ذي شعبتين، واعطاه مع العقد علما قد كتب عليه لقبه، فحمل العقد على بن هشام، وحمل العلم نعيم بن حازم.

وكان الفضل يؤمر مع الوزارة، وهو أول وزير لقب، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأمير.

وذكر عيسى بن محمد بن حميد أنه رأى توقيعا بخط المأمون للفضل بن سهل: «أغنيت، يا فضل بن سهل بمعاونتك اياي على طاعة الله، واقامة سلطاني، فرأيت أن اغنيك ، وسبقت الناس من الحاضر كان لي، والغائب كان عني، فأحببت أن

اسبق الى الكتاب لك بخطي، بما رأيته على نفسي، وأنا أسال الله تمامه، فان حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به. لا شريك له، وقد اقطعتك السيب بأرض العراق، على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين. عطاء لك ولعقبك، لما انت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي، ولما قمت به من حق الله وحقي، فلم تأخذك في لومة لائم، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت من أمرتك به، من العمل لله ولنبيه، والقيام بصلاح دولة انت ولي بقيامها، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله، وجعلته لك كفيلا على عهدي. وكتبت بخطى سنة ست وتسعين ومائة.

وكان ذو الرياستين يقول لكتابه : قاربوا بين الحروف، لئلا يسافر البصر سفرا بعيدا في حروف قليلة.

قال الفضل بن مروان : قال لي المأمون : جهدت بالفضل بن سهل الجهد كله أن أزوجه بعض بناتي، فأبى، وقال : لو سلبتني ما فعلت.

وكان الفضل بن سهل سخيا سريا، نبيل النفس، كثير الأفضال، يذهب مذاهب البرامكة في ذلك، وكان غليظ العقوبة اذا عاقب، مقدما اذا انكر، حسن الرجوع اذا استعطف، وكان حسن البلاغة، مستقلا بما يحتاج اليه من حل محله.

وحكى أنه كان ربما انكر على بعض اصحابه شيئا، فاذا تقرب اليه بخدمة او مناولة شيء، أو ملازمة، زال ما في نفسه.

الجهشياري : ص 250

## 67 ـ الوزارة عند العباسيين

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصار اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحساب لما تحتاج اليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج الى النظر الى جمعه وتفريقه وأضيف اليه النظر فيه ثم جعل لها النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السلف والقلم

وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب. فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك.

ابن خلدون

كتاب العبر ط. بيروت 1967 ص 422

## 68 ـ استعلامات المنصور

علي بن بريهة الهاشمي قال : قال صاحب عذاب أبي جعفر : دعاني أبو جعفر المنصور ذات يوم واذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها : ويلك اصدقيني فوالله ما أريد الا الالفة ولئن صدقتني لاصلن الرحم ولاتابعن البر اليه، واذا هو يسائلها عن محمد بن عبد الله وهي تقول : ما أعرف مكانه، ودعا بالدهق وأمر به فوضع عليها فلما كادت نفسها ان تتلف قال : أمسكوا عنها ، وكره ما رأى وقال لاصحاب العذاب : ما دواء مثلها اذا صار الى مثل حالها ؟ قالوا : الطيب تشمه والماء البارد يصب على وجهها وتسقى السويق، فأمر لها بذلك وعالج بعضه بيده وقال لاصحاب العذاب : ألا أعلمتموني بما ينالها فأكف عنها ؟ قالوا : قد علمنا أنها لاتقوى على هذا ولكنا هبناك، فما زالوا يردون عليها نفسها حتى أفاقت، وأعاد عليها المسألة فأبت الا الجحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فاسود. وجهها وتغيرت، فقالت : نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم، قال : صدقت: هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها، في كل شهر وكسوة شتائها وصيفها، أمرتها ان تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف ثم قال : أوتعرفين فلانا البقال ؟ قالت : نعم هو في بني فلان. قال : هو والله مضاربي بخمسة دنانير امرته ان يبتاع بها كل ما يحتاج اليه من البيوع فأخبرني ان أمة لكم يوم كذا وكذا من شهر كذا صلاة المغرب جاءت تسأله حناء وورقا، فقال لها : ما تصنعين بهذا ؟ فقالت : كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة فأردنا هذا لنتخذ منه النساء ما يحتجن اليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فأسقط في يدها واذعنت بكل ما أراد.

البيهقي : المحاسن والمساوئ ـ 148

## 69 ـ صاحب الخـبـر

قال ابراهيم بن السندي : بعث الى المأمون فأتيته فقال : يا ابراهيم اني اريدك لامر جليل والله ما شاورت فيه أحدا ولا أشار بك احد، فاتق الله ولا تفضحني. فقلت : ياسيدي لو كنت شر خلق الله ما تركت موضع قادح فكيف ونيتي في طاعة امير المؤمنين نية العبد الذليل لمولاه ؟ قال : قد رأيت أن أوليك خبر ما وراء باب داري فانظر ان تعمل بما يجب عليك لله جل عز وجل ولي ولا تراقب أحدا، فقلت : ياسيدي اني استعين بالله عز وجل على مرضاته ومرضاتك ، فبعثت أصحاب الأخبار في الارباع ببغداد فرفع الي بعضهم أن صاحب ربع الحوض أخذ امرأة مسلمة مع رجل نصراني من تجار الكوخ فافتدى نفسه بألف دينار، فرفعت اليه ذلك فدعا عبد الله بن طاهر فقال له : انظر في هذا الذي رفعه الى صاحب الخبر، فقرأه وقال : رفع يا أمير المؤمنين الباطل والزور وأغراه بي فعمل قوله في وملأ قلبه، فبعث الى وقال : يا ابراهيم ترفع الى الكذب وتحملني على عمالي ؟ فكتبت رقعة دفعتها الى فتح الخادم ليوصلها اليه قلت فيها : انما يحضر الأخبار في الأرباع المرأة والطفل وابن السبيل وغير ذلك، ولو كانت الأخبار لا ترفع الا بشهود عدول ما صح خبر ولا كتب به، ولكن مجرى الأخبار ان يحضرها قوم على غير توطؤ، فان امرني أمير المؤمنين أن لا أكتب اليه بخبر الا بعدول وبرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع في السنة خبر واحد. فلما قرأ الرقعة فكر فيها ليلته وجاءني رسوله مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمام فلما رآني قال : اطمأنن. وقام فصلى ركعتين أطال فيهما ثم سلم والتفت الى وليس في المجلس غيري فقال : يا ابراهيم انما قمت للصلاة ليسكن بهرك ويقوى متنك ويفرخ روعك فتمكن في قعودك، وكنت قاعدا على ركبتي، فقلت : لا أضع قدر الخلافة يا سيدي ولا أجلس الا جلوس العبد بين يدي مولاه. ثم قام فصلى ركعتين دون الاوليين ثم قال : هذه رقعتك تحت رأسي قد قرأتها اربع مرات وقد صدقت في ما كتبت به ولكني امرؤ اداري عمالي مداراة الخائف وبالله ما أجد الى أن احملهم على المحجة البيضاء سبيلا، فاعمل على حسب ذلك ولن لهم تسلم منهم وفي حفظ الله اذا شئت. فانصرفت فدعوت اصحاب الأخبار فتقدمت اليهم في مداراة القوم والرفق بهم واللين لهم.

البيهقي : المحاسن ـ ص 199

## 70 ـ الحجابة في عهد العباسيين

قال : وقال المهدي للفضل بن الربيع حين ولاه الحجبة : اني موليك ستر وجهي وكشفه فلا تجعل الستر بيني وبين الناس سبب اراقة دمائهم بعبوس وجهك في وجوههم فان لهم دالة الحرمة وحرمة الاتصال وقدم أبناء الدعوة وثن بالأولياء واجعل للعامة وقتا اذا وصلوا اعجلهم ضيقه عن التلبث والتمكث، وكان اول من حجبه الحسن بن عثمان ثم الفضل بن الربيع، وكان الهادي ولي حجبته الفضل بن الربيع بعد الربيع وقال له : لا تحجب عني الناس فان ذلك يزيل عني التزكية ولا تلق الى أمرا اذا كشفته وجدته باطلا فان ذلك يوهن الملك ويضر بالرعية.

قيل : وقال الواثق لابن ابي دؤاد : من أولى الناس بالحجبة؟ فقال : مولى شفيق يصون بطلاقة وجهه من ولاه ويستعبد الناس لمولاه، فنظر الى ايتاخ وكان واقفا على رأسه فقال : قد ولاك أبو عبد الله الحجبة . فكان ايتاخ يعرف ذلك له ويتقدم بين يديه الى أن يبلغ مرتبته.

وكان ليحيى بن خالد حاجب قبل الوزارة ، فلما صار الى الوزارة رأى كأنه تثاقل عن حجابته فقيل له : لو اتخذت حاجبا غيره، قال : كلا ، هذا يعرف اخواني القدماء، وقال الشاعر في مثله :

متى اذا نزل الوفود ببابه ... سهل الحجاب مؤدب الخدام
واذا رأيت شقيقه وصديقه ... لم تر أيهما أخو الأرحام

البيهقي : المحاسن : 160

## 71 ـ مشاكل القضاء

ومما ينظر امير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلالها أمرا عظيما في الدماء والفروج والأموال. فيستحل الدم والفرج بالحيرة. وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى، غير أنه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضى به قضاة جائز امرهم وحكمهم. مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق الا قد لج بهم العجب بما في ايديهم، والاستخفاف بمن سواهم، فاقحمهم ذلك في الأمور التي يتبيغ بها من سمعها من ذوي الألباب.

أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس سنة سنة، حتى يبلغ ذلك به الى ان يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم انه سنة. واذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ائمة الهدى من بعده، واذا قيل له: اي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قال : مثل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض اولئك الأمراء. وانما يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين . ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه. وهو مقر انه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة.

فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع اليه في كتاب، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله، ويعزم عليه عزما وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابا جامعا، ولرجونا ان يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا، لرجونا أن يكون اجتماع السير قرينة لاجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من أمام آخر آخر الدهر ان شاء الله.

فأما اختلاف الأحكام، اما شيء مأثور عن السلف غيرمجمع عليه، يديره قوم على وجه ويديره آخرون على وجه آخر. فينظر فيه الى أحق الفريقين بالتصديق،وأشبه الأمرين بالعدل، واما رأى أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ، بغلط في أصل المقايسة، وابتداء أمر على غير مثاله واما لطول ملازمته القياس. فان من أراد ان يلزم القياس ولا يفارقه أبدا في أمر الدين والحكم، وقع في الورطات، ومضى على الشبهات، وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره، فأبى ان يتركه كراهة ترك القياس، وانما القياس دليل يستدل به على المحاسن، فاذا كان ما يقود اليه حسنا معروفا اخذ به، واذا قاد الى القبيح المستنكر ترك، لان المبتغى ليس عين القياس يبغي، ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق الحق بأهله. ولو أن شيئا مستقيما على الناس ومنقادا حيث قيد لكان الصدق هو ذلك، ولا يعتبر بالمقاييس، فانه لو أراد ان يقوده الصدق لم ينقد له، وذلك ان رجلا لو قال : اتأمرني ان اصدق فلا أكذب كذبة أبدا ؟ لكان جوابه ان تقول : نعم. ثم لو التمس منه قول ذلك، فقال : أأصدق في كذا وكذا ؟ حتى تبلغ به أن يقول الصدق في رجل هارب استدله عليه

طالب ليظلمه فيقتله، لكسر عليه قياده. وكان الرأي له ان يترك ذلك وينصرف الى المجمع عليه المعروف المستحسن.

ابن المقفع : رسالة الصحابة

## 72 ـ تحري المأمون في القضـاء

«قال بشر بن الوليد : كان والله المأمون الملك حقا، ما رأيت خليفة قط كان الكذب عليه أشد منه على المأمون.وكان يحتمل كل آفة تكون بالانسان الا الكذب. قال : فقال لي يوما : صف لي أبا يوسف القاضي فاني لم اره. فوصفته له، فاستحسن صفته وقال : وددت ان مثل هذا بحضرتنا فنتزن به، ثم أقبل على وقال : ما في الخلافة شيء الا وأنا احسن ان ادبره وأبلغ منه حيث اريد وأقوى عليه الا أمر اصحابك، يعني القضاة، وما ظنك بشيء يتحرج منه علي بن هشام ويتوقى سوء عاقبته ويكالب عليه الفقهاء وأهل التصنع ؟ قال قلت : يا أمير المؤمنين ما ادرى ما تقصده فأجيب عنه ؟ قال لكني أدريه وأدريك ولا والله ما تجيبني عنه ولا فيه بجواب مقنع ! قال : ولينا رجلا اشرت به قضاء الابلـة واجرينـا عليـه فـي الشهـر الف درهم وما له صناعة ولا تجارة ولا كان له مال قبل ولايتنا اياه .. وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم في الشهر أشار به الى محمد بن سماعة، فأقام بها أربعة عشر شهرا، فوجهنا من يتتبع امواله في السر والعلانية ويتعرف حاله، فأخبر انه وجد ما ظهر من ماله هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة الاف دينار، وولينا رجلا أشار به الى فلان نهاوند فأقام بها اربعة وعشرين شهرا، فوجهنا من يتتبع امواله فأخبرنا ان في منزله خدما وخصيانا بقيمة الف وخمسمائة دينار سوى نتاج قد اتخذه، فهات ما عندك من الجواب ! فقلت : ما عندي يا أمير المؤمنين جواب. قال : ألم اعلمك ؟ ثم قال : وأكبر من هذا وأطم اني فزعت الى علي بن هشام في رجل أوليه القضاء فقال : قد أصبت واحدا والله يشهد انه سرني ورجوت ان يكون بحيث أحب، قلت : فاغد به على ، قال : افعل، ثم غدا ، فقلت : أين الرجل ؟ فقال : لم أجده في الفقه بالموضوع الذي يجب ان يتصل صاحبه بأمير المؤمنين. قال : فأنكرت عليه وأظهرت الغضب. فقال : يا أمير المؤمنين ان الرجل الذي ذكرته لك بالامس هو على بن مقاتل وكان عندي من أهل العفاف والستر، فانصرفت بالامس على أن أحضره، فوجهت اليه وأنا لا أشك انه سيظهر الكراهية في



9

ما اراد له أمير المؤمنين وان كان يستبطن غيرها ويستعفى كفعل من يتصنع أو يكره ذلك بالحقيقة، فلما جاءني القيت اليه الذي اردته له فما تمالك أن وثب فقبل رأسي، فعلمت انه لا خير عنده وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعد الذي دعى اليه احدى المصائب، فلم ار لنفسي ان احضره ولا أن يستعان بمثله، فقلت : جزاك الله خيرا عن امامك احسن ما جزى أمرأ عن أمامه وعن دينك ونفسك، قال بشر : فبهت وانقطعت ولم احر كلمة.. فقال : لا ولكن انأردت العفيف النظيف الزاكي التقى الطاهر فقاضى الري هو بالحجة التي فارقته عليها والله ما غير ولا بدل، فأما قولكم في يحيى بن أكثم فما ندري ما عيبه الا أن ظاهره أنه اعف خلق الله عن الصفراء والبيضاء، ميل الينا من اموال الحشوية أربعمائة ألف دينار، فأي نفس تسخو بهذا ؟

البيهقي : المحاسن ـ 151

## 73 ـ نظام البريد العباسي

قال ابو الفرج : يحتاج في البريد الى ديوان يكون مفردا ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصودا بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شيء منها الى الموضع المرسوم بالنفوذ اليه. ويتولى عرض كتب اصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة او عمل جوامع لها. ويكون اليه النظر في امر الفرانقيين والموقعين والمرتبين في السكك وتنجز ارزاقهم وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الأمصار. والذي يحتاج اليه في صاحب هذا الديوان هو ان يكونثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالأمر في وقته. لان هذا الديوان ليس فيه منالعمل ما يحتاج الى الكافي المتصفح، وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ. والرسوم التي يحتاج اليها من امر الديوان هي ما يقارب الرسوم التي بيناها في غيره مما يضبط به اعماله واحواله. فأما غير ذلك من أمر الظرف ومواضع السكك والمسالك الى جميع النواحي، فانا لم نذكره ، ولا غنى بصاحب هذا الديوان ان يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع فيه الي غيره، وما ان سأله عنه الخليفة وقت الحاجة الى شخوصه وانفاذ جيش يهمه امره وغير ذلك مما تدعو الضرورة علم الطرق بسببه يوجد عتيدا عنده ومضبوطا قبله ولم يحتج الى تكلف عمله والمسألة عنه.

قدامة بن جعفر : كتاب الخراج

.. ان هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربها من جهة البر ومنها بحرية تلقاها وتواجهها من جهة البحر ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر. والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها. والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية. فلنبدأ بذكرها وهي طرسوس واذنه والمصيصه وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس. وارتفاعها نحو مائة الف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها، وفي المراقب والحرس والفوائير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال. ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك. وراتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتا الف دينار وعلى المبالغة يتسع ثلثمائة الف دينار. والذي يلقاها من بلاد العدو ويتصل بها اما من جهة البر فالغباق ويقرب منها الناطليق ومن جهة البحر سلوقية، وعواصم هذه الثغور وماوراءها الينا من بلدان الاسلام، وانما سمى كل واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمده في اوقات النفير، ثم ينفر اليه من أهل انطاكية والجومة والقورس.

ثم نتبع ذلك بوصف أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلا محفوظا فنقول : ان اجهدها مما يعرفه اهل الخبرة من الثغريين ان تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة ايام تخلو من أيار. بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية ايار وعشرة من حزيران، فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا، ثم يقفلون، فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ويجمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما. فأما الشواتي، فانى رأيتهم جميعا يقولون ان كان لابد منها، فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون ذلك في آخر شباط، فيقيم الغزاة الى أيام تمضي من اذار، فانهم يجدون العدو في ذلك الوقت اضعف ما يكون نفسا ودواب ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون .

قدامة : كتاب الخراج

## 75 ـ جـنـد خـراسان

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين ، أمتع الله به، امر هذا الجند من أهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام، وفيهم صفة بها يتم فضلهم ان شاء الله اما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس، وعفاف نفوس وفروج، وكف عن الفساد وذل للولاة فهذه حال لا نعلمها توجد عند احد غيرهم، وأما ما يحتاجون فيه الى النفعة من ذلك تقويم ايديهم ورأيهم وكلامهم، فان في ذلك القوم اخلاطا من رأس مفرط غال، وتابع متحير شاك. ومن كان انما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من راه. والراكب أشد وجلا . فلو أن أمير المؤمنين كتب أمانا معروفا بليغا وجيزا محيطا بكل شيء يجب ان يعملوا فيه او يكفوا عنه، بالغا في الحجة قاصرا عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم، حتى يقودوا به دهماءهم، ويتعهدوا به منهم من دونهم من عرض الناس، لكان ذلك ان شاء الله برأيهم صلاحا، وعلى من سواهم حجة، وعند الله عذرا، فان كثيرا من المتكلمين من قواد امير المؤمنين اليوم انما عامة كلامهم، فيما يأمر الآمر ويزعم الزاعم، ان امير المؤمنين لو أمر الجبال ان تسير سارت ، ولو امر ان تستدير القبلة بالصلاة فعل ذلك، وهذا كلام قل ان يسمعه من كان مخالفا، وقلما يرد في سمع السامع الا احدث في قلبه ريبة وشكا.

والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو اقوى للامر، واعز للسلطان وأقمع للمخالف، وأرضى للموافق، وأثبت للعذر عند الله عز وجل.

ابن المقفع : رسالة الصحابة

## 76 ـ سياسة المنصور في اختيار الولاة

وولى أبو جعفر أهل بيته البلدان، فولى اسماعيل بن على فارس، وسليمان ابن على البصرة، وعيسى بن موسى الكوفة، وصالح بن على قنسرين والعواصم والعباس بن محمد الجزيرة، وعبد الله بن صالح حمص، والفضل بن صالح دمشق، ومحمد بن ابراهيم الاردن، وعبد الوهاب بن ابراهيم فلسطين، والسرى بن عبد الله بن تمام بن العباس بن عبد المطلب مكة، وجعفر بن سليمان المدينة، ويحيى بن محمد الموصل ، ثم صرفه وولى ابنه جعفرا، وصير معه هشام بن عمرو .

وكان عماله من العرب يزيد بن حاتم المهلبي. ومحمد بن الاشعث الخزاعي. وزياد بن عبيد الله الحارثي، ومعن بن زائدة الشيباني. وخازم بن خزيمة التميمي. وعقبة بن سلم الهنائي. ويزيد بن أسيد السلمى. وروح بن حاتم المهلبي. والمسيب بن زهير الضبى. وعمر بن حفص المهلبي. والحسن بن قحطبة الطائى. وسلم بن قتيبة الباهلى. وجعفر بن جنظلة البهرانى. والربيع ابن زياد الحارثي. وهشام بن عمرو التغلبى. فكان ينقل هؤلاء في أعماله لثقته بهم واعتماده عليهم. وكان عماله من مواليه : عمارة بن حمزة. ومرزوقا ابا الخصيب. وواضحا. ومنارة. والعلاء. ورزينا. وغزوان. وعطية. وصاعدا. ومريدا. وأسدا. والربيع.

اليعقوبي : تاريخ 2 ـ 384

## 77 ـ من وصية طاهر بن الحسين
## عند توليته لابنه عبد الله على ديار بكر

واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا. وانما سمى اهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم. وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم. وتقويم أودهم. فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأي والتدبير. والتجربة. والخبرة بالعمل . والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق . فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل. ولا يصرفنك عنه صارف. فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الاحدوثة في عملك واحترزت المحبةمن رعيتك واعنت على الاصلاح. فدرت الخيرات ببلدك. وفشت العمارة بناحيتك. وظهر الخصب في كورك. فكثر خراجك . وتوفرت أموالك . وقويت بذلك على ارتباط جندك. وارضاء العامة باضافة العطاء فيهم من نفسك. وكنت محمود السياسة. ومرضى العدل في ذلك عند عدوك. وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة. فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا تجد مغبة أمرك ان شاء الله. واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عما لك . ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كانك مع كل عامل في عمله معاين لأموره كلها. وان أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك . فان رأيت السلامة فيه والعافية. ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع. فامضه. والا فتوقف عنه. وراجع أهل البصر والعلم. ثم خذ فيه

عدته. فانه ربما نظر الرجل في أمر من أمره. قد واتاه على ما يهوى . فقواه على ذلك وأعجبه. وان لم ينظر في عواقبه اهلكه. ونقض عليه أمره .

فاستعمل الحزم في كل ما اردت وباشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك. وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك. فأن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه. واذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه. فاذا أمضيت لكل يوم عمله، ارحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك. وانظر احرار الناس وذوى الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم، وتهذيب مودتهم لك. ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم، وأحسن اليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم واصلح حالهم، حتى لايجدوا لخلتهم مسا. وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لايقدر على رفع مظلمة اليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه. فاسأل عنه أخفى مسألة. ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم. واجعل لهم ارزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين اعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجر للاضراء من بيت المال، وقدم حملة القرءان منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم، وقواما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون اسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال .

ابن طاهر : كتاب بغداد ص 31

## 78 ـ الأجور والاسعار

وذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق، قال : كان ارزاق الكتاب والعمال أيام أبي جعفر ثلثمائة درهم، فلما كانت كذلك لم تزل على حالها الى ايام المأمون، فكان اول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل. فأما في ايام بني أمية وبني العباس فلم تزل الأرزاق من الثلثمائة الى ما دونها، كان الحجاج يجري على يزيد بن ابي مسلم ثلثمائة درهم في الشهر.

وذكر ابراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى، أن ولاة البريد في الآفاق كلها

كانوا يكتبون الى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم، وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضى به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال، وكل حدث، وكانوا اذا صلوا المغرب يكتبون اليه بما كان في كل ليلة اذا صلوا الغداة، فاذا وردت كتبهم نظر فيها، فاذا رأى الأسعار على حالها امسك، وأن تغير شيء منها عن حالة كتب الى الوالى والعامل هناك، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره، فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك الى حاله، وان شك في شيء مما قضى به القاضي كتب اليه بذلك، وسأل من بحضوته عن عمله، فان انكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه.

الطبري : تاريخ 8 ـ 95

# الباب السادس

# ملامح من الحياة الاقتصادية والاجتماعية

## 79 ـ مداخيل الدولة في عهد الرشيد

وجدت في كتاب عمله ابو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب، في أخبار خلفاء بني العباس، بخط ابي الفضل ، يقول : انفذ الى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حفص رقعة، انتسخها من دواوين الخراج الكاتب، ذكر فيها ان أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب من أهل مرو، وأنه كان يتلقد ديوان المشرق للمهدي، وهو ولي عهد، ثم كتب له في خلافته، ولموسى ولهارون، وانه عمل في أيام الرشيد تقديرا عرضه على يحيى بن خالد، لما يحمل الى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي، من المال والأمتعة ، نسخته :

### أثمان غلات السواد :

ثمانون الف ألف، وسبعمائة ألف ، وثمانون ألف درهم.

### أبواب المال بالسواد :

أربعة عشر الف ألف، وثمانمائة الف درهم.

الحلل النجرانية : مائتا حلة،

الطين للخنم : مائتان وأربعون رطلا.

### كسكر :

أحد عشر ألف ألف وستمائة ألف درهم.

### كور دجلة :

عشرون ألف ألف وثمانمائة ألف درهم.

### حلوان :

اربعة الاف ألف وثمانمائة ألف درهم.

### الأهواز :

خمسة وعشرون ألف ألف درهم.

السكر : ثلاثون ألف رطل.

### فارس :

سبعة وعشرون ألف ألف درهم.

ماء الزبيب الأسود : عشرون ألف رطل.

الرمان والسفرجل : مائتا ألف وخمسون ألفا.

ماء الورد : ثلاثون ألف قارورة.

الانبجات : خمسة عشر الف رطل.

الطين السيرافي : خمسون ألف رطل.

الزبيب ـ بالكر الهاشمي ـ ثلاثة اكرار.

### كرمـــان :

اربعة آلاف ومائتا ألف درهم.

المتاع اليمني والخبيصي : خمسمائة ثوب.

التمر عشرون ألف رطل.

الكمون مائة رطل.

### مكـــران :

اربعمائة ألف درهم.

### السند وما يليها :

احد عشر ألف ألف، وخمسمائة الف درهم.

الطعام بالقفيز الكيرخ : الف ألف قفيز.

الفيلة : ثلاثة افيلة.

الثياب الحشبشيه : ألفا ثوب .

الفوط : أربعة الاف فوطة.

العود الهندي : مائة وخمسون منا.

ومن سائر اصناف العود مائة وخمسون منا.

النعال : الفا زوج.

وذلك سوى القرنفل والجوزبوا.

### سجستان :

أربعة آلاف ألف، وستمائة الف درهم.
الثياب المعينة : ثلاثمائة ثوب.
الفانيد : عشرون ألف رطل.

### خراســان :

ثمانية وعشرون ألف ألف درهم.
نقر الفضة، الامناء : ألفا نقرة.
البرادين : أربعة آلاف برذون.
الرقيق ألف رأس.
المتاع : سبعة وعشرون ألف ثوب.
الاهليلج : ثلاثمائة رطل.

### جرجـــان :

اثنا عشر الف ألف درهم.
الابريسم : ألف منا .

### قومس :

ألف ألف وخمسمائة الف درهم.
نقر الفضة الامناء : ألفا نقرة.
الاكسية : سبعون كساء.
الرمان : اربعون ألف رمانة.

### طبرستان، والدوبان، ودنباوند :

ستة آلاف ألف، وثلاثمائة ألف درهم.
الفرش الطبري : ستمائة قطعة.
الاكسية : مائتا كساء.
الثياب : خمسمائة ثوب.
المناديل : ثلاثمائة منديل.
الجامات : ستمائة جام.

**الـــــرى :**

اثنا عشر ألف درهم.

الرمان : مائة ألف ألف رمانة.

الخوخ : ألف رطل.

**أصفهان :**

سوى خمتش ورساتيق عيسى واويس :

أحد عشر الف الف درهم

العسل : عشرون ألف رطل

الشمع : عشرون الف رطل.

**همـــــدان ودستبى :**

أحد عشر ألف ألف وثـمانمائة ألف درهم.

رب والريباس : ألف منا.

العسل الأروندي : عشرون ألف رطل

**ما هي البصرة والكوفة :**

عشرون الف ألف وسبعمائة الف درهم.

**شهرزور وما يليها :**

أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

**الموصل وما يليها :**

أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

العسل الابيض : عشرون ألف رطل.

**الجزيرة والديارات والفرات :**

اربعة وثلاثون ألف ألف درهم.

**اذربيجان :**

أربعة آلاف ألف درهم.

**موقان وكرخ :**

ثلاثمائة ألف درهم.

### جيلان :

من الرقيق : مائة رأس.

### التتر والطيلسان :

من العسل : اثنا عشر زقا.

ومن البزاة : عشرة بزاة.

ومن الاكسية : عشرون كساء.

### أرمينية :

ثلاثة عشر ألف ألف درهم.

البسط المحفورة : عشرون بساطا.

الرقم : خمسمائة وثمانون قطعة.

المالح المنبوذ ما هي : عشرة آلاف رطل.

الطريخ : عشرة آلاف رطل.

البزاة : ثلاثون بازيا.

البغال : مائتا بغل.

### قنسرين والعواصم :

أربعمائة الف وتسعون الف دينار

### حمص :

ثلاثمائة ألف وعشرون الف دينار.

الزبيب : ألف راحلة.

### دمشق :

اربعمائة الف وعشرون ألف دينار

### الأردن :

ستة وتسعون ألف دينار.

### فلسطين :

ثلاثمائة ألف وعشرون الف دينار

ومن جميع اجناد الشام من الزبيب : ثلاثمائة ألف رطل.

مصر :

سوى تنيس ودمياط والاشمونين ـ فان هذه وقفت للنفقات ألف ألف. وتسع مائة وعشرون ألف دينار.

برقـــة :

ألف ألف درهم.

افريقية :

ثلاثة عشر ألف ألف درهم

ومن البسط: مائة وعشرون بساطا.

اليمن :

سوى النياب ـ ثمانمائة ألف ، وسبعون ألف دينار

مكـــة والمدينة :

ثلاثمائة ألف دينار.

★ ★ ★

فذلك العين خمسة آلاف ألف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما بدينار ... مائة ألف ألف درهم، وخمسة وعشرون ألف ألف. وخمسمائة ، وأثنان وثلاثون ألف درهم.

الورق : أربعمائة ألف ألف، وأربعة آلاف ألف. وسبعمائة ألف. وثمانية آلاف درهم.

يكون الورق مع قيمة العين ـ خمسمائة ألف ألف ، وثلاثين ألف ألف. وثلاثمائة ألف، واثنى عشر الف درهم.

الجهشياري : كتاب الوزراء ص 227

## 80 ـ الجبايا في عهد المأمون

وكذلك وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة.

غلات السواد :

سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل النجرانية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلا.

كنكـــر :

أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم.

كور دجلة :

عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم.

حلـــوان :

أربعة الاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم .

الأهواز :

خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون الف رطل.

فـــارس :

سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل.

كرمـــان :

أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون الف رطل.

مكـــران :

أربعمائة ألف درهم مرة.

السند وما يليه :

احد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة الف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا.

سجستان :

اربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيذ عشرون رطلا.

**خراسان :**

ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفا نقرة ومن البراذين أربعة الاف ومن الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الاهليلج ثلاثون ألف رطل .

**جرجان :**

اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابرسيم الف شقة.

**قومس :**

ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة.

**طبرستان والرويان ونهاوند :**

ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف من الفرش الطبري ستمائة قطعة ومن الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلاثمائة ومن الجامات ثلاثمائة.

**الـــــري :**

اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل .

**همـــــدان :**

أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل.

**ما بين البصرة والكوفة :**

عشرة الاف ألف درهم مرتين وسبعمائة الف درهم.

**ماسبذان والدينار :**

أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

**شهرزور :**

ستة الاف ألف درهم مرتين وسبعمائة الف درهم.

**الموصل وما اليها :**

اربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل.

اذربيجان :

أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات :

أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف زق ومن البزاة عشرة ومن الاكسية عشرون.

أرمينية :

ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون.

قنسرين :

أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل.

دمشق :

أربعمائة الف دينار وعشرون الف دينار.

الأردن :

سبعة وتسعون ألف دينار.

فلسطين :

ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل.

مصر :

ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

برقـــة :

ألف ألف درهم مرتين.

افريقية :

ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون.

اليمن :

ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع.

الحجاز :

ثلاثمائة ألف دينار.

وأما الاندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها ان عبد الرحمان الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة الاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار .

ورأيت في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة الاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من امثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان احوال الوجود والعمران متفاوتة ومن ادرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها.

ابن خلدون: المقدمة

ط. بيروت 318/1

## 81 ـ النقد عند العباسيين

وأتت دولة بني العباس فضرب أمير المؤمنين عبد الله بن محمد السفاح الدراهم بالأنبار وعملها على نقش الدنانير وكتب عليها السكة العباسية وقطع منها ونقصها حبة ثم نقصها حبتين.

فلما قام من بعده أبو جعفر المنصور نقصها ثلاث حبات وسميت تلك الدراهم ثلاثة أرباع قيراط لان القيراط أربع حبات فكانت الدراهم كذلك وحدثت الهاشمية على المثقال البصري فكان يقطع على المثاقيل الميالة الوازنة التامة فأقامت الهاشمية على المثاقيل والعتق على نقصان ثلاثة أرباع قيراط مدة ايام أبي جعفر المنصور والى سنة ثمان وخمسين ومائة فضرب المهدي محمد ابن أبي جعفر فيها سكة مدورة فيها نقطة ولم يكن لموسى الهادي بن محمد المهدي سكة تعرف وتمادى الأمر على ذلك الى شهر رجب من سنة ثمان وسبعين ومائة فصار نقصانها قيراطا غير ربع حبة.

فلما صير أمير المؤمنين هارون الرشيد السكك الى جعفر بن يحيى البرمكي

كتب اسمه بمدينة السلام والمحمدية من الرى على الدنانير والدراهم وصير نقصان الدراهم قيراطا الا حبة.

وضرب المأمون دنانير ودراهم واسقط منها اسم اخيه محمد الأمين فلم تجز مدة وسميت الرباعيات وكان ضربه لذلك وهو بمرو وقبل قتل أخيه.

وهارون الرشيد اول خليفةترفع عن مباشرة العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم وكان هذا ما نوه باسم جعفر بن يحيى اذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله.

وأستمر الأمر كما ذكر الى شهر رمضان سنة أربع وثمانين ومائة فصار النقص اربعة قراريط وحبة ونصف حبة وصارت لا تجوز الا في المجموعة او بما فيها. ثم بطلت فلما قتل هارون الرشيد جعفرا صير السكك الى السندي ابن شاهك فضرب الدراهم على مقدار الدنانير وكان سبيل الدنانير في جميع ما تقدم ذكره سبيل الدراهم وكان خلاص السندى جيدا اشد الناس خلاصا للذهب والفضة.

فلما كان شهر رجب سنة احدى وتسعين ومائة نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبة وما زال الأمر في ذلك كله عصرا تجوز المثاقيل. ثم ردت الى وزنها حتى كان أيام الأمين محمد بن هارون الرشيد فصير دور الضرب الى العباس بن الفضل بن الربيع فنقش في السكة بأعلى السطر : ربي الله، ومن اسفلها : العباس بن الفضل.

فلما عهد الأمين الى ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق المظفر بالله، ضرب الدنانير والدراهم باسمه وجعل زنة كل واحد عشرة ونقش عليه : خفيف.

| | |
|---|---|
| كـــــل عـــز ومـــــفـــخـــر | فلموسى المظـــــــــــفـــــــــر |
| ملك خـــــــــص ذكــــــــــره | في الكـــــتـــــابــــ المسطــــر |

فلما قتل الأمين واجتمع الأمر لعبد الله المأمون لم يجد احدا ينقش الدراهم فنقشت بالمخراط كما تنقش الخواتيم.

وما برحت النقود على ما ذكر ايام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. فلما قتل المتوكل وتغلبت الموالي من الأتراك وتناثر سلك الخلافة وتفننت الدولة العباسية في الترف وقوى عامل كل جهة على ما يليه وكثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة على الأطراف حدثت بدع كثيرة من حينئذ ومن جملتها غش الدراهم.

ويقال ان أول من غش الدراهم وضربها زيوفا عبيد الله بن زياد حين فر من

البصرة في سنة اربع وستين من الهجرة ثمفشت في الامصار أيام دولة العجم من بني بويه وبني سلجوق. والله أعلم.

المقريزي : شذور العقود

## 82 ـ مقارنة بين الدولتين العباسين والبيزنطية

أخبر الواقدي قال : مات رسول ملك الروم بدمشق في زمن معاوية. فوجد في جيبه لوح ذهب مكتوب فيه حفرا : اذا ذهب الوفاء نزل البلاء، واذا مات الاعتصام عاش الانتقام، واذا ظهرت الخيانات قلت البركات.

وجد في سيرة المعتصم ان باسيل ملك الروم أرسل اليه رسولا وكتب اليه : «منباسيل بن فلان ـ حتى انتسب الى ثلاثة آباء أو اربعة ملوك ـ الى اخيه المعتصم.

«ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا، ويعلو بعضها على بعض. وربما أتيت من وزراء السوء. وقد كان منا بزبطرة ما كان وتبينت وجه الخطأ فيه. وقد كلت لي بالصاع اصوعا فيما فعلت بعمورية. وأنا أسألك بالطينة المباركة التي أنت منها ان تنعم على باطلاق بطارقتي، فانهم مائة وخمسون بطريقا. وأنا أفتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين. وقد تهادت الملوك قبلنا. وقد وجهت مع رسولي من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوبا، طول كل ثوب منها اربعون ذراعا في عرض عشرين». وذكر سائر ما أهداه وصفته، وأرسل بذلك بطريقا وخادما وجماعة معهما. فلما صلوا أخذ محمد بن عبد الملك الكتب وتوصل الى علم ما تضمنت، وردها بخواتيمها وقال : أمير المؤمنين مشغول عنها. فكانت الهدية موقوفة ستة اشهر ثم اذن للرسول فدخل على الملك، فلما رآه المعتصم قال : أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك ! قال : كلا، ان طول المقام أوجب لي الذمام. ولم نزل نسمع من حكمائنا أن ابطاء الرسول يؤذنبالنجاح. وما ضرني مقام قرب منك، واشهدني نعم الله عندك. فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام الرسول وقبل هديته.

فأقبل عليه محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : اقل من مائة ألف دينار. فقال محمد : هذا غلة بعض ضياع امير المؤمنين. فقال الرسول : نحن احزم وأحكم في باب الخراج منكم. انتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداوتهم. وتوغرون صدورهم. ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الأرزاق،

ثم يحمل من بلد الى بلد آخر. فيذهب ويتخرم في الطريق. وتحتاجون ان يسلم الى خزنة وحراس. ثم تخرجه الى رجالكم. ونحن جعلنا خراجنا رجالا، فكفينا هذه المؤنة، وصيرنا هذا المقدار الذي ذكرته لك رسماللخراج لئلا يبطل اسمه؛ فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما أنتم فيه.

قال المؤلف : فسكت محمد بن عبد الملك الزيات، ولم يحر جوابا الى الرسول. وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازما له. وذلك ان رجال الحرب بمثابة الجوارح التي لا يجوز ان تمرن بعمل من الأعمال، ولا مهنة من المهن غير اختطاف للأرواح وصيد الرجال وأعمال الحيلة في التسليم من اللقاء والكر والفر، وفي الاقامة والتحيز، فلما صارت الروم أهل تناية واصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة، نشأ الابناء على ما عليه الآباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحروب، ونكصوا عن نقاء الأعداء وصيد الرجال. وصاروا جمع العصا، وخشوا الفلس، فحينئذ صار الرجل الواحد من المسلمين لا يهاب لقاء الجمع الكثير من الروم، وله تسلط عليهم واقتدار على تفريق جماعتهم، هذا مضاف الى ما وعد الله به في كتابه من النصر، وان المائة منهم غالبة للمائتين، بعد ان زال حكم الواحد بعشرة رحمة وتخفيفا. ثم صار الملك منهم لا تتعلق به رغبة، اذ هو قليل المال، نزر الجباية. فلما احست الروم بعدم الرغبة امتنعت من الخطار بأنفسها، وقل من يعمل للاخرة منهم، وانما تخاطر التماسا للمثوبة والجزاء. وتحقق العلج منهم أنه اذا اسر وحصل في بلاد الاسلام، يؤمر او يقود، ويعفى من كد التعب ودأبالنصب ويصير بعد الذل عزيزا وبعد المهنة والاذالة وادعا مكرما. وصار ما بأيدي الروم من الضياع والاقطاع كأنما هو كالملك لهم، يرثه خلف عن سلف، والحق الذي لا يجب لغيره شيء فيه، وان غير او بدل على ما سنتهم الان جارية من البدل، فانما ينقل منمشتى الى مصيف أو ربيع الى خريف، وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع ما في ايديهم كانوا العدو الحاضر المشارك في الدار، غير المأمون الضرر والغوائل، المطالب بالذحول والطوائل، الواضح الفساد العديم الرشاد، فكيف صار احكم من فعل المسلمين في الخراج ؟

وقد كنت اعرف عن الروم ان اخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب وان الشاكري اجل رتبة منه، حتى علمت الان قلة احتياجهم الى من يحفظ الارتفاع ويحمل اعباء الملك. وتساوى كافتهم في البلادة. وقلة المعلوم. ولعمري ان نوازع الروم واغراضهم ودواعيهم وأوطارهم اقل من نفقات المسلمين ودواعيهم. ولو الزم ملك الروم من في بلاده من المؤن والمغارم ما يلزم في بلاد المسلمين، لما قامت لهم قائمة،

ولاحتاجوا الى أحد امرين : اما اجتياح اموال رعاياهم، أوالتسلط على من يجاورهم، وحيازة ما في ايديهم اليهم. والرومي اذا تجمل قطع الثوب الديباج الذي من عمل زوجته وابنته وأخته، يقيم على لابسه عشرين سنة اذا صانه من البذلة. ولا عهد الرومي بالشرب والعصب، والمعلم، والذهب، والمصنف، والمنيــر ، ولا باستــعمــال للرومى والاصبهاني، ولا برفيع التونى الذي يودع أنابيب الذهب والفضة، هذا ما لاعهد لملوكهم به. فكيف لوضائعهم. والملك منهم وغيره يتساويان في اللباس : انما هو الطلى والديباج والمسده. واوانيهم الذهب والفضة. ولو ابتاع احد ملوكهم قحفا خزفيا بمائة دينار يلحقهالصــدع فــلا يســاوي درهــمــــا،أو من مخروط البلور ورفيع المحفور ما اذا بات نديا من الماء او النبيذ في غلافه تصدع وعادت القطعة التي تساوي ألف دينار بالنزر اليسير من الثمن. وكذلك الزجاج المحكم والقلب سليم وغرائب الصيني من الصحون البلق والمشمشي والسواد والزمردي والخافقيات الفائقات والرشيدي الشفاف، وملح الطرائف ، هذا ما لا يتملكوند على الأمر الأكثر، انما يهدى اليهم ويسمعون بذكره، فأما الفروش عندهم فمن صنعتهم ايضا. انما هي الديباج والطنافس والقطف. والبزيون فأما طميم القرقوبي ، ومذهب الدبيقي، ورفيع الخسرواني، فتفرد بملكه ملوك الاسلام. وأغذية الروم الشواء والصليق. وأكثرها في صيدهم مما في مروجهم من الطير والدواب. ولولا الاطالة لاستقصيت القول في المصارفة والهداية الى طرق اللؤم والنذالة التي جعلها الله وقفا عليهم دون الامم فهي فيهم جمة كثيرة.

ابن الفراء : رسل الملوك 34

## 83 ـ شهادة عن النشاط التجاري

هذا مسلك التجار اليهود الرذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية. انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما 25 فرسخا. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي. فربما عدلوا

بتجاراتهم الى القسطنطينة فباعوها من الروم. وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية. ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الابلة. ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض.

ابن خرد ادبه:
المسالك والممالك

## 84 ـ التجار والحرب المدنيـة

وفي هذه السنة ضعف أمر محمد، وأيقن بالهلاك، وهرب عبد الله بن خازم بن خزيمة من بغداد الى المدائن، فذكر عن الحسين بن الضحاك ان عبد الله بن خازم بن خزيمة ظهرت له التهمة من محمد والتحامل عليه من السفلة والغوغاء، فهم على نفسه وماله، فلحق بالمدائن ليلا في السفن بعياله وولده، فأقام بها ولم يحضر شيئا من القتال.

وذكر غيره ان طاهرا كاتبه وحذره قبض ضياعه واستئصاله. فحذره ونجا من تلك الفتنة وسلم، فقال بعض قرائبه في ذلك :

| | |
|---|---|
| ومـا جبـن ابـن خـازم مـن رعـاع | وأوباش الطـغـام مـن الانـام |
| ولـكـن خـاف صـولـة ضيـغمـي | هصور الشـد مشـهـور الـعـرام |

فذاع أمره في الناس، ومشى تجار الكرخ بعضهم الى بعض، فقالوا : ينبغي لنا أن نشكف امرنا لطاهر ونظهر له براءتنا من المعونة عليه، فاجتمعوا وكتبوا كتابا اعلموه فيه انهم اهل السمع والطاعة والحب له، لما يبلغهم من ايثاره طاعة الله والعمل بالحق، والأخذ على يد المريب، وأنهم غير مستحلي النظر الى الحرب، فضلا عن القتال، وأن الذي يكون حزبه من جانبهم ليس منهم، قد ضاقت بهم طرق المسلمين حتى ان الرجال الذين يلو عن حربه من جانبهم ليس منهم، ولا لهم بالكرخ دور ولا عقار، وانما هم بين طرار وسواط ونطاف، وأهل السجون. وانما مأواهم الحمامات والمساجد، والتجار منهم انما هم باعة الطريق ينجرون في محقرات البيوع، قد ضاقت بهـم طرقـ المسلميـن، حـتـى ان الـرجلـ لـيسـتـقـبلـ المـرأة فـي زخمـة

الناس فيلتثان قبل التخلص وحتى ان الشيخ ليسقط لوجهه ضعفا. وحتى ان الحامل الكيس في حجزته وكفه ليطر منه، وما لنابهم يدان ولا طاقة، ولا نملك لانفسنا منهم شيئا، وان بعضنا يرفع الحجر عن الطريق بما جاء فيه من الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف لو اقتدرنا على من في اقامته عن الطريق، وتخليده السجن وتنفيته عن البلاد وحسم الشر والشغب ونفي الزعارة والطر والسرق، وصلاح الدين والدنيا، وحاش الله ان يحاربك منا أحد.

فذكر انهم كتبوا بهذا قصة، واتعد قوم على الانسلاك اليه بها، فقال لهم اهل الرأي منهم والحزم : لا تظنوا ان طاهرا غبي عن هذا او قصر عن اذكاء العيون فيكم وعليكم، حتى كأنه شاهدكم، والرأي الا تشهروا انفسكم بهذا، فانا لا نأمن ان راكم احد من السفلة ان يكون به هلاككم وذهاب اموالكم، والخوف من تعرضكم لهؤلاء السفلة اعظم من طلبكم براءة الساحة عند طاهر خوفا، بل لوكنتم من أهل الآثام والذنوب لكنتم الى صفحه وتغمده وعفوه اقرب، فتوكلوا على الله تبارك وتعالى وامسكوا. فأجابوهم وأمسكوا. وقال ابن ابي طالب المكفوف :

| | |
|---|---|
| دعوا أهل الطريق فعن قليل | تنالهم مخاليب النسور |
| فتهتك حجب افئدة شداد | وشيكا ما تصير الى القبور |
| فان الله مهلكهم جميعا | بأسباب التمني والفجور |

الطبري : 8 ـ 467

## 85 ـ اخبار الصين والهند
## لجغرافي مجهول من القرن الثالث الهجري

«وذكر سليمان التاجر ان بخانفو وهو مجتمع التجار رجلا مسلما يوليه صاحب الصين بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخى ملك الصين ذلك. واذا كان في العيد صلى بالمسلمين. وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئا في احكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الاسلام.

فأما المواضع التي يردونها ويرقون اليها فذكروا ان أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف، وأن المتاع تحمل من البصرة وعمان وغيرها الى سيراف، فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا، فاذا عبى المتاع

بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها اهل البحر : يعني يقلعون ـ الى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عمل عمان : والمسافة من سيراف اليه نحو مائتي فرسخ. وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابركاوان. وفي هذا البحر جبال عمان، وفيها الموضع الذي يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية. وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير وليس يظهر منهما فوق الماء الا اليسير : فاذا جاوزنا الجبال صرنا الى موضع يقال له صحار عمان فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك فئة غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها الى بلاد الند، وتقصد الى كولم ملي، والمسافة من مسقط الى كولم ملى شهر على اعتاب الريح، وفي كولم ملى مسلحة لبلاد كولم ملى تجبى السفن الصينية ، وبها ماء عذب من آبار، فيؤخذ من الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير الى عشرين دينار. وبين مسقط وكولم ملى وبين هركند نحو من شهر، وبكولم ملى يستعذبون الماء. ثم تخطف المراكب ـ أي تقلع ـ الى بحر هر كند، فاذا جاوزوه صاروا الى موضع يقال له لنجبالوس. لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات. وهم قوم لا يلبسون الثياب بيض كواسج. وذكروا انهم لم يروا منهم النساء وذلك ان رجالهم يخرجون اليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل : وهو شراب أبيض، فاذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهوحلو مثل العسل، فاذا ترك ساعة صار شرابا. وان بقي أياما صار خلا، فيبيعون ذلك بالحديد، وربما وقع اليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وانما يتبايعون بالاشارة يدا بيد اذ كانوا لا يفهمون اللغة. وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئا.

ثم تخطف المراكب الى موضع يقال له كلاه بار : المملكة والساحل كل يقال له بار ، وهي مملكة الزابج متيامنة عن بلاد الهند، يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط : يلبس السرى والدنى منهم الفوطة الواحدة. ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر...».

أخبار الهند والصين

نشر جان سوفاجيه باريس 1948

## 86 ـ طبقات المجتمع العباسي

وخاطب كلا على قدر ابهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وتفطنه وانتباهه. واجعل طبقات الكلام على ثمانية اقسام : فأربعة منها للطبقة العلوية. وأربعة دونها، ولكل طبقة منها درجة ، ولكل قسمة حظ، لا يتسع للكاتب البليغ ان يقصر بأهلها عنها، ويقلب معناها الى غيرها. فالطبقة العليا، الخلافة التي اعلى الله شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير، والمخاطبة والترسل. والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم. ويرتقون الفتوق بآرائهم، ويتجملون بآدابهم. الثالثة امراء ثغورهم، وقواد جيوشهم، يخاطب كل امرئ منهم على قدره، وبما حمل من أعباء امورهم، وجلائل اعمالهم. الطبقة الرابعة القضاة، فانهم وان كان لهم تواضع العلماء ، وحلية الفضلاء، فمعهم ابهة السلطنة، وهيبة الامراء.

وأما الطبقات الأربع الأخرى، فالملوك الذي اوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب، وافضالهم تفضيلهم فيها. والثانية وزراؤهم وكتابهم واتباعهم، الذين تقرع ابوابهم، وبعنايتهم تستماح اموالهم. والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة اهله. الرابعة اهل القدر والجلالة، والظرف والحلاوة، والعلم والأدب، فانهم يضطرونك بحدة اذهانهم، وشدة تمييزهم وانتقادهم، الى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم.

واستغنينا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمهامهم عن هذه الأدوات.

ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك ان تراعيها في مراستلك اليهم في كتبك، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمه، وتوفيه نصيبه، فانك متى اضعت ذلك لم آمن عليك ان تعدل بهم غير طريقهم، وتجرى شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه. فلا معتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته، ومشابها لمن ارسلته. فان الباسك المعنى، وان شرف وصلح، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم تجز به عادتهم، تهجين للمعنى واخلال بقدره.

ابراهيم بن المدبر : الرسالة العذراء.

# الباب السابع

# ملامح من الحياة الفكرية والثقافية

## 87 ـ ملاحظات سفير بيزنطي في بغداد

جاء في سير المنصور بالله أنه ورد عليه من طاغية الروم رسل كثير، بلغ من دهاء بعضهم وفطنتهم ان أخذ المنصور من رأيه واستعمل مشورته. واجتهد بعضهم في الصاق عيب بالمنصور في محاورته، فألهم الله المنصور من سداد الجواب وبيان الحجة، ماليس في وسع احد أن ينطق به الا عن الهام وتوفيق.

أما الأول، فان المنصور أمر بعض ثقاته أن يطوف معه فيريه مدينته ويوقفه على مبانيه وممالكه. فلما نظر الى ذلك كله، واعاده الى المنصور قال للرومي : كيف رأيت ماشاهدت؟ قال: كل مارأيت جليل نبيل، الا ثلاثة أشياء. قال: ماهي : قال: النفس خضراء ولاخضرة لك، والماء حياة ولاحياة لك، وعدوك معك ـ يعني السوقة ـ. وكانت السوق مخالطة لقصره. قال المنصور : اما الخضرة فاني خلقت للجد لالللهزل، وأما الماء فحسبي منه بل الشفة وروى الصدى. وأما مجاورة العوام، فما أبالي أن يطلع على سري خاصتي وعامتي لاني لاانى فيه واحصنه. فلما انصرف الرسول تعقب الرأي وتبينه، فعلم ان الصواب فيما قاله الرسول. فعمر العباسية، وكان يطل عليها. واجرى من كرخايا وغيره ماجراه، ونقل السوق الى الكرخ.

وأما الرسول الآخر فانه طيف به أيضا، فرأى (على) الجسر خلقا من ذوي الزمانة والعاهة يتصدقون ويسألون. فقال الرسول للربيع، وكان معه. مافي ملك صاحبك عيب غير أمر هؤلاء الزمني. وقد كان يجب أن يراعي امرهم حتى لايجتمع عليهم ـ مع الزمانة ـ الفقر والمسألة. فقال الربيع : لم يذهب (ذلك) عنه، ولكن بيوت الأموال لاتتسع لذلك. وبلغ المنصور ماجرى بينهما، فاغتاظ على الربيع. فلما حضره الرسول قال : بلغني مقالك للربيع آنفا، وليس الأمر على ماجابك به. وقد كان في مالي مايسعهم ويوفي على سد مفاقرهم، ولكن أمير المؤمنين فكر في أمرهم، فأحب الا يستأثر على سائر رعيته ممن صحح الله جسمه. وبسط يده بملك الدنيا والآخرة وثوابها. فترك لهم سبيلا الى الصدقة واصطناع المعروف، ونصيبا في ابتغاء الثواب بالافضال. فعقد العلج ثلاثين وقال وقد آومى الى الأرض : قالون، قالون».

ابن الفراء : رسل الملوك ـ 39.

## 88 ـ أجرة السفير العباسي

جاء في سيرة المعتصم بالله انه وجه رسولا إلى ملك الروم. فلما اجتمع الرسول بالملك ورأى الملك هيبة الرسول. وكثرة تجمله. وما صحبه من الرحل والالات التي لايكون مثلها الا لعظماء الملوك قال له : كم ترزق من مال سلطانك؟ قال : ارتزق انا وولدي في كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها. قال : فتحت فتحا، قط. كان السلطان به معنيا؟ قال الرسول : لا قال الملك : نازلت رجلا مشهورا بالفروسية من أعداء سلطانك فقتلته مجاولة. قال الرسول: فاستنقذت خليفة أو ولى عهد وقد لجج في مضيق أو معركة لم يظن الخلاص منها. فوجد باقدامك وقد احجم نظراؤك فرجه؟ قال الرسول : لا . قال الملك : فبأي شيء تستحق هذا الرزق الكثير؟ قال الرسول للملك : ان للخلفاء خدما يتصرفون في انحاء الخدم. لكل طائفة مذهب يجتنبون له ويحتملون عليه. لايكلفون سواه. ولا يراد منهم غيره. فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش . ومنهم من يعد للقضاء فهو يلبس المبردات والدنيات. ومنهم مثلى من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك. ويتحمل رسائلهم الى مثلك من أهل الجلالة والقدر. والسناء والذكر. فلولا ثقتهم بي. وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما اورد واودى. صادرا وواردا. لما راوني أهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك. وقليل لمثلى هذا الرزق مع هذا التحمل ومع (هذا) المحل من الخلافة. وهي من الجلالة على ماهي. فسكت سكوت معترف ولم يقل في ذلك شيئاً

ابن الفراء: رسل الملوك 32

## ٨٩ ـ اسراف البرامكة في بناء القصور

وذكر يعقوب بن اسحاق ان ابراهيم بن المهدي. قال : أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها، فقال لي : اما تعجبت من منصور بن زياد ؟ قال : قلت فيماذا ؟ قال : سألته : هل ترى في داري عيبا ؟ قال : نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال ابراهيم : فقلت : الذي يعيبها عندي انك انفقت عليها نحوا من عشرين الف الف درهم. وهو شيء لا منه عليك غدا بين يدي امير المؤمنين. قال : هو يعلم انه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك، سوى ما عرضني له. قال : قلت :

ان العدو انما يأتيه في هذا من جهة ان يقول : يا أمير المؤمنين ، اذا انفق على دار عشرين الف الف درهم، فأين نفقاته! وأين صلاته! وأين النوائب التي تنوبه! وماظنك يأمير المؤمنين بما وراء ذلك! وهذه جملة سريعة الى القلب، والمواقف على الحاصل منها صعب. قال: ان سمع مني قلت: ان لامير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر لها أو باظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت الى نعمته عندي، فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس : تعالوا فانظروا.

الطبري 291/8

## 90 ـ حركة شعبية لمقاومة الفساد

(ذكر خبر خروج المطوعة للنكير على الفساد)

وفي هذه السنة تجردت المطوعة للنكير على الفساق ببغداد، ورئيسهم خالد الدريوش وسهل بن سلامة الانصاري ابو حاتم من أهل خراسان.

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله فعلت المطوعة ما ذكرت :

كان السبب في ذلك ان فساد الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق وقطع الطريق واخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق، فكانوا يجتمعون فيأذون الرجل فيأخذون ابنه، فيذهبون به فلا يقدر ان يمتنع، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون اهلها، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم، ولا يقدر على ذلك منهم، لان السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر ان يمنعهم من فسق يركبونه، وكانوايجبون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويحفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم، ثم كان آخر امرهم انهم خرجوا الىقطربل، فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك، وادخلوها بغداد، وجعلوا يبيعونها علانية، وجاء اهلها فاستعدوا السلطان عليهم، فلم يمكنه اعداؤهم عليهم، ولم يرد عليهم شيئا مما كان اخذ منهم، وذلك آخر شعبان.

فلما رأى الناس ذلك وما قد أخذ منهم ، وما بيع من متاع الناس في اسواقهم وما قد اظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقطع الطريق، وان السلطان لا

يغير عليم، قام صلحاء كل ربض وكل درب، فمشى بعضهم الى بعض. وقالوا : انما في الدرب الفاسق والفاسقان الى العشرة، وقد غلبوكم وأنتم اكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون امركم واحدا . لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من اظهار الفسق بين اظهركم.

فقام رجل من ناحية طريق الانبار يقال له خالد الدريوش، فدعا جيرانه واهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه الى ذلك. وشد على من يليه من الفساق والشطار، فمنعهم مما كانوا يصنعون ، فامتنعوا عليه، وارادوا قتله، فقاتلهم واخذ بعضهم. فضربهم وحبسهم ورفعهم الى السلطان . الا أنه كان لا يرى ان يغير على السلطان شيئا. ثم قام من بعده رجل من أهل الحربية، يقال له سهل بن سلامة الانصاري من أهل خراسان. يكنى أبا حاتم، فدعا الناس الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والعمل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وعلق مصحفا في عنقه. ثم بدأ بجيرانه وأهل محلته، فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه. ثم دعا الناس جميعا الى ذلك، الشريف منهم والوضيع، بنى هاشم ومن دونهم، وجعل له ديوانا يثبت فيه اسم من اتاه منهم. فبايعه على ذلك، وقاتل من خالفه وخالف مادعا اليه كائنا من كان، فأتاه خلق كثير، فبايعوه.

ثم انه طاف ببغداد واسواقها وارباضها وطرقها، ومنع كل من يخفر ويجبى المارة والمختلفة، وقال : لا خفارة في الاسلام ــ والخفارة انه كان يأتي الرجل بعض اصحاب البساتين فيقول : بستانك في خفري، ادفع عنه من اراد بسوء ، ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهما، فيعطيه ذلك شائبا وأبيا ــ فقوى على ذلك الا أن الدريوش خالفه، وقال: أنا لاأعيب على السلطان شيئا ولا أغيره ولاأقاتله، ولاآمره بشيء ولاانهاه. وقال سهل بن سلامة: لكنني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان، سلطانا أو غيره، والحق قائم في الناس اجمعين، فمن بايعني على هذا قبلته، ومن خالفني قاتلته.

الطبري : تاريخ 551/8

## 91 ــ رأي أحد المسؤولين عن «العامة»

قال ثمامة صاحب الكلام : كان المأمون قد هم بلعن معاوية وان يكتب بذلك كتابا في الطعن عليه، قال : ففثاه عن ذلك يحيى بن اكثم وقال : يا امير المؤمنين

العامة لا تحتمل هذا ولا سيما اهل خراسان ولا تأمن ان يكون لهم نفرة ونبوة لا تستقال ولا يدري ما تكون عاقبتها. والرأي ان تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم انك تميل الى فرقة من الفرق فان ذلك اصلح في السياسة وآمن في العاقبةوأجرى في التدبير. فركن الى قوله . فلما دخلت عليه قال : يا ثمامة قد علمت ما كنا دبرناه في امر معاوية وقد عارضنا رأي هو اصلح في تدبير المملكة وابقى ذكرا في العامة. ثم اخبرني ان يحيى بن اكثم حذره واخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي. فقلت : يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الوضع الذي وضعها فيه يحيى. والله لو بعثت اليها انسانا على عاتقه سواد ومعه عصا لساق اليك منها عشرة الاف ! والله يا امير المؤمنين ما رضى الله عز وجل ان سواها بالانعام حتى جعلها اضل سبيلا. فقال تبارك وتعالي : «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون ان همالا كالانعام بل هم اضل سبيلا». والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ ايام في شارع الخلد وانا اريد الدار فاذا انسان قد بسط كساءه وألقى عليه ادوية وهو قائم ينادي : هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر. وان احدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلمة. وقد تالبوا عليه واحتفلوا اليه. فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت : يا هذا ارى عينيك احوج الاعين الى العلاج وانت تصف هذا الدواء وتخبر انه شفاء ! فما بالك يا هذا لا تستعمله ؟ قال : انا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رايت شيخا قط اجهل منك ولا أحمق ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : يا جاهل اتدري اين اشتكت عيني ؟ قلت : لا . قال : بمصر. فأقبل على الجماعة فقالت : صدق والله انت جاهل. وهموا بي. فقلت : والله ما علمت ان عينه اشتكت بمصر. فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال : فضحك المأمون وقال : ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر اكثر. قلت:أجل.

البيهقي : المحاسن والمساوي : 141

## 92 ـ الآراء عن الامامة

• والذي ذهب الى أن الامامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن يحيى، ومن قال بقوله. على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب في اخبار هشام.

ويوافق الخوارج، فزعموا ان الامامة غير واجب نصبها. ووافقهم على هذا القول اناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر، الا أنهم قالوا : ان عدلت الامة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج الى امام. وذهب من قال بهذا القول الى دلائل ذكروها منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن سالما حي ما دخلتني فيه الظنون. وذلك حين فوض الأمر الى اهل الشورى. قالوا : وسالم مولى امرأة من الانصار، فلو لم يعلم عمر ان الامامة جائزة في سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى ابي حذيفة.

قالوا : وقد صح بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم اخبار كثيرة، منها قوله «اسمعوا واطيعوا ولو لعبد اجدع» وقد قال الله عز وجل : (ان اكرمكم عند الله اتقاكم).

وذهب ابو حنيفة . وأكثر المرجئة، وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها، وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية، الى أن الامامة لا تجوز في قريش (فقط) لقول النبي صلى الله عليه وسلم «الامامة في قريش» وقوله عليه السلام «قدموا قريشا ولا تقدموها» ولما احتج المهاجرون به على الانصار يوم سقيفة بنى ساعدة من ان الامامة في قريش لأنهم اذا ولو عدلوا، ولرجوع كثير من الأنصار إلى ذلك ولما انفرد به أهل الامامة من أن الامامة لاتكون الا نصاً من الله ورسوله على عين الامام واسمه واشتهاره كذلك، وفي سائر الأعصار لاتخلو الناس من حجة الله فيهم ظاهرا وباطناً، على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه، واستدلوا بالنص على الامامة، وبدلائل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص في وجوبها، وفي النص عليهم، من ذلك قوله عز وجل مخبرا عن ابراهيم (انى جاعلك للناس اماما) ومسألة أبراهيم بقوله (ومن ذريتي) وإجابته له بأنه (لاينال عهدي الظالمين) .

قالوا : ففيم تلونا دلائل على أن الامامة نص من الله، ولو كان نصها الى الناس ما كان لمسألة ابراهيم ربه وجه، ولما كان الله قد اعلمه انه اختاره، وقوله (لا ينال عهدي الظالمين) دلالة على أن عهده يناله من ليس بظالم.

ووصف هؤلاء الامام فقالوا : نعت الامام في نفسه ان يكون معصوما من الذنوب، لانه ان لم يكن معصوما لم يؤمن ان يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب، فيحتاج ان يقام عليه الحد، كما يقيمه هو على غيره، فيحتاج الامام الى امام، الى غير نهاية، ولم يؤمن عليه ايضا ان يكون في الباطن فاسقا فاجرا كافرا، وان

يكون اعلم الخليقة، لأنه إن لم يكن عالمًا لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله واحكامه، فيقطع من يجب عليه الحد، ويحدّ من يجب عليه القطع، ويضع الأحكام في غير المواضع التي وضعها الله، وأن يكون اشجع الخلق، لأنهم يرجعون اليه في الحرب. فان جبن وهرب يكون (قد) باء بغضب من الله، وان يكون اسخى الخلق، لأنه خازن المسلمين وأمينهم، فان لم يكن سخيا تاقت نفسه الى أموالهم، وشرهت إلى ما في ايديهم، وفي ذلك الوعيد (الشديد) بالنار، وذكروا خصالا كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد، وان ذلك كله وجد في علي بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم : في السبق إلى الايمان والهجرة والقرابة والحكم بالعدل والجهاد في سبيل الله والورع والزهد .. وان الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل، ووصفه لهم فيما صنعوه من الاطعام للمسكين واليتيم والأسير، وان ذلك لوجهه تعالى خالصا ( لا أنهم ابدوه بألسنتهم فقط) واخبر عن أمرهم في المنقلب، وحسن الموئل، في المحشر ، ثم أخباره عز وجل عما اذهب عنهم من الرجس، وفعل بهم من التطهير، وغير ذلك مما أوردوه دلائل لما قالوه، وان عليا نص على ابنه الحسن، ثم الحسين، والحسين على علي بن الحسن، وكذلك من بعده الى صاحب الوقت الثاني عشر، على حسب ما ذكرناه وسمينا في غير هذا الموضع من هذا الكتاب .

ولاهل الامامة من فرق الشيعة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ـ كلام كثير في الغيبة واستعمال التقية، وما يذكرونه من ابواب الأئمة والأوصياء . لايسعناايراده في هذا الكتاب، اذ كان كتاب خبر، وانما تغلغل بنا الكلام الى ايراد لمع من هذه المذاهب والآراء.

المسعودي : مروج 236/3

## 93 ـ مبادئ المعتزلة

كان يزيد بن الوليد احول، وكان يلقب بيزيد الناقص، ولم يكن ناقصا في جسمه ولا عقله، وانما نقص بعض الجند من ارزاقهم، فقالوا : يزيد الناقص، وكان يذهب الى قول المعتزلة وما يذهبون اليه في الأصول الخمسة : من التوحيد، والعدل والوعيد، والأسماء، والأحكام، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتفسير قولهم فيما ذهبوا اليه من الباب الأول ـ وهو باب التوحيد ـ وهو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبنداديين وغيرهم، وان كانوا في غير ذلك من فروعهم متباينين، من أن الله عز وجل لا كالأشياء، وانه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وان شيئا من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وانه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا (له) زمان ولا مكان ولا نهاية ولا أحد، وأنه الخالق للاشياء المبدع لها لا من شيء، وأنه القديم، وان ما سواه محدث.

وأما القول بالعدل ـ وهو الأصل الثاني ـ فهو أن الله لا يحب الفساد، ولا يخلق افعال العباد، بل يفعلون ما امروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم وأنه لم يأمر الا بما أراد ولم ينه الا عما كره وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يطيقونه، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه، وان أحدا لايقدر على قبض ولا بسط الا بقدرة الله التي أعطاهم اياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها اذا شاء، ويبقيها اذا شاء، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته، ومنعهم عن معصيته، ولكان على ذلك قادرا، غير أنه لايفعل، اذ كان في ذلك رفع للمحنة، وازالة البلوى .

أما القول بالوعيد ـ وهو الأصل الثالث ـ فهو ان الله لايغفر لمرتكب الكبائر الا بالتوبة وانه لصادق في وعده ووعيده، لامبدل لكلماته. وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين ـ وهو الاصل الرابع ـ فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقا، على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

قال المسعودي : وبهذا الباب سميت المعتزلة، وهو الاعتزال وهو الموصوف بالاسماء والأحكام مع ما تقدم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار.

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وهو الأصل الخامس ـ فهو ان ما ذكر على سائر المؤمنين واجب، على حسب استطاعتهم في ذلك، بالسيف فما دونه، وان كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ، ومن اعتقد ما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كل معتزليا، فان اعتقد الأكثر او الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه الا باعتقاد هذه الأصول الخمسة، وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم .

المسعودي : مروج 234/3

## 94 ـ الـراونـــديـــة

قد قدمنا في الكتاب الأوسط ما ذكرته الراوندية ـ وهم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب، من أهل خراسان وغيرهم ـ (من) أن رسول الله صلى اللهعليه وسلم قبض وان احق الناس بالامامة بعده العباس بن عبد المطلب، لانه عمه ووراثه وعصبته، لقول الله عز وجل «وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله» وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه امره، الى أن رده الله اليهم، وتبرؤا من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، واجازوا بيعة على بن ابي طالب رضي الله عنه باجازته لها، وذلك لقوله : يا ابن أخي، هلم الى (ان) ابايعك فلا تختلف عليك اثنان، ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع لابي العباس : يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم امام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم ـ يعني أبا العباس السفاح.

وقد صنف هؤلاء كتبا في هذا المعنى الذي ادعوه هي متداولة فيايدي اهلها ومنتحليها، منها كتاب صنفه عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو المترجم بكتاب «امامة ولد العباس» يحتج فيه لهذا المذهب، ويذكر فعل ابي بكر في فدك وغيرها، وقصته مع فاطمة رضي الله عنها، ومطالبتها بارثها من ابيها صلى الله عليه وسلم، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن، وما جرى بينها وبين ابي بكر من المخاطبة، وما كثر بينهم من المنازعة، وما قالت ، وما قيل لها عن أبيها عليه السلام، من انه قال: «نحـن معاشر الانبياء نرث ولا نورث» وما احتجت به من قوله عز وجل (وورث سليمان داود ) على أن النبوة لا تورث، فلم يبق الا التوارث، وغير ذلك من الخطاب. ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحجاج للرواندية، وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه، ولا كان يعتقده، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا .

المسعودي : مروج 252/3

## 95 ـ الخرمية وقتل أبي مسلم

ولما نمى قتل ابي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية وهي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وامامته، وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته : فمنهم من رأى انه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملا الأرض عدلا. وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة، وهؤلاء يدعون الفاطمية، واكثر

الخرمية في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ الكردكية واللودشاهية وهاتان الفرقتان اعظم الخرمية، ومنهم كان بابك الخرمى الذي خرج على المأمون والمعتصم بالبدين من ارض الران واذربيجان. وسنأتي على خبره وخبر مقتله في أخبار المعتصم فيما يرد من هـذا الكتاب ان شـاء اللـه، واكـثـر الخرميـة ببـلاد خراسان والري واصبهان واذربيجان وكرج ابى دلف والبرج الموضع المعروف بالرذ والورسنجان ثم ببلاد الصيروان والصيمر واريوجان من بلاد ماسبدان وغيرها من تلك الامصار، واكثر هؤلاء في القرى والضياع. وسيكون لهم عند انفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه فيالمستقبل من الزمان. ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية، وقد اتينا على مذاهبهم وذكر فرقهم في كتابنا («المقالات ، في اصول الديانات» وان كان قد سبقنا الى ذلك مؤلفو الكتب في المقالات» فاجتمعت الخرمية ـ حين علمت بقتل ابي مسلم ـ (بخراسان، فخرج فيهم رجل يقال له بسنفاد مننيسابور يطلب بدم ابي مسلم) فسار في عسكر عظيم من بلاد خراسان الى الري، فغلب عليها وعلى قومس وما يليها، وقبض على ما كان بالري من خزائن ابي مسلم، فكثر جمع بسنفاد بمن حوله من أهل الجبال وطبرستان، ولما اتصل خبر مسيرهم بالمنصور سرح اليه جهور بن مرار العجلى في عشرة آلاف رجل ، وتلاه بالعساكر، فالتقوا بين همدان. والري على طرف المفازة ، فاقتتلوا قتالا شديدا، وصبر الفريقان جميعا. فقتل بسنفاد، وولى اصحابه فقتل منهم ستون الفا وسبى منهم سبايا وذرارى كثيرة. وكان بين خروجه الى مقتله سبعون ليلة، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل ابي مسلم بأشهر.

المسعودي : مروج 305/3

## 96 ـ شـهـادة عن الشـعوبية

ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة، ولا أشد نصبا للعرب، من السفلة والحشوة، وأوباش النبط وابناء اكرة القرى. فأما اشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة، فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسبا ثابتا.

وقال رجل منهم لرجل من العرب : ان الشرف نسب، والشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم. وانما لهجت السفلة منهم بذم العرب، لان منهم قوما

تحلوا بحلية الادب، فجالسوا الاشراف، وقوما اتسموا بميسم الكتابة، فقربوا من السلطان، فدخلتهم الانفة لآدابهم، والغضاضة لاقدارهم، من لؤم مغارسهم، وخبث عناصرهم، فمنهم من الحق نفسه باشراف العجم، واعتزى الى ملوكهم، ودخل في باب فسيح لاحجاب عليه، ونسب واسع لا مدافع عنه. ومنهم من أقام على خساسة ينافخ عن لؤمه، ويدعي الشرف للعجم كلها، ليكون من ذوي الشرف، ويظهر بغض العرب ينتقصها، ويستفرغ مجهوده في مشاتمها، واظهار مثالبها، وتحريف الكلم في مناقبها، وبلسانها نطق، وبهممها انف، وبآدابها تسلح عليها، فان هو عرف خيرا ستره، وان ظهر حقره، وان احتمل التأويلات صرفه الى اقبحها. وان سمع سوءا نشره، وان لم يسمعه نفر عنه، ولن لم يجده تخرصه، فهو كما قال القائل :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا　　　شرا اذيع وان لم يعلموا بهتوا

ومن ذا رحمك الله صفا فلم يكن له عيب، وخلص فلم يكن فيه شوب.

وقيل لبعض الحكام : هل من أحد ليس فيه عيب ؟ فقال : لا، لان الذي ليس فيه عيب هو الذي لا يموت.

وعائب الناس يعيبهم بفضل عيبه، وينتقصهم بحسب نقصه، ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه في عوراته. ولا شيء أحب للفاسق من زلة العالم، ولا الى الخامل من عثرة الشريف. قال الشاعر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه　　　مراد لعمري ان اردت قـريب

وقال اخر :

وأجرأ من رأيت بظهر غيب　　　على عيب الرجال ذوو العيوب

وقد كان زياد بن ابي سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية في استلحاقه عمل كتابا في المثالب لولده وقال : من عيركم فقرعوه بمنقصته، ومن ندد عليكم فأبهروه بمثابته، فان الشر بالشر يتقى، والحديد بالحديد يفلح

وكان ابو عبيدة معمر بن المثنى اغرى الناس بمشاتم الناس، والهجهم بمثالب العرب، وحاله في نسبه وابيه الأقرب اليه حال نكره ان نذكرها، فنكون كمن أمر بأمر. ولم يأتمر وزجر عن القبيح ولم يزدجر، وهي مشهورة، ولكن كرهنا أن تدون في الكتب وتخلد على الدهر، ولا سيما وهو رجل يحمل عنه العلم ويحتج بقوله في القرآن. ومن أتعب قلبا وانصب فكرا ممن أراد أن يجعل الحسنة سيئة، والمنقبة

مثلبة، ويحتاج لاخراج الباطل في صورة الحق فيقصد من المناقب ، لمثل قوس حاجب، يضحك منها ويزرى بها .

ابن قتيبة : كتاب العرب

## 97 ـ المـهدي والزنادقة

وكان المهدم قد جد في طلب الزنادقة وغلط في أمرهم، فقدم عليه بجماعة منهم في سنة ست وستين ومائة، واحضر معهم وضاح الشروى، وعبد الله بن ابي عبيد الله، وكان اخذه بمكة ، فأدخل على المهدي فقال ازنديق أنت ؟ قال نعم.

وممن يعتقد الزندقة قوم يرون ان جحد ما يدينون بهمحظور، وان التقية غير جائزة، وقد دل هذا الخبر على أن عبد الله بن ابي عبيد الله منهم.

فقال له المهدي اقرأ فقرأ «تباركـت وعالموك بعظم الخلق» فأشار الربيع على المهدي بمطالبة ابيه بقتله، فقال المهدي لابي عبيد الله، اضرب عنقه، فتنحى كأنه يريد ان يفعل ذلك فارتعد، فقال له العباس بن محمد يا أمير المؤمنين : شيخ كبير وله حرمة، ويكفيك غيره ما اردته منه. وابو عبيد الله يقول لابنه ما بهذا ادبتك ، ولقد علمتك كتاب الله عز وجل !

فأمر المهدي عبد الله بن أبي العباس الطوسي وكان يخلف أباه على الحرس بقتله، فلما تنحى ليقتل صاح يا أمير المؤمنين التوبة، فتغافل عنه المهدي، فقال عافية بن يزيد القاضي بالتوبة يا امير المؤمنين.

فأقبل عليه المهدي وقال والله ما الله اردت بذلك ! انزعوا عمامته، وجأوا في عنقه، فما زال يدفع ويوجأ في عنقه حتى أخرج .

وأمضى عبد الله بن ابي العباس ما امر به من قتله فقتل، ودفن ولم يستقبل به القبلة.

وأحضر في جملة من احضر من الزنادقة ابن لابي ايوب سليمان بن ايوب المكي، فأقر بالزندقة وتاب، فقبل المهدي توبته وامر باطلاقه، وذلك في سنة ست وستين ومائة.

الجهشياري : كتاب الوزراء ص 113

## 98 ـ تأديب الأمـراء

قال الأحمر النحوي : بعث الي الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين، فلما دخلت قال : يا أحمر، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، اقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام وبداه،وامنعه الضحك الا في اوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه، ورفع مجلس القواد اذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة.

المسعودي : مروج 362/3

## 99 ـ من عادات ائمة الفقه

قال مطرف : قال مالك : قلت لامي : اذهب فاكتب العلم، فقالت، تعال فالبس ثياب العلم، فألبستني ثيابا مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت : اذهب فاكتب الآن.

وقال رحمه الله : كانت امي تعمني وتقول لي : اذهب الى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه.

قال ابن القاسم : افضى بمالك طلب العلم الى ان نقض سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد..

قال انس بن عياض : جالست ربيعة، ومالك يومئذ يجلس معنا، وما يعرف الا بمالك اخي النضر، ثم زال حرصه على طلب العلم حتى صرنا نقول : النضر اخو مالك. وكان مالك حين طلبه يتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد . فقالت اخته لابيه : هذا اخي لا يأوي مع الناس، قال : يابنية، انه يحفظ حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم.

قال مالك : كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى ابي علينا يوما مسألة، فأصاب أخي وأخطأت ، فقال لي ابي : الهتك الحمام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت الى ابن هرمز سبع سنين، وفي رواية ثماني سنين، لم اخلطه بغيره..

وقال ابن هرمز يوما لجاريته : من بالباب ؟ فلم تر الا مالكا. فرجعت فقالت له : ما ثم الا ذلک الأشقر. فقال لها دعيه ، فذلک عالم الناس.

وكان مالک قد اتخذ تبانا محشوا للجلوس على باب ابن هرمز يتقي به برد حجر هناک، وقيل : بل برد صحن المسجد، وفيه كان يجلس ابن هرمز.

قال مالک : ان كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه، فظننا انه يريد نفسه مع ابن هرمز ، وكان ابن هرمز استحلفه ان لا يذكر اسمه في حديث.

عياض : ترتيب المدارک 130/1

## 100 ـ نموذج من ثقافة أئمة الفقه

قال البهلول بن راشد وغيره : ما رأيت انزع بآية من كتاب الله من مالک بن انس، مع معرفته بالصحيح والسقيم، والمعمول به من الحديث والمتروک، وميزه للرجال، وصحة حفظه وكثرة نقده، الى ما يؤثر عنه من الكلام في غير ذلک من العلوم: كرسالته، الى ابن وهب في الرد على اهل القدر ، وكقوله : جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة، ويروى ست عشرة في علم لم ابثه لاحد من الناس.

قال : وكان من اعلم الناس بالرد على اهل الأهواء، وبما اختلف فيه الناس.

وقال المهدي : اخبرني بعض نقاد المعتزلة من القرويين قال : أتيت مالک بن انس فسألته عن مسألة من القدر بحضرة الناس، فأومأ الى أن اسكت، فلما خلا المجلس قال لي : سل الآن. وكره ان يجيبني بحضرة الناس، قال : فزعم المعتزلي انه لم تبق له مسألة من مسائلهم الا سأله عنها، واجابه فيها، واقام الحجة على بطالة مذهبهم، حتى نفذ ما عند المعتزلي وقام عنه.

وتأليفه في الأوقات والنجوم، وإشاراته الى مآخذ الفقه واصوله التي اتخذها اهل الأصول من اصحابه معالم اهتدوا بها، وقواعد بنوا عليها. وغيره ممن ذكرنا لم يجمع هذا الجمع، ولا وصل هذا الحد مع استقلالهم بالفقه، ووصفهم بالعلم، ولكن فوق كل ذي علم عليم، مع الثقة التامة، والتقوى. وشدة التحري في الحديث بالفتيا.

وبهذا الوجه احتج الشافعي على محمد بن الحسن في ترجيح علم مالک على علم ابي حنيفة، حين تناظرا في ذلک، فقال له الشافعي، : الانصاف تريد ام المكابرة؟ قال : الانصاف.

قال الشافعي : ناشدتك الله ! من اعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه ؟

قال محمد بن الحسن : اللهم صاحبكم.

قال الشافعي : فمن اعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال له :اللهم صاحبكم.

قال الشافعي : القياس لايكون الا بهذه الاشياء ، فعلى اي شيء تقيس ؟ ثم قال : اللهم صاحبكم.

قال الشافعي : فلم يبق الا القياس.

قال محمد : صاحبنا اقيس .

الشافعي : ونحن ندعى لصاحبنا مالا تدعونه لصاحبكم.

وفي رواية : وصاحبنا عليه القياس، ولكن كان يتوقى ويتحرى، ويريد التأسي بمن تقدمه.

فرحم الله الشافعي ومحمد بن الحسن، فلقد انصفا، والذي قاله الشافعي هو حق اليقين : فان الاجتهاد والقياس والاستنباط انما يكون على الأصول، فمن كان اعلم بالأصول كان استنباطه اصح، وقياسه احق.

عياض : المدارك ١/٨١

## 101 ـ رسالة مالك الى الليث بن سعد

«من مالك بن انس الى الليث بن سعد، سلام عليك، فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو. اما بعد عصمنا الله واياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا واياك من كل مكروه. اعلم رحمك الله انه بلغني انك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وانت في امامتك وفضلك، ومنزلتك من اهل بلدك، وحاجة من قبلهم اليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بان تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه : فان الله تعالى يقول في كتابه العزيز : «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» . الآية، وقال تعالي : «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» الآية : فانما الناس تبع لأهل المدينة، اليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام : اذ

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

ثم قام من بعده اتبع الناس له من امته ممن ولى الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا انفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ثم اخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك فياجتهادهم وحداثة عهدهم، وان خالفهم مخالف، أو قال امرا غيره اقوى منه وأولى، ترك قوله، وعمل بغيره.

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فاذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم ار لاحد خلافه، للذي في ايديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لاحد انتحالها ولا ادعاؤها.

ولو ذهب اهل الأمصار يقولون : هذا العمل الذي ببلدنا، وهذا الذي مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

فانظر ـ رحمك الله ـ فيما كتبت اليك فيه لنفسك، واعلم اني ارجو ان لا يكون دعاني الى ما كتبت به اليك الا النصيحة لله تعالى وحده، والنظر لك والظن بك ، فانزل كتابي منك منزله، فانك ان فعلت تعلم اني لم آلك نصحًا .

وفقنا الله واياك لطاعته وطاعة رسوله في كل امر وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب يوم الأحد لتسع مضين من صفر» . اتينا بها على وجهها لسرد فوائدها، وهي صحيحة مروية.

عياض : المدارك 41/1

## 102 ـ المذاهب الفقـهـية

وكذلك يلزم هذا طالب العلم في بدايته في درس ما اصله الا علم من هؤلاء وفرعه، وحفظه ما الفه وجمعه، والاهتداء بنظره في ذلك والميل حيث مال معه، اذ لو ابتدأ الطالب في كل مسألة يطلب الوقوف على الحق منها بطريق الاجتهاد عسر عليه ذلك، اذ لا يتفق له الا بعد جمع خصاله، وتناهى كماله، واذا كان بهذه السبيـل استغنى عن تقليد ارباب المذاهب ، وكان من المجتهدين بنفسه، فسبيله

ان يقلد من يعرفه ان هذا هو الحق، حتى اذا ادرك من العلم ما قيض له، وحصل منه ما قسم الله له، وافلح وكان فيه محل للنظر والاجتهاد، انتقل الى ذلك وادركه.

فاذا تقررت هذه المقدمة فنقول :

قد وقع اجماع المسلمين في اقطار الأرض على تقليد هذا النمط، واتباعهم، ودرس مذاهبهم دون من قبلهم، مع الاعتراف بفضل من قبلهم وسبقه ومزيد علمه، لكن للعلل التي ذكرنا، وكفاية ما نخلوه وانتقوه من ذلك كما قدمنا.

ثم اختلفت الآراء والهمم في تعيين المقلد منهم بحسب ما عتقدوا فيه انه هو الا علم والأولى بالاتباع إما من اعتقاد اعتقدوه، أو انتشار ذكر وثناء سمعوه، أو من اتباع له اعتمدوه واتبعوه. أو من تقليد لآبائهم وأهل بلادهم نشأوا عليه وألفوه .

فكان المقلدون المقتدى بمذاهبهم، اصحاب الاتباع في سائر الاقطار والبقاع قبل كثرة :

مالك بن آنس بالمدينة، وأبو حنيفة والثورى بالكوفة، والحسن البصرى بالبصرة على تقدم منه، والاوزاعي بالشام، والشافعي بمصر، وأحمد بن حنبل بعده ببغداد وكان لابى ثور هناك أيضا أتباع .

ثم نشأ ببغداد ابو جعفر الطبرى، وداود الاصبهاني، فألفا الكتب، واختارا في المذاهب على رأي اهل الحديث، واطرح داود منهما القياس ، وكان لكل واحد منهما اتباع.

وسرت جميع هذه المذاهب في الآفاق، فغلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد افريقية والاندلس وصقلية والمغرب الاقصى، الى بلاد من اسلم من السودان الى وقتنا هذا، وظهر ببغداد ظهورا كبيرا، وضعف بها بعد اربعمائة سنة، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة، وغلب من بلاد خراسان على قزوين وابهر، وظهر بنيسابور اولا، وكان بها وبغيرها له ائمة ومدرسون سنذكر منهم بعد في طبقاتهم من الهم الله اليه، وكان ببلاد فارس، وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام .

وغلب مذهب ابي حنيفة على الكوفة والعراق وما وراء النهر وكثير من بلاد خراسان الى وقتنا هذا، وظهر بافريقية ظهورا كثيرا الى قريب من اربعمائة عام، فانقطع منها، ودخل منه شيء ما وراءها من المغرب قديما بجزيرة الاندلس وبمدينة فاس.

وغلب مذهب الأوزاعي على الشام وعلى جزيرة الاندلس اولا. الى أن غلب عليها مذهب مالك بعد المائتين. فانقطع منها.

واما مذهب الحسن والثوري فلم يكثر اتباعهما ولم يطل تقليدهما. وانقطع مذهبهما عن قريب.

واما الشافعي فكثر اتباعه وظهر مذهبه ظهور مذهبي مالك وابي حنيفة قبله. وكان أول ظهوره بمصر. وكثر اصحابه بها مع المالكية. ثم بالعراق وبغداد. وغلب عليها وعلى كثير من بلاد خراسان. والشام. واليمن. الى وقتنا هذا. ودخل (ما) وراء النهر وبلاد فارس. ودخل شيء منه بلاد افريقية والاندلس باخرة بعد الثلاثمائة.

واما مذهب احمد بن حنبل فظهر ببغداد. ثم انتشر بكثير من بلاد الشام وغيرها وضعف الآن.

واما اصحاب الطبري وابي ثور. فلم يكثروا ولا طالت مدتهم. وانقطع اتباع ابي ثور بعد ثلاثمائة . واتباع الطبري بعد اربعمائة.

واما داود فكثر اتباعه. وانتشر ببغداد وبلاد فارس مذهبه. وقال به قوم قليل بافريقية والاندلس. وضعف الآن.

فهؤلاء هم الذين وقع اجماع الناس على تقليدهم مع الاختلاف في اعيانهم. واتفاق العلماء على اتباعهم والاقتداء بمذاهبهم. ودرس كتبهم والتفقه على مآخذهم، والبناء على قواعدهم. والتفريع على أصولهم. دون غيرهم ممن تقدمهم أو عاصرهم للعلل التي ذكرناها .

وصار الناس اليوم في اقطار الدنيا الى خمسة مذاهب : مالكية. وحنفية. وشافعية. وحنبلية. وداودية. وهم المعروفون بالظاهرية.

فحق على طالب العلم. ومريد تعرف الصواب والحق. ان يعرف أولاهم بالتقليد. ليعتمد على مذهبه. ويسلك . في التفقه سبيله.

عياض : المدارك 63/1

## 103 ــ موازنة بين المذاهب الفقهية

أما ابو حنيفة والشافعي فيسلم لهما حسن الاعتبار. وتدقيق النظر والقياس وجودة الفقه والامامة فيه. لكن ليس لهما امامة في الحديث ولا معرفة به ولا استقلال

بعلمه. ولا يدعيانه ولا يدعى لهما . وقد ضعفهما فيه اهل الصنعة. وهذا اهل الصحيح لم يخرجا عنهما منه حرفا. ولا لهما في اكثر المصنفات ذكر. وان كان الشافعي متبعا للحديث ومفتشاعن السنن. لكن بتقليد غيره. والاحتمال على رأى سواه. والاعتراف بالعجز عن معرفته. فقد كان يقول لابن مهدي وابن حنبل : انتما اعلم بالحديث مني. فما صح عندكما تعرفاني به لآخذ به. وهذه درجة تقصر عن درجة الاجتهاد العلية. واين يجد المجتهد في كل حين اماما في الحديث. اذا لم يتبحر فيه. أو في علم القرآن اذا لم يستقل به. يسأل هل لنازلته التي ينظر فيها اصل فيهما ام لا ؟ ولا سبيل الى انكار امامتها في الفقه جملة.

وللشافعي في تقرير الأصول. وتمهيد القواعد. وترتيب الأدلة والمآخذ وبسطه ذلك. ما لم يسبقه اليه من قبله وكان فيه عليه عيالا كل من جاء بعده. مع التفنن في علم لسان العرب. والقيام بالخبر والنسب. وكل ميسر لما خلق له.

كما ان احمد وداود من العارفين بعلم الحديث. ولا تنكر امامة احد منهما فيه. لكن لا تسلم لهما الامامة في الفقه، ولا جودة النظر في مأخذه. ولم يتكلما في نوازل كثيرة كلام غيرهما. وميلهما مع المفهوم من الحديث . لكن داود نهج اتباع الظاهر. ونفى القياس. فخالف السلف والخلف. وما مضى عليه عمل الصحابة فمن بعدهم. حتى قال بعض العلماء : ان مذهبه بدعة ظهرت بعد المائتين وحتى انكر عليه ذلك اسماعيل القاضي أشد انكار. واذا لم يقل بالقياس، وهو أحد أركان الاجتهاد فيما يجتهد فعلام فيما لم ينص عليه، يعتمد، وليس تقصير من قصر منهم في فن بالذي يسقط رتبته عن الآخر ، ولكل واحد منهم من الفضائل والمناقب ما حشيت به الصحف، ونقله السلف والخلف، لكن نقص ركن من أركان الاجتهاد يخل به على كل حال، والله ولي الارشاد .

عياض : ترتيب المدارك 85/1

## 104 ــ التحري في استعمال الحديث

قال ابن وهب :

قال مالك سمعت من ابن شهاب احاديث كثيرة ما حدثت بها قط، أو حدث بها . قال الفروى : فقلت له:لم ؟ قال : ليس عليها العمل.

قال عتيق بن يعقوب :

قال لي مالك : اخذت من ابن شهاب عشرة قناديق . في بطونها وظهورها، ان منها أشياء ما حدثت بها منذ اخذتها بالمدينة.

وقال رجل لمالك :

ان الثوري حدثنا عنك في كذا. فقال : اني لاحدث في كذا وكذا حديثا ما اظهرتها بالمدينة.

قال ابن مالك :

لما دفنا مالكا دخلنا منزله، فأخرجنا كتبه. فاذا هي سبع قناديق من حديث ابن شهاب. ظهورها وبطونها ملاى. وعنده قناديق . أو صناديق . من حديث اهل المدينة. فحمل الناس يقرأون، ويدعون، ويقولون : رحمك الله يا ابا عبد الله ! لقد جالسناك الدهر الطويل. فما رأيناك ذاكرت بشيء مما قرأناه .

وفي رواية عن ابنه ضد هذا،وأنا ما وجدنا له الا كتابا واحدا فيه لابن شهاب احاديث قد خط على بعضها.

وعن اسحاق بن بابين : وجدنا في تركة مالك صندوقين مقفلين فيها كتب، فجعل ابي يقرؤها ويبكي. ويقول : رحمك الله، ان كنت تريد بعلمك الا وجه الله، لقد جالسته الدهر، فما سمعته يحدث بشيء مما قرأت.

وذكر عتيق بن يعقوب : أنه دخل منزل مالك بعد موته مع ابنه، ففتح صناديق مملوءة كتبا، فقرأها، فذكر نحوه، ثم فتح صندوقا آخر فأخرج منه اثنى عشر الف حديث للزهري، وفتح آخر فأخرج منه سبع قنادق ظهورها وبطونها من حديث اهل المدينة. فما رأيت فيها شيئا مما ذاكر به اصحابه في حياته.

عياض : المدارك 186/1

## 105 ــ محنة مالك

قال : وذكروا انه هاج بالمدينة هيج في ابتداء ايام ابي جعفر، فبعث اليها أبوجعفر بن عمه جعفر بن سليمان بن العباس، ليسكن هيجها وفتنها . ويجدد بيعة اهلها فقدمها وهو يتوقد نارا على أهل الخلاف لهم، فأظهر الغلظة والشدة، وسطا بكل من الحد في سلطانهم، وأشار الى المنازعة لهم، واخذ الناس بالبيعة، وكان مالك بن

انس رحمه الله لم يزل صغيرا وكبيرا محسدا، وكذلك كل من عظمت نعمة الله عليه في علمه او عمله. او فهمه أو ورعه. فكيف بمن جمع الله ذلك فيه. ومنـــذ نشـأ كذلك قد منحه الله تعالى العلم والعمل، والفهم واللب والنبل، ووصل له ذلك بالدين والفضل. عرف منه ذلك صغيرا . وظهر فيه كبيرا ، واستلب الرياسة ممن كان قد سبقه اليها. بظهور نعمة الله عليه. وسموها به على كل سام، فاستدعى ذلك منهم الحسد له. والجأهم ذلك الى البغي عليه، فدسوا الى جعفر بن سليمان من قال له : ان مالكا يفتي الناس بان ايمان البيعة لا تحل ، ولا تلزمهم لمخالفتك، واستكراهك اياهم عليها، وزعموا انه يفتي بذلك اهل المدينة اجمعين، لحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما اكرهوا عليه» فعظم ذلك على جعفر واشتد عليه وخاف ان ينحل عليه ما ابرم من بيعة اهل المدينة . وهم ان يبدر فيه بما عافاه الله منه. وأنعم على المسلمين ببقائه. فقيل له : لاتبدر فيه ببادرة، فانه من أكرم الناس على أمير المؤمنين. وآثرهم عنده ولا بأس عليك منه فلا تحدث شيئًا الا بأمر أمير المؤمنين أو يستحق ذلك عندنا بأمر لايخفى على أهل المدينة. قدس اليه جعفر بن سليمان بعض من لم يكن مالك يخشى أن يؤتي من قبله، ومن مأمنه يؤتى الحذر، فسأله عن الايمان في البيعة فافتاه مالك بذلك طمأنينة اليه، وحسبة فيه. فلم يشعر مالك الا ورسول جعفر بن سليمان يأتيه، فأتوا به اليه منتهك الحرية، مزال الهيبة ،فأمر به فضرب سبعين سوطًا : فلما سكن الهيج بالمدينة، وتمت له البيعة، بلغ بمالك ألم الضرب حتى اضجعه .

الامامة والسياسة 2/148

# TEXTES ET DOCUMENTS

# 2

# TEXTES ET DOCUMENTS
# 2
## L'empire musulman sous le Califat Abbasside
## Epoque des Grands Califes
## 132-232h / 750-847

Documents arabes
(textes originaux ou traduits)
Regroupés selon des thèmes historiques
et présentés par :

**Mohamed ZNIBER**
*Professeur d'histoire à la faculté des lettres de Rabat*

Avec ce deuxième volume, nous abordons une étape importante dans l'histoire de l'Islam, celle de l'installation du pouvoir abbasside. Comme l'ont reconnu la plupart des historiens modernes, il ne s'agit pas d'un simple renversement dynastique, mais bel et bien d'une grande révolution aux dimensions politique, sociale, culturelle, religieuse et économique.

La prédominance arbe qui était la constante politique des Omeyyades a pris fin sous les abbassides. C'est la naissance d'une nouvelle société où tous les musulmans, quelle que soit leur origine éthnique, jouissent des mêmes droits. Les mawalis ne sont plus traités en classe inférieure. Les clivages sociaux prennent un autre caractère et une autre signification. C'est la notion de Umma musulmane, ou communauté qui prédomine sous le nouveau régime. Cette orientation va renforcer la situation de l'Islam religion toute nouvelle, et aura pour conséquence de l'enraciner davantage dans le vaste empire récemment conquis.

Cela, bien entendu, n'empèche ni les contestations ni les prolémiques, ni les révoltes, ni la naissance de mouvements séparatistes. Mais les événements de ce genre ne présentent aucune gravité pour l'Islam et pour son empire. Tantôt, ils sont l'expression d'une crise de croissance ; tantôt ils se réduisent a de simples querelles de famille. C'est l'époque où l'Islam commence à développer sa civilisation et sa culture et à marquer de son génie unificateur tous les pays et territoires conquis. Les mouvements séparatistes n'auront qu'une signification politique très réduite, car le sens de la Umma, de la communauté islamique représenté l'idée-force essentielle. Les Idrissides au Maroc, les Omeyyades en Espagne, malgré leur inimité avec les Abbassides, travailleront dans le même sens que ces derniers, c'est-à-dire qu'ils vont chercher à répandre l'Islam, à le défendre, à créer de nouveau foyers de culture et de civilisation. Ainsi, s'il y a rupture au sommet, il y a unité à la base.

La révolution abbasside va donner à l'état musulman sa forme classique. Avec ses institutions, son administration, ses traditions, le Califat abbasside restera pendant de nombreux siècles, et jusqu'à une époque relativement

récente, le modèle pour tout pouvoir monarchique musulman, et s'il y a quelques variantes, elles ne portent que sur le détail.

Le deuxième volume de la série «Textes et Documents» que nous présentons aujourd'hui va essayer, dans la mesure du possible, de faire ressortir tous ces aspects historiques : Certes, pour certains chapitres, nous n'avons pas le choix de textes que nous aurions aimé avoir, parceque les sources sont rares ou indigentes mais je pense qu'il est possible de mettre l'essentiel en lumière par un choix raisonné de documents et de témoignages.

C'est ce que nous avons essayé de faire dans ce recueil consacré au premier siècle abbasside : Il nous a fallu mettre à profit la masse énorme de chroniques, de livres d'adab, d'encyclopédies biographiques, de recueils juridiques etc... pour y puiser les extraits qui présentent un intérêt pour le chercheur et pour l'étudiant qui restent pour nous les premiers à servir dans un tel travail. Bien entendu, je ne perds pas de vue que tout choix à quelque chose d'arbitraire et je reste à la disposition de mes maîtres et de mes collègues pour recueillir toute observation et toute suggestion de nature à rendre cette modeste contribution plus utile.

Enfin, je m'excuse auprès du lecteur arabisant au sujet de la transcription des noms propres arabes, pour laquelle je n'ai pu utiliser les signes conventionnels : J'ai pensé, en effet, rendre davantage service à ceux qui n'ont pas la pratique de ces signes et ils représentent le plus grand nombre.

## 1. — Orientation de la propagande abbasside.

Mohamed Ibn Ali ibn Abdallah ibn Abbas, en désignant les hommes chargés de répandre sa prédication, leur dit au moment du départ :

«Quant à Koufa et à son Sawad, il y a là les partisans de Ali Ibn Abi Talib. Basra reste attachée à Utmàn, préconise l'abstention en disant : Sois Abdullah l'assassiné et non Abdullah l'assassin. La Jazira est harawrite et rebelle, ses hommes sont des bédouins tels dés barbares, des musulmans de mœurs chrétiennes : Les gens du Cham, quant à eux, ne connaissent que la famille d'abu Sufiyan et n'ont d'obeissance que pour les Beni Marwan, couvant à notre encontre une haine enracinée et une colère énorme. Les gens de la Mecque et de Médine sont doncinés par (le souvenir) d'Abu Bekr et de Umar. Orientez-vous plutôt vers Khurassàn. Là il y a le grand nombre, la bravoure manifeste, des ames saines, des cœurs idemnes qui n'ont point été déchirés par les passions, ni séparés par les sectes, ni préoccupés par la religion, qui n'ont été touchés par aucune corruption dans le passé : Ils ne portent pas, aujourd'hui, les mêmes ambitions que les arabes, ne connaissent pas de rassemblement partisan autour d'un notable, ni d'alliance entre tribus, ni d'esprit de clan. Ils ne cessent d'être humiliés, souhaitant une fin (à leur souffrance) et plaçant leur espoir dans des renversements de dynastie : Ce sont des soldats bien bâtis qui impressionnent par leur taille, leur carrure, leurs épaules, leurs têtes, leur barbe, leurs moustaches, leur voix, leur langage rude qui sort de bouches menaçantes : Enfin, c'est comme si je prends augure de l'Orient, de la source de la lumière du monde et du phare de l'humanité».

Ibn Qutayba Uyun Al Akhbar I/804

## 2. — Abu Muslim apparaît au milieu de l'ogitation dans le Khurassan

Lorsque Zayd fut tué et que son entreprise aboutit à l'issue qu'on connait, les chiites s'agitèrent dans le Khurassan : Leur causé rencontra de l'audience, et nombreux furent ceux qui se rallièrent à eux et qui inclinèrent de leur côté : Les chiites se mirent à rappeler aux gens les actes des Omeyyades le préjudice qu'ils causèrent à la famaille du Prophète. Il n'y eut point de localite qui ne fut atteinte par cette propagande : Des

prédicateurs firent leur apparition : des visions surgirent dans les rèves : on lut en commun les livres contenant le récit des batailles.

Yahya ibn Zayd prit la fuite vers le Khurassan : Il se dirigea vers Balkh, où il se tint caché : Yusuf écrivit à son sujet à Hisham qui envoya des instructions à Nasr ibn Sayyar : Celui-ci expédia une armée à Balkh. Commandée par Hudba ibn Amir Al-Saâdi : Les soldats se mirent à la recherche de Yahya jusqu'à ce qu'ils mirent la main sur lui et le ramenèrent avec eux à Nasr qui l'emprisonna à Qohondus Merw.

Mis au courant des troubles au Khurassan et du grand nombre de gens qui s'y agitent Hicham écrivit à Yusuf ibn Omar : «Envoies-moi un homme qui connait bien le Khurassan !» Il lui envoya Abd Al Karim ibn Sulayt ibn Atiyya al Hanafi : Il le questionna sur la situation au Khurassan, sur sa population, sur les hommes qui s'y trouvent et qui pourraient en prendre la charge de gouverneur. Il lui proposa un certain nombre de noms originaires de Qays et de Rabî'a. Toutes les fois qu'il déclinait de nom d'un homme de Rabî'a. Hicham disait :

Rabî'a n'est pas faite pour défendre les frontières !»

Lorsqu'il déclina le nom de Nasr ibn Sayyar Al-Laythi Hicham dit : «On dirait qu'il est victoire et marcheur !» Puis il dit : «Jeune homme, écris son acte de nomination.» Il écrivit l'acte et il lui donna l'ordre de le faire parvenir d'urgence à Yusuf ibn Omar : Avant cela, Nasr ibn Sayyar avait été désigné à la tête d'un canton du Khurassan : Il destitua Jaâfar ibn Hanzala et prit le gouvernement de la province.

Ayant mis la main sur les administrateurs de Khalid. Yusuf les emprisonna : Il y avait parmi eux. Issa ibn Màqil Al Ijli. Abu Muslim. dont le nom était Ibrahim ibn Utman avant que Mohamed ibn Ali ne lui donnât celui de Abdu-l-Rahman. était au service de Issa ibn Maqil. Il les entendit parler du mouvement des Bani Hashim et comprit bien de quoi il s'agissait : Sulayman ibn Kathir. Malik ibn Al Haytham Qahtaba ibn Shabib se rendaient alors à la Mecque : Il rendirent visite en prison à Isa Ibn Màqil et à Asim ibn Yunus : Il remarquèrent qu'Abu Muslim venait les voir souvent et les entretenait de la cause : Ils le prirent avec eux et l'amenèrent à Muhamed ibn Ali. Celui-ci lui parla et dit : «Je crois, avec certitude, que ce jeune homme est l'ami (que nous cherchons), ou plutôt c'est lui. c'est lui Acceptez ce qu'il dit. suivez son commandement. engagez-vous les uns les autres à être à ses côtés : il est. sans aucun doute. l'homme de la cause.

Certains connaissseurs de l'histoire de la dynastie disent qu'Abu Muslim. vue la date de sa naissance n'a pas connu Muhamed ibn Ali. mais qu'il a plutôt rencontré son fils Ibrahim ibn Muhamed ibn Ali.

Yaqubi : Histoire 2/326

### 3. — Le premier Vizir de la dynastie Abbasside

Le premier personnage quì reçut le titre de vizir, sous la dynastie d'Abbas, fut Abou Salamah Hafs, fils de Sulayman, surnomé Khallal, il était de la tirbu de Hamdan, et mawla de la famille de Sabi. Le Khalife Abaul-Abbas (Saffah) ne pouvait pardonner à ce ministre d'avoir songé à détourner la couronne au profit d'une autre famille (celle des Alides). Abou Moslim s'exprimait ainsi dans une lettre où il engageait le Kalife à se défaire de son vizie: «Prince des Croyants. Dieu vous permet de répandre le sang de cet homme, puisqu'il a violé et parjuré son serment et hvangé de parti.» Mais Saffah lui répondit: «Je ne veux pas inaugurer mon règne par le meurtre d'un de mes partisans et surtout d'un homme tel qu'Abou Salamah qui, propogateur zélé de notre cause, a exposé sa vie, joué son existence et dépensé sa fortune pour servir son Imam et combattres ses ennemis: » Abou Djâfar, frère du Kalife et Dawoud ben Ali, son oncle, eurent des conférences avec lui. Abou Moslim leur avant écrit pour les prier de conseiller à Saffah cette exécution. Le Khalife leur fit la même réponse: «Je ne sacrifierai pas leur dit-il tout le bien qu'il nous a fait, les épreuves qu'il a supportées et tout un passé de dévouement pour une faute légée qu'il faut attribuer aux suggestions de Satan et à la fragilité humaine — Prince des Croyants, répliquèrent ces deux conseillers, il importe de vous tenir sur vos gardes: nous ne répondons pas de ce qu'il peut entreprendre contre vous. -- Et moi je réponds de lui, s'écria Saffah, la nuit aussi bien que le jour, en secret et publiquement, seul et devant tout le mondeĉ «Ces paroles transmises à Abou Moslim lui lui déplurent et l'impressionnèrent. Craignant de la part d'AbouSalamah une tentative criminelle contre sa personne il envoya quelques-uns de ses affidés avec la mission d'employer la ruse pour le délivrer du vizir. Le Khalife aimait la société d'AbouSalamah et l'associait aux causeries du soir: car ce ministre était homme d'esprit ingénieux, lettré, fort au courant de la politique et du gouvernement: Ce fut, dit-on, un soir, en sortant sans escorte de chez le Khalife alors dans sa ville d'Anbar, qu'il fut assait par les agents d'Abou Moslim et égorgé.

Mas'udi: Muruy p.134
(trad B: de Meynard)

### 4. — Les premiers adversaires de la dynastie abbasside

Abu-l-Abbas dépêcha son frère Abu Jâfar à Wâsit : Hassan ibn Qahtaba assiégeait Yazid ibn Umar ibn Hubayra. Il lui donna l'ordre de poursuivre le combat contre lui. Il subit un siège de onze mois. A ses côtés se trouvait

un certain nombre de généraux de Marwan et de ses partisans, de ceux qui étaient avec Amir ibn Dubara, Nubata ibn Hanzala, tués par Qahtaba. Yazid avait pris ses dispositions pour soutenir un siège de deux ans. Il s'était approvisionné en vivres et en fourrage pour vingt mille combattants ; ses soldats menèrent avec ardeur le combat. Il demanda *l'aman* et envoya des émissaires. Sa demande fut acceptée. Un acte *d'aman* fut rédigé en sa faveur avec les conditions qu'il avait formulées. Abu-l-Abbas y apposa son Sceau.

Ibn Hubayra sortit et se rendit auprès d'Abu Jâfar. Il fit acte d'allégeance puis s'en retrourna chez lui : Chaque jour il enfourchait sa monture au milieu de mille cavaliers et de mille fantasssins : L'un des intimes d'Abu Jâfar dit à ce dernier : «Dieu garde le Prince !» Quand Ibn Hubayra arrive, l'armée se sent intimidée : Il dit alors, à son chambellan : «Dis à Ibn Hubayra de réduire son cortège !» Il vint alors accompagné de cinq cent fantassins : Le chambellan lui dit : «On dirait que tu viens nous voir pour nous impressionner par ta puissance !» Il leur rendit visite avec une escorte de trente cavaliers et de trente fantassins. Abu Jâfar disait : «Je n'ai jamais vu homme plus noble, plus distingué qu'Ibn Hubayra. Il entrait me voir et disait : «Comment vas-tu toi ? ou comment te portes-tu ? Quelles nouvelles reçoit-tu de ton chef ? je l'entretenais et il s'écriait : «Bravo ! c'est très bien» il se reprend, ensuite, et dit : «Dieu garde le prince ! J'étais, encore, tout récemment gouverneur. J'ai pris l'habitude de dire ces mots quand quelqu'un m'entretenait :» Un jour, il lui dit : «Parle moi !» Il répondit : «Je vais te donner le conseil le plus sincère. L'engagement devant Dieu ne peut être trahi et le lien qu'il crée ne peut être dénomé. Votre pouvoir est encore nouveau, faites gouter aux gens sa douceur et évitez de leur faire sentir son amertume !»

Des lettres d'Ibn Hubayra furent interceptées. Elles étaient adressées à Mohamed ibn Abdallah ibn Hassan auquel Ibn Hubayra faisait savoir qu'il lui prêtait serment d'allégeance, qu'il disposait de fonds, d'équipement et d'armement, qu'il avait à sa disposition vingt mille combattants. Cette correspondance fut envoyée à Abu-l-Abbas. Celui-ci dit : «Il a trahi son serment, commis l'acte qui légitime que son sang soit versé :» Il écrivit, alors, à Abu Jâfar : «Il faut lui trancher la tête, car il a trahi et failli à ses engagements», ses lettres se succédèrent nombreuses à ce suet. Abu Muslim écrivit de Khurassan exhortant à ce qu'il soit mis à mort. Il explique que le régime ne peut se consolider tant qu'il reste en vie et qu'il ne s'agit pas d'un homme qu'on peut récupérer — Abu Jâfar dit à Al Hassan ibn Qahtaba Al-Taï : «Le prince des Croyants a donné l'ordre d'exécuter cet homme, c'est à toi de t'en charger — Al Hassan dit : «Si je le tue, l'esprit de clan

attisera la haine entre sa tribu et la mienne : cela sèmera la discorde dans ton armée parmi les soldats qui sont de l'une ou de l'autre partie : Mais envoie lui plutôt un homme de Mudar pour le tuer». Il lui envoya, alors, Khuzayma ibn Khazim Al-Tamimi : Celui-ci se dirigea vers lui avec un détachement. Il le trouva assis au milieu de la cour du palais à Wasit : Dès qu'il les vit il dit : «Je jure par Dieu que le visage des hommes trahit la perfidie !» Quand ils furent près de lui, son fils Dawud alla se mettre en face d'eux. Un homme du groupe le fit tomber à terre d'un coup de sabre. Ils se retournèrent vers Yazid lui donnèrent des coups d'épée jusqu'à ce qu'il mourût : Ils poursuivirent, ensuite, ses généraux et ses partisans et les exterminèrent jusqu'au dernier.

Sarik ibn Saykh Al Mahri se révolta à Bukhara, en disant : «Nous n'avons pas prêté notre serment d'allégeance à la famille de Muhammed pour cela : pour verser le sang, pour agir contrairement au droit. Abu Muslim lui envoya Ziyad ibn Salih Al Khuzaï qui le combattit et le tua.

Abu Muhammed Al Sufyani se révolta de son côté, mettant en jeu tous ses moyens : Son nom est Yazid ibn Abdullah ibn Yazid ibn Muàwiya ibn Abi Sufyân : Muhammad ibn Maslama ibn Abd Al Malik se révolta aussi à Harrân et assiégera Musa ibn Kàb, gouverneur d'Abu Jàfar qui était chargé, alors, de l'administration de la Jazira. Il l'attaqua à la baliste, incendia ses portes : Ceci se passait en 133.

Abu Muhammad ibn Maslama apprit, ensuite la mort d'Abu Muhammad Al-Sufiyani, celle d'Abu-l-Ward ibn Kawthar ibn Zufar : Il se retira alors, et son groupe se dispersa. Musa ibn Kab se lança à sa poursuite, tua nombre de ses partisans en se dirigeant vers de nombreuses villes de la Jazira.

### 5. — Dispersion des Alides dans les provinces

Les fils et les frères de Mahammed se répendirent en tous sens et propagèrent la cause de leur *Imam* : Parmi ces émigrants., son fils Ali se rendit en Egypte et y périt : un autre fils, Abd Allah, après avoir parcouru le Khoraçân, s'en éloigna pour échapper aux recherches et trouva la mort dans le Sind : Un troisième fils, Haçan, se réfugia dans le Yémen et y fut retenu prisonnier jusqu'à sa mort : Parmi ses frères, Mouça passa en Mésopotamie : Yahya vint a Rey et dans le Tabaristân : nous aurons occasion de parler de lui, au règne de Réchid : Un autre frère, Idris, se rendit dans le Magreb, où il trouva un grand nombre d'adhérants : devenu maître d'un Etat puissant dans ce pays, il mourut empoisonné par un agent

secret de Mansour. Son fils Idris Ben Idris monta sur le trône paternel, et la contrée où ils regnèrent reçut alors le nom de *Pays d'Idris, fils d'Idris.* On trouvera dans l'Histoire Moyenne le récit de ces événements : dans les pages où nous racontons le règne d'Obeïd Allah, le maître du Maghreb et le fondateur de la ville de *Mehdyah,* l'histoire d'Aboul-kacem, son fils et les circonstances qui les forcèrent à sortir de Selemyah *(Salamias),* ville du territoire d'Emèse, pour se rendre dans le Maghreb.

Cependant Ibrahim ben Abd Allah, frère de Mohammed, s'était emparé de Basrah, et il avait réuni un grand nombre de partisans parmi les populations de la Perse, de la Susiane, etc : Il sortit alors, à la tête d'une forte armée recrutée parmi les zeïdites et les sectaires que l'on connaît, aujourd'hui, à Bagdad, sous le nom de *Moutazélites ;* il avait encore d'autres adhérents, et parmi eux Yça, fils de Zeïd (fils d'Ali, fils de Haçan, fils d'Ali, fils d'Abou Taïb). Le Khalife Mansour leur opposa une armée commandée par Yça ben Mouça et par Saïd, fils de Salim. Ibrahim périt, les armes à la main, en un lieu nommé *Bakhamrâ,* à seize parasanges de Koufah, dans la contrée de Taff. Cette localité est souvent citée dans les vers élégiaques composés en l'honneur d'Ibrahim ; un des poetes qui en ont parlé est Dîbil, fils d'Ali le Khozâïte, dans la Kacideh qui débute ainsi :

Là où le Koran s'enseignait, la pieuse récitation ne s'entend plus ; le temple où descendait la parole divine n'est plus qu'une solitude.

Dans cette même poésie se trouvent ces vers :

Dans tombes s'élèvent à Koufan (surnom de Koufah), d'autres à Taïbah (Médine), d'autres à Fekkh ; qu'elles soient bénies !

Le Djouzedjân renferme d'autres sépultures : une tombe s'élève à Bakhamrâ, près d'El-Gourbat.

Masudi : Muruy 6/193
(trad B de Meynard)

### 6. — Mentalité des soldats du Khurassan

Parmi les affaires sur lesquelles l'attention du Prince des Croyants - Dieu le garde - doit être attirée, vient celle de cette armée du Hurâsân. Il s'agit de soldats qui n'ont jamais eu de pareils en période d'Islam et qui sont doués d'une qualité qui portera à la perfection leur vertu, s'il plait à Dieu : Ils sont, en effet, connus chez tout le monde pour leur sens de la discipline, leur valeur, leur chasteté d'âme et de corps, leur refus de toute corruption, leur

humilité devant les chefs. C'est là un état d'esprit que nous ne connaissons chez nul autre qu'eux-mêmes. La où un redressement s'impose chez eux. en ce qui concerne notamment leurs actes matériels. leurs opinions et leurs paroles. c'est dans le fait que dans le groupe se trouvent mêlés un homme à l'esprit téméraire et immodéré à un autre docile mais inquiet et plein de doutes. Celui qui fonde son préstige sur les gens en s'appuyant uniquement sur des hommes dont il n'est pas sur d'avoir obtenu l'accord sur la même opinion. la même parole et la même conduite. ressemble à celui qui. monté sur un lion. effraye le spectateur. alors qu'il est effrayé davantage : Si le Prince des croyants écrivait une charte portée à la connaissance de tous claire. concise. embrassant tout ce qu'ils doivent faire ou éviter. allant le plus loin dans la persuasion. douée de toute outrance. que les chéfs doivent connaître afin de s'y conformer dans la direction de toute la collectivité et de rappeler à tous ceux qui leur sont inférieurs parmi le commun des hommes. cela corrigerait leur état d'esprit. serait un argument contre les autres et une justification devant Dieu : C'est que la plupart de ceux qui parlent parmi les généraux du Prince des Croyants disent. en gros. dans ce qu'ils ordonnent où ce qu'ils racontent que les montagnes pourraient bouger si le Prince des Croyants leur en donnait l'ordre. que s'il commandait de tourner le dos à la Qibla. au moment de la prière. cela serait exécuté : Rares sont les opposants. les auditeurs qui écoutent un tel langage sans qu'ils éprouvent dans leur coeur de l'incertitude et du doute : Ce que disent les modérés parmi les musulmans soutient mieux la cause. renforce davantage le pouvoir. intimide plus l'opposant. donne meilleure stisfaction au sujet loyal. fonde mieux la justification des actes devant Dieu le Très-Haut.

Ibn Al-Muqaffa : Bisalat as-Sababa 119

## 7. — Politique d'Al Mahdi dans les Lieux Saints

Al Mahdi fut accompagné au cours de cette année par son fils Harum et un certain nombre de gens de sa famille : Parmi ses compagnons il y avait Yaqub ibn Dawud. qui figurait dans le rang qui lui était reconnu par le calife — Hassan ibn Ibrahim ibn Abdullah ibn Hassan. pour lequel Yaqub avait obtenu la reconnaissance de *l'amam* qu'il lui avait accordé auparavant. vint lui rendre visite dés son arrivée à la Mecque — Mahdi lui manifesta de la sympathie. le gratifia de dons et lui donna en *iqtà* un domaine des *sawafi* du Hijaz.

Au cours de cette même année. Al Mahdi dépouilla la Kaaba de l'habillement qu'elle portait et la fit revêtir de tentures neuves. Les gardiens de la Kaaba. à ce que l'on rapporte. lui avait fait savoir. en effet. qu'ils craignaient que la Kaaba ne s'effondât sous le poids du nombre de tentures qu'elle portait. Il donna. alors. l'ordre d'enlever tous les habillement dont elle était couverte. de la dénuder complétement et d'oindre la chambre de *Khaluq*. On rapporte que lorsqu'on était parvenu à l'habillement offert par Hisham on s'est aperçu qu'il était en velours de soie épais et de grande qualité. Le reste des costumes antérieurs était en étoffe yéménite.

Au cours de cette année. Al Mahdi. à ce que l'on rapporte distribua une somme considérable d'argent parmi les gens de la Mecque. à la Mecque même : Il fit de même à Médine. On repporte qu'en faisant le compte de l'argent distribué au cours de ce voyage. il s'aperçut qu'il comportait les trente millions de dirhams qu'il avait fait apporter avec lui trois cent mille dinars qui lui étaient parvenus d'Egypte. deux cent mille dinars du Yemen. La totalité de cet argent fut distribué. Il distribua également cent cinquante mille pièces d'étoffe. Il fit élargir la Mosquée du Prophète de Dieu. — Il ordonna de démolir la *maqsura* qui se trouvait dans la Mosquée du Prophète de Dieu. Elle fut démolie. Il voulut raccourcir le *minbar* du prophète de Dieu pour lui rendre sa taille originelle et supprimer tout ce que Muâwiya y avait ajouté. Selon le témoignage attribué à Malik ibn Anas. il demanda conseil à ce sujet. on lui dit que les clous avaient pénétré aussi bien le bois ajouté par Muawiya que le bois originel qui était véstute. «Nous ne sommes pas du tout sûrs que les clous. en jouant dans le bois au cours de leur extraction. ne le cassent» Al Mahdi. abandonna son idée.

Au cours de son séjour à Médine. il ordonna d'enregistrer cinq cent hommes des Ansars. pour. qu'ils figurent avec lui. en Iraq, comme gardes et défenseurs : Il leur attribua des soldes. en plus de leur atà. A leur arrivée à Baghdad. il les gratifia d'une qatia qui porte leur nom.

Tabari : Histoire 8/133

**8. — Perplexité de Râsid au sujet de la succession au trône**

Voici ce que raconte Asmâyi : «Me trouvant auprès de Rachid dans une de ses réunions du soir. je remarquai chez ce prince une agitation extraordinaire : tantôt il s'asseyait. tantôt il se couchait : il répandait des larmes et murmurait ces vers :

13 ·

Confie le gouvernement des serviteurs de Dieu à un homme sur stable dans ses projets, sans faiblesse ni avarice :

Et dédaigne les propos de ces esprits mobiles qui ne comprennent pas ce que le peuple lui-même a compris.

En entendant ces paroles, je devinai que le prince méditait quelque projet important : Bientôt il ordonna à l'eunuque Mesrour d'aller chercher Yahya ; quelques instants après, Yahya était auprès de lui : «père de Fadl, lui dit Rachid, le Prophète est mort sans faire de testament : L'islam était alors dans toute la force de sa jeunesse, la foi venait de naître : l'union régnait parmi les Arabes auxquels Dieu avait accordé la sécurité après le péril, la gloire après l'abaissement : Mais ce peuple ne tarda pas à renier Abou Bekr, et tu sais ce qui arriva à cette époque. Abou Bekr ayant remis le pouvoir à Omar, la nation le reconnut et accepta son nouveau Khalife. Mais Omar confia le choix de son successeur à une commission délibérative, et tu n'ignores pas qu'à la suite des discordes civiles l'autorité sorit des mains qui devaient la posséder. Je veux, quant à moi, régler ma succession : je veux l'assurer à un homme dont j'approuve la conduite et dont jestime les actes, à un homme qui j'en suis sûr gouvernera habillement, sans qu'on ait à redouter de sa part ni pusillanimité ni faiblesse, je veux parler d'Abd Allah (Mamoun)... Cependant les suffrages de la Famille de Hachim inclinent vers Mohammed, malgré l'assujettissement de celui-ci à ses passions, à ses caprices qui sont sa seule règle de conduite, malgré la facilité avec laquelle il prodigue sa fortune et associe les femmes, jusqu'au esclaves, à ses desseins : Au contraire, Abd Allah ne mérite que des éloges, son jugement est solide et les affaires les plus importantes peuvent lui être confiées. Or, si je témoigne mes préférences pour lui, je déchaîne contre nous la famille de Hachim : si je fais de Mohammed mon unique héritier, je crains que ce choix ne jette le trouble dans l'Etat : Fais-moi connaître ta manière de voir dans cette affaire, donne-moi un conseil dont le mérite et l'efficacité seront reconnus de tous, car tu es, grâce à Dieu, un homme de bon conseil et d'une rare pénétration : — Prince des Croyants, répondit Yahya, toute faute est, excusable, toute erreur peut se réparer, exceptée celle qui concerne la succession au trône : car une erreur de ce genre est pleine de périls, une faute pareille est sans remède. Mais ce n'est ni le moment ni le lieu d'en délibérer :» Le Khalife compris que son conseiller voulait l'entretenir en particulier, et il m'ordonna de me tenir à l'écart : je me levai et allai m'asseoir dans un coin d'où je pouvais entendre ce qui se disait : Il entamèrent une longue discussion et leur délibération dura toute la nuit ; ils ne se séparèrent qu'après avoir décidé que la couronne passerait à Abd

Allah après Mohammed :» — Oumm Djâfar (Zebeïdah) vint, un jour, chez Rachid et lui dit. «Vous êtes injuste envers votre fils Mohammed : vous lui donnez le gouvernement de l'Irak et lui refusez subsides et généraux, tandis que vous accordez tout cela à (son frère) Abd Allah : — Qui est-tu, lui répondit Réchid, pour discuter nos actes et juger nos agents ? J'ai donné à ton fils un gouvernement paisible, et à Abd Allah un pays en état de guerre : or le chef d'une province hostile a plus besoin de troupes que le chef d'un gouvernement pacifié : D'ailleurs c'est ton fils que je redoute pour Abd Allah, mais Abd Allah ne serait pas un danger pour ton fils, si celui-ci venait à être proclamé :»

En l'année 186, Réchid fit le plérinage avec ses deux héritiers présomptifs, Emin et Mamoun : il redigea les deux chartes (qui réglaient les droits) des deux frères et les fit suspendre à la Kaabah. Ibrahim Nakhayi raconte que l'acte tomba par terre au moment où on le hissait sur les murs du temple : «Je me dis en moi-même, ajoute Ibrahim, de même que cet écrit est tombé avant d'être arboré, de même cette royauté s'évanouira avant d'arriver à son terme.»

Mas'udi : Muruj 6/323
(trad B de Meynard)

### 9. — Les Ayyarun aux Côtés d'Amin

La lutte entre les troupes de Mamoun et les soldats nus et autre défenseurs d'Amin devenait de plus en plus acharnée : le Khalife déchu était tenu en échec dans son château nommé *Salih*, sur la rive occidentale : Après une grande bataille où périt beaucoup de monde dans les deux partis, un certain Huçeïn, que sa vie insouciante et débauchée avait fait surnommer *Khalî*, composa les vers suivants :

Amin Allah, espère en Dieu : il te donnera la patience et le succés.

Mets ton sort entre ses mains : Dieu le tout puissant te protégera.

Sa grâce nous accordera la victroire : nous écraserons l'ennemi, au lieu de fuir :

Elle donnera aux hérétiques, tes adversaires, un jour de honte et de défaite.

La coupe de la mort est un breuvage odieux et d'une saveur amère :

Nous l'avons bu et fait boire, mais la dernière coupe sera pour eux.

Telles sont les vicissitudes de la guerre : un jour, nous sommes vaincus, un autre jour vainqueurs.

La situation devenant chaque jour plus périlleuse pour Amin et son parti, la population de Bagdad se partagea en deux factions. Une mêlée générale eut lieu dans un quartier de la ville occidentale nommé *Dar errakik* : elle fut très-meurtrière : les grandes voies, les places, les rues et ruelles étaient jonchées de cadavres. Les combattants s'égorgeaient aux cris de *Vive Mamoun*, et de *Vive le detrôné*. Les ruines s'amoncelaient partout et le feu étendait ses ravages. Dans cette extrémité, c'est un bonheur inoui, une joie immense pour ceux, hommes et femmes, vieillards et enfants, qui pouvaient se sauver, avec les débris de leur fortune, dans le camp de Tahir : là du moins, leur -existence et leurs bien n'étaient plus menacés. Un témoin de cette triste journée la rapelle dans les vers qui suivent :

C'est sur Bagdad que je pleure, après avoir perdu les douceurs d'une vie fortunée.

Nous avons échangé notre bonheur contre le chagrin, notre aisance contre la misère.

Le regard funeste de l'envie nous a atteints et nous a décimés sous les coups des machines de guerre.

Les uns sont jetés brutalement dans les flammes : ici une femme pleure l'un des siens qui a péri dans les flots :

Une autre apelle à grands cris sa famille, une autre son compagnon chéri.

Une jeune fille aux yeux noirs, gracieusement parée d'une tunique teinte en *khalouk* (cynoglosse).

Apelle son frère : mais elle n'a plus de frère : il est tombé à côté de son ami.

Là une famille est bannie de se monde : et ses biens sont mis en vente dans les bazars.

Un étrangers, venu de loin, git, cadavre sans tête, au milieu de la rue.

Le massacre s'étend partout et les partis ne peuvent plus se reconnaître.

Le fils ne défend plus son père : l'ami fuit loin de l'ami.

Tout ce que nous chérissions a disparu, et je pleure en songeant à *Dar er rakik*.

Un général originaire du Khoraçan vint trouver Tahir. A la vue de ces hommes qui se battaient nus et sans armes, il s'écria avec mépris : «Que

peuvent les stratagèmes de ces gens qui n'ont pas même d'armes contre nos troupes fortes, vaillantes, bien armées et équipées ?» Se voyant épié par un des *nus*, il arma son arc, pointa sa flèche et sortit des rangs. Son adversaire avait au bras un bouclier en nattes d'osier, et, sous l'aisselle, un arc rempli de pierres et de morceaux de briques. A mesure que le chef tirait, sa flèche venait se planter dans le bouclier ou à côté ; le gueux la ramassait et la serrait dans ùn coin de son bouclier, qu'il avait, pour cette destination, disposé en forme de carquois. Il continua ainsi jusqu'à ce que son adversaire, ayant épuisé ses flèches, fondît sur lui le sabre à la main : Le gueux, tirant une pierre de son sac, l'atteignit juste à l'oeil ; une autre pierre faillit le renverser à bas de son cheval. Le chef s'enfuit à toute bride en laissant tomber son casque : «Non, s'écriait-il en s'éloignant, ce ne sont pas des hommes, mais des démons !» Voici ce que dit à ce propros un témoin oculaire, Abou Yâkoub le Khozaïmite, partisan d'Amin et ennemi fanatique de Mamoun, dans une trop longue *kacideh* où il décrit les séditions et les combats dont Bagdad fut le théâtre.

Les marchés de Kerkh sont abandonnés : les vagabonds, les passants y courent au hasard.

La guerre a suscité, parmi la canaille, des lions auvages, à la dent cruelle, etc.

Le passage suivant d'une poésie d'Ali l'aveugle confirme aussi notre récit

Nos guerres ont fait surgir des hommes qui ne sont ni de Kahtan ni même de Nizar :

Une troupe armée de cuirasses en laine, qui se précipite au combat comme des lions dévorants.

Une coiffure de *khouss* (feuilles de cocotier) leur tient lieu de casque : des nattes d'osier, de bouclier.

Ils ne savent ce que c'est fuir, à l'heure où les plus braves cherchent leur salut dans la fuite.

Un seul d'entre eux, nu et n'ayant pas même un caleçon, attaque une troupe de mille hommes.

Et ce héros s'écrie en frappant : «tiens voilà de la part du *guerrier vagabond !*»

Chaque jour la lutte devenait plus acharnée et la résistance des deux partis opiniâtre. Le Khalife détroné n'avait plus d'autres défenseurs, d'autres troupes que ces soldats nus, qui se distingaient pár leurs casques en feuilles de cocotier et leurs boucliers de nattes : Tahir pressait vivement le

siège : tous les quartiers de Bagdad tombaient l'un après l'autre en son pouvoir, et les habitants, à mesure qu'ils passaient sous sa domination, lui prêtaient main-forte contre l'ennemi : La portion de la ville qui ne s'était pas soumise souffrait surtout de dévastations. Il avait fait creuser des retranchements qui séparaient ses troupes de celle d'Amin, au milieu des maisons, des Khans et des hôtels. Autant son armée était vaillante et favorisée par le succès, autant celle d'Amin diminuait et s'affaiblissait : Tandis que les soldats de Tahir amoncelaient ruines sur ruines, ceux du roi déchu en étaient réduits à s'abriter sous des débris de planches, de toiles et d'autres matériaux de ce genre : c'est à ce fait que les vers suivants d'un *Mohammedi*, c'est-à-dire d'un des ennemis acharnés de Mamoun, font allusion :

Chaque jour s'ouvre devant nous une brèche que nous ne pouvons fermer : l'ennemi avance vers son but, et nos forces diminuent :

Quand une maison s'écroule sous ses coups, nous ramassons les débris de sa toiture et nous attendons l'heure de réunir d'autres décombres semblables.

Ils lèvent le gibier au bruit de leurs tambours, et, quand une proie passe devant eux, ils la frappent.

Ils ont ravagé notre pays du levant au couchant, et nous ne savons plus où aller :

S'ils sont présents, ils racontent ce qu'ils ont vu : si aucun désastre n'a lieu devant eux, ils en inventent.

On voit cependant un brave guerrier, célèbre en toute rencontre, se coucher comme un chien à l'aspect des *soldats nus*.

Nos lecteurs (du Koran) eux-mêmes ont la permission de combattre, et tous ceux qui ont péri avaient le droit (de défendre leur khalife).

Tahir, Irrité de la constance des partisans du *détroné* en face de la mort malgré les ruines, l'incendie et le carnage causés par les machines, leur coupa les vivres du côté de Basrah, de Wacit et des autres voies d'approvisionnement. Alors, tandis que dans tel quartier de Bagdad habité par les *Mamouni*, le pain se payait un dirhem les vingt *ritles*, dans tel autre quartier au pouvoir des Mohammedi (ou partisans d'Amin), un seul *ritle* de pain coûtait un dirhem : Le peuple accablé de misère et en proie aux horreurs de la famine, désespérait de son salut. La joie régnait dans le camp de Taher, le découragement dans celui de Mohammed le détrôné : On en trouve la preuve dans ces vers d'Ali l'aveugle :

Les habitants ruinés et pourchassés s'abordent avec mille récits différents.

O toi qui veux connaître leur situation, regarde et tu n'auras plus besoin d'interroger.

Jadis leur *tekbir* (Te Deum) s'adressait au Miséricordieux, aujourd'hui c'est pour eux un cri de guerre.

Masudi : Muruj 6/459
(trad B de Meynard)

## 10. — Engagement d'Al Mamun

L'orsque Al Mamun prit la décision de résider dans le Huràsàn, AlFadl ibn Sahl lui dit : «Des chefs comme Abdullah ibn Malik, Yahya ibn Mu'àd et d'autres sont beaucoup plus utiles à ta cause que moi-même, parce qu'ils jouissent de la notociété et de l'ancienneté dans l'exercice, du commandement et qu'ils sont compétents dans la conduite de la guerre. Laisse moi ton serviteur jusqu'à ce qu'ils t'accordent leur affection et donne leur l'apparence du pouvoir.» Il lui répondit : «Agis comme tu viens de dire».

Al Fadlibn Sahl Alla les trouver chez eux, leur rappela *l'acte d'allégence* et leur devoir d'y rester fidèle. Il rapporte : «C'était, comme si dans un plat je leur servais un cadavre dont la consommation est interdite par la loi sacrée ! Les uns refusent : les autres disent : «Qui peut s'entremettre entre le Prince des Croyants et son frère ? ! :»

*Ayant* appris cela, Al Mamun lui dit : «Assume toi-même la tâche.» Al *Fadl lui dit :* «Tu as lu le coran et tu connais les préceptes de la religion : à mon avis, il faut réunir les docteurs de la loi les exhorter à connaître la vérité, a y conformer leur action, à mettre en pratique la *sunna ;* il faut que tu sièges sur le tapis de feutre, que tu examines continuellement les affaires des *mazalim*, que tu octoires les honneurs aux chefs de l'armée, aux rois, aux fils des rois». Ce qu'il fit

Il disait à l'homme de Tamim : «nous te mettrons à la place de Musà ibn Kàb» : au Yéminite : *«Nous t'accordons la place de Qahtaba et de Màlik ibn* Al Haytam» : Il réduisit d'un quart l'impôt foncier au Hurasan, et les autres de dire «c'est notre neveu et le cousin du Prophète»

Lorsque Rafi ibn Al-Layt vit la conduite d'Al Mamoun, il se soumit à lui en l'an cent quatre vingt quatorze. Ayant obtenu son pardon, il se rendit auprès de lui, reçut de lui les honneurs et fit partie de son entourage

Lorsque Al Fadl ibn Sahl s'introduisit dans l'intimité d'Al Mamoun, qu'il se rendit compte de son mérite et que les astres lui prédirent son accession future au Califat, il lui demanda de lui écrire une déclaration de sa propre main. Il écrivit, alors, le texte dont voici copie :

«Si Dieu me confie la charge de veiller sur les affaires des croyants et m'inverstit du Califat sur ses créatures, je m'engage envers lui à faire respecter son Livre et la sunna de son Prophète Mohamed, à ne point Verser de Sang de propros délibéré, en dehors des cas où cela est permis par sa loi et ordonné par ses commandements, à n'obtenir de personne argent ni bien meuble, par voie de contrainte ou par ruse interdite aux musulmans, à ne suivre dans l'exercice de la justice ni ma passion, ni ma colère, à moins que cela ne soit au service de Dieu. A tout cela je m'engage par un serment ferme, qui me fait obligation d'y rester fidèle, désirant être davantage comblé par Dieu et *craignant* qu'il ne me demande de lui en rendre compte, car le Très-Haut a dit «Tenez votre engagement, il vous en sera demandé compte.»

Si je venais à changer de conduite ou à trahir cet engagement, je mériterais d'être maudit et chatié. Je demande à Dieu de me préserver de sa colère, le prie de m'aider à lui obéir, à me faire éviter toute déviation de sa *voie, pour mon bien et pour celui de la communauté musulmane, à me* faciliter tout ce qu'il aime et qui le satisfait dans mes actes. Car il est le proche, celui qui exauce les prières, le tout puissant dans ses volontés.

Ceci a été écrit de ma propre main.»

Jahs iyàri : p 225

## 11. — Révoltes Alides

En 199, Abou'l-Seraya (fils de Mansour), le Cheïbanite, se révolta en Irak, y forma un parti puissant et se réunit à Mohammed (fils d'Ibrahim, fils d'Ismaïl, fils d'Ibrahim, fils d'El-Haçan, fils d'El-Haçan fils d'Ali, fils D'Abou Talib) surnommé *Ibn Tabataba :* A Médine éclata la révolte de Mohammed (fils de Suleïman, fils de Daoud, fils d'El-Haçan, fils d'El-Haçan, fils d'Ali). A Basrah, Ali (fils de Mohammed, fils de Djâfar, fils de Mohammede, fils d'Ali fils de Mohammed, fils d'Ali) et Zeïd (fils de Mouça, fils de Djâfar, fils de Mohammed, fils d'Ali, fils d'El-Huceïn, fils d'Ali), s'insurgèrent et se rendirent maître de cette ville. Après la mort d'Ibn Tabataba, qui eut lieu en cette même année, Abou'l-Seraya, qui

s'était fait le promoteur de sa cause, prolama à sa place Mohammed (fils de Mohammed fils de Yahia, fils de Zeïd, fils d'Ali, fils d'El-Huceïn, fils d'Ali), enfin dans la même année 199, le Yémen fut soulevé par Ibrahim «fils de Mouça fils de Djâfar, fils de Mohammed (fils de d'Ali, fils d'El-Haçan, fils d'Ali.' En 200 de l'hégire, sous le règne de Mamoun, la Mecque et le territoire du Héjaz s'insurgèrent sous les ordres de Mohammed (fils de Djâfar fils de Mohammed, fils d'Ali, fils d'El-Huceïn fils d'Ali), qui se proclama *imam* : Les Sebtieh, qui sont une ramification des Chites, embrassèrent sa cause et reconnurent son titre d'imam : mais ils se séparèrent en plusieurs partis, les uns tenant à leurs croyances avec un zèle exagéré, les autres, plus modérés, suivant la doctrine des Imamites. C'est ce que nous avons expliqué dans nos *Discours sur les principes des religions*, et dans nos *Annales historiques* ouvrage qui traite des peuples anciens, des races éteintes et des royaumes qui ont disparu : voir la trentième section de ce livre consacré à l'histroire des Abbassides et des manifestations des Alides sous leur règne. On prétend que ce même Mohammed, fils de Djâfar, commença au début de sa manifestation, par embrasser la cause de Mohammed (fils d'Ibrahim) Ibn Tabataba, que soutenait Abou'l-Seraya : après la mort d'Ibn Tabataba, Mohammed se porta prétendant et prit le titre de *Prince des Croyants.* Aucun des descendant du prophète qui se levèrent pour revendication du droit, avant ou après lui, ne porta ce titre, excepté le sus-dit Mohammed, fils de Djâfar ; sa beauté, le charme de sa personne et ses qualités accomplies lui valurent le surnom de *dibadjeh* (brocart). Les événements qui se passèrent alors à la Mècque et dans le pays environnant le conduisirent chez Mamoun, qui se trouvait à Merw, dans le Khoraçan : ce prince lui accorda l'amnistie et l'emmena avec lui. Quand ils arrivèrent à Djordjân, Mohammed mourut et fut enterré dans cette ville. Nous avons donné les détails de sa mort, son histoire et celle de plusieurs autres Alides avec le récit de leur mort en différentes contrées, dans notre livre intitulé *Jardins des intelligences ou Histoire de la famille d'Abou Talib.*

Une autre manifestation eut lieu à Médine, sous le règne de Mamoun celle d'El-Huceïn (fils d'El-Haçan, fils d'Ali, fils d'Ali, fils d'El-Hueïn, fils d'Ali), connu sous le nom *d'Ibn el-Aftas.* On croit qu'il travailla d'abord à la cause d'Ibn Tabataba, mais après la mort de ce dernier, il fit valoir ses propres droits de son titre *d'imam.* Il surprit la Mecque et se présenta devant les pélérins qui étaient à Mina sous la conduite de Daoud (fils d'Yça., fils de Mouça) le Hachémite ; Daoud ayant pris la fuite les pélerins se dirigèrent vers Arafah et s'arrêtèrent à Mouzdelifah, n'ayant plus de chef issu de la maison d'Abbas, Ibn el-Aftas arriva au *Mawkaf* (station d'Arafah) pendant la nuit, et ensuite à Mouzdelifah. Comme les pélerins

n'avaient plus d'imam, il célébra la prière avec eux, se rendit ensuite à Mina, y accomplit la cérémonie du sacrifice, puis il entra à la Mecque et dépouilla la kaabah de toutes ses tentures, à l'exception des voiles blancs de fabrication égyptienne.

En l'Année 200 de l'hégire, Hammad surnommé *Kund-gouch* (l'oreille duré) s'empara d'Abou'l-Seraya le Hachémite et l'envoya à Haçan, fils de Sehl, qui le mit à mort et le fit pendre au gibet, sur le pont de Bagdad ; nous avons raconté dans les *Annales historiques* les faits concernant Abou'l-Seraya, sa révolte, ses guerres, comment il tua Abdous (fils de Mohammed, fils d'Abou Khaled) avec plusieurs généraux d'origine persane, et comment il anéantit leur armée.

Masudi : Muruj 7/55
(trad B de Meynard)

## 12.— Al Mamoun désigne un Alide comme successeur

En la même année, Mamoun députa Ridja, fils d'Abou Dahhak et l'eunuque Yacir auprès d'Ali (fils de Mouça, fils de Djâfar, fils de Mohammed, fils d'Ali, fils d'El-Huceïn, fils d'Ali), susnommé Rida, pour le conduire auprès de lui : ils escortèrent Rida en lui témoignant le plus grand respect.

Mamoun ordonna, à la même époque, de faire le recensement des descendants d'Abbas, hommes et femmes, enfants et vieillards : leur nombre s'éleva à trente-trois mille âmes. Rida (Abou'l-Haçan Ali, fils de Mouça) rejoignit Mamoun dans la ville de Merw, où ce prince lui fit meilleur accueil, ayant réuni les chefs principaux, il leur déclara qu'après avoir passé en revue les descendants d'Abbas fils d'Abd Mottalib et ceux d'Ali, fils d'Abou Talib, il n'avait pas trouvé parmi ses contemporains un homme plus distingué et plus digne du pouvoir que Ali (fils de Mouça) Rida ; en conséquence il le fit reconnaître comme son héritier et fit graver son nom sur la monnaie d'or et d'argent. Il donna sa propre fille Oumm et-Fadl à Mohammed, fils de Rida ; il interdit le noir sur les vêtements et les drapeaux et le remplaça par la couleur verte, là et partout ailleurs. Quand ces nouvelles parvinrent en Irak, les descendants d'Abbas en furent vivement émus, parce qu'ils se virent ainsi exclus du pouvoir. Le pèlerinage fut conduit, cette année là, d'ordre de Mamoun, par Ibrahim, fils de Mouça, fils de Djâfar), frère de Rida. Tout ce qu'il y avait d'Abbassides à Bagdad,

d'accord avec leurs affranchis et leurs créatures, prononcèrent la déchéance de Mamoun et prétèrent serment à Ibrahim, fils de Mehdi surnommé *Ibn Chiklah*, qu'ils élurent Khalife le jeudi 5 de moharrem 202 ou, selon d'autres, 203 de l'hégire.

En 202, Duo'l-Riaseteïn Fadl, fils de Sehl, fut surpris et assassiné dans son bain, à Serakhs ville du Khoracân., et dans l'hôtel même de Mamoun pendant que ce prince se rendait en Irak. Mamoun parut très affecté de cet évènement : il fit périr les meurtriers, puis il continua sa route. Ali Rida, fils de Mouça, mourut à Tous, d'une indigestion de raisin : on prétend que ce fruit était empoisonné (Safar 203) ; Mamoun récita la prière des funérailles. Rida mourut âgé de cinquante-trois ans, ou, d'après une autre version, de quarante-neuf ans et six mois ; il était né à Médine en 153 de l'hégire. Mamoun lui avait donné en mariage sa fille Oumm Habib.

Masudi : Murui 7/59
(trad B de Meynard)

## 13. — Rentrée d'Al Mamun à Bagdad

Un certain nombre de chroniqueurs, parmi lesquels Ishaq ibn Suleyman Al Hachimi, Abou Hassan Al Zyadi, et Ibn Chebbanat Al Marwazi se référant à des livres d'histoire, rapportent unaniment que l'entrée d'Al Mamoun à Bagdad, lors de son retour du Khurassan eut lieu le samedi au lever du jour, la quatorzième nuit restant de Safar en l'an 204. Sa tenue ainsi que celle de toute sa suite, leurs capes, leurs culottes, leurs vaisseaux, leurs drapeaux étaient de couleur Verte.

Ils rapportent encore : «A son arrivée, il s'installa à Rusafa. Avant cela, il avait fait une halte, le samedi à Nahrawan où il sejourna pendant huit jours, recevant les gens de sa famille, les notables de Bagdad qui étaient venus lui présenter leurs hommages. Le samedi d'après, il fit son entrée à Bagdad. Il avait écrit à Tahir Ibn Al Hoseyn, qui se trouvait à Raqqa, de le rejoindre à Nahrawan. Tahir vint et fut reçut en audience Al Mamoun lui donna l'ordre d'installer son quartier, lui et ses troupes, à khayzuraniah. Puis il déménagea à son palais sur les rives du Tigre. Il donna l'ordre à Hamid, Ibn Abd Al Hamid, à Ali Ibn Hicham et à toutes leurs troupes de s'installer dans son propre camp».

Ils rapportent unanimement ceci : «Chaque jour, ils se rendaient auprès d'Al Mamoun pour lui présenter leurs hommages, dans une tenue de

couleur verte. Personne n'entrait auprès de lui que vetu de vert. Les gens de Bagdad se vétirent, également de vert. Il déchiraient tout ce qu'ils voyaient de noir porté par quelqu'un, exceptés les calottes. L'un après l'autre s'en coiffait avec crainte et hésitation. S'il s'agissait d'une cape ou d'un drapeau, nul n'osait s'en vêtir ou le porter. Cette situation dura, ainsi pendant huit jours. Les Hachémites de la descendance d'Abbas, intervinrent, spécialement, sur cette question et lui disent : «Ô Prince des Croyants, tu as abandonné la tenue des gens de ta famille, de leur dynastie pour adopter le vert !»

Ils rapportent aussi : «Les chefs des troupes Khurassaniennes lui écrirent, également, à ce sujet. A la différence de tout le monde, Tahar ibn Al Husayn, lors de son arrivée, parla de cette affaire. Al Mamoun lui manifesta son acquiescement, sans se décider encore. Lorsqu'il constata leur discipline dans l'adoption du vert, tout en le haïssant, il siégea le samedi dans une tenue verte. Lorsque tout le monde fut présent autour de lui, il se fit apporter une tenue noire dont il se vétit, fit mander une robe d'honneur noire dont il couvrit Tahir ibn Al Husayn, affrit à nombre de ses généraux des capes et des calottes de la même couleur. Quand ils sortirent de chez lui tout habillés de noir, les autres officiers délaissèrent le vert et se vêtirent comme eux.»

Ibn Tahir : Le livre de Bagdad p 9

### 14. — La bataille d'Ammouriyah

Dans cette même année 223, le roi grec Théophile, fils de Michel, se mettant à la tête de son armée, à laquelle se joignient les rois des Bordjân, des Bulgares, des Slaves et d'autres nations voisines, vint assiéger la ville de Zibatra (Sozopétra), sur les frontières des Khazares, la prit d'assaut tua la population ou la réduisit en esclavages, et attaqua ensuite la ville de Malatyah (Melitène. La terreur se répandit partout, les mosquées et les maisons retentirent de cris de détresse. C'est alors qu'Ibrahim, fils de Mehdi, se présentant devant le Khalife Moutaçem, lui récita une longue poésie, dans laquelle il décrivait ces désastres, et l'appelait au secours de ses sujets et à la guerre sainte. En voici un passage :

Ô Dieu jaloux, tu as vu cela, venge donc ces femmes et punis les forfaits dont elles sont victimes.

Il se peut que les hommes aient trouvé dans la mort le châtiment de leurs fautes, mais que dire de leurs pauvres enfants, qui périssent égorgés ?

Ibrahim est le premier qui ait employé, en poésie, l'expression *ô Dieu jaloux*. Moutaçem se mit aussitôt en campagne et partit vêtu d'une *dourraah* en laine blanche et coiffé du turban militaire ; il vint camper sur la rive occidentale du Tigre, le lundi, 2 du mois djemada premier, 223 de l'hégire. Les enseignes furent déployées sur le pont (de Bagdad), et la levée en masse, avec ordre de rejoindre le Khalife, fut proclamée dans les grandes villes. De tous les points de l'empire musulman accourent les troupes régulières et les volontaires. L'avant garde fut donnée à Achinas le truc suivi de Mohammed fils d'Ibrahim : l'aile droite à Itakh le truc l'aîle gauche, à Djâfar (fils de Diar) Khayyat ; l'arrière-garde, à Bogo l'aîné, suivi de Dinar, fils d'Abd Allah, et le centre à Odjaï. Le Khalife, passant par la frontière syrienne, entra par la passe de Selamah ; Afchîn, par la passe d'El-Hadét et le reste de l'armée, par les autres passages. Le chiffre de cette armée était immense, et il n'a pu être évalué avec certitude : les opinions varient en plus ou en moins : le calcul le plus élevé la porte à cinq cent mille hommes, le calcul le plus faible à deux cent mille. Le roi de Byzance attaqua Afchîn, mais il fut repoussé et mis en fuite ; il perdit la plupart de ses patrices et ses principaux officiers et ne dut la vie qu'à la protection d'un néo-chrétien, nommé Nocaïr aidé de quelques-un de ses compagnons. D'ailleurs Afchîn négligea l'occasion qui s'offrit à lui, ce jour-là, de prendre son ennemi fugitif : «C'est un roi, dit-il, et les rois se doivent sauvegarder mutuellement». Moutaçem s'empara de plusieurs places fortes, puis il assiégea Ammourayh (Amorium), dont Dieu lui ouvrit les portes. Un patrice nommé Lawi (Léon) vint lui-même lui livrer cette place ; Batis (Aetius), patrice qui commandait en chef, fut fait prisonnier et trente mille hommes furent égorgés. Moutaçem livra la ville au pillage et à l'incendie pendant les quatres jours qu'il y demeura; il voulut ensuite marcher sur Constantinople, en occuper le canal (Dardanelles) et aviser aux moyens de prendre cette capitale par terre et par mer; mais une nouvelle menaçante le le força de renoncer à ce projet: Abbas, fils de Mamoun, venait d'être salué Khalife par un certain parti, et il entretenait une correspondance avec les Grecs. Moutaçem se hâta de revenir sur ses pas et fit emprisonner Abbas et ses partisans. Le fils de Mamoun mourut pendant cette même année.

# TEXTES ET DOCUMENTS

## 2

## L'empire musulman sous le Califat Abbasside Epoque des Grands Califes 132-232h / 750-847

Documents arabes
(textes originaux ou traduits)
Regroupés selon des thèmes historiques
et présentés par :

**Mohamed ZNIBER**
*Professeur d'histoire à la faculté des lettres de Rabat*

الثمن : 25 درهما

دار النشر المغربية
الدار البيضاء